
كتابى
٣٨
تأليف : الكسندر ديماس
ترجمة : حلمى مراد
Looloo
www.dvd4arab.com
الكونت دى مونت كريستو
أمير الانتقام
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
مراد

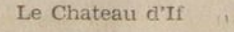
- ١ -

عودة «فرعون» الى مرسيليا

● فى يوم ٢٤ من فبراير من عام ١٨١٥ ، فى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، اقتربت السفينة (فرعون) Le Pharaon من ميناء مرسيليا . قادمة من ميناء (إزمير) Smyrne بتركيا . وحين دارت السفينة حول جزيرة (قصر إيف)(١) خرج قائدها إلى ظهرها ، وسرعان ما امتلأت ارصفة الميناء بالمتفرجين . وتعجل احدهم فلم ينتظر وصول السفينة إلى الميناء . بل قفز إلى زورق صغير وانطلق به إلى عرض البحر للقائها هناك .

وكان على ظهر (فرعون) شاب يقف باعتباره قائدها ، فلم يكد يلمح راكب الزورق حتى ترك موقعه ومضى مسرعا إلى حاجز السفينة فاطل منه ملوحا لراكب الزورق بقبعته فى صمت .

كان شابا وسيما ، طويل القامة ، نحيفا ، تتراوح سنه بين الثامنة عشرة والعشرين ، ذا عينين سوداوين وشعر فاحم – فى لون جناحى الغراب – وفى هيئته العامة ما يدل بوضوح على الهدوء والعزم المألوفين فى الرجال الذين تمرسوا بالأخطار منذ نعومة اظفارهم .



(١) Le Chateau d'If

وصاح به الرجل الذى فى الزورق وهو يدنو من السفينة :

ــ اهذا انت يا إدمون ! ماذا جرى ؟ ما سبب هذه الكآبة التى تبدو عليك ؟ !

فأجاب الشاب :

ــ لقد أصبنا بخطب جلل يا مسيو « موريل » ، فقد فقدنا عند (سيفيتا فيشيا) قائدنا الشجاع القبطان « ليكلير » Leclère . مات متأثرا بالحمى المخيفة . وكان منظر احتضاره رهيبا يفتت الأكباد . . والآن، حين تصعد إلى السطح سوف تجد فى خدمتك مسيو «دانجلر» Danglars العامل المنوط به شحن السفينة ، وسوف يتكفل بكل ما تريد !

وامسك مسيو « موريل » ، وهو صاحب السفينة ، بالحبل الذى دلى إليه ، ثم تسلقه إلى ظهرها .

كان « دانجلر » شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، ذا وجه منفر ، وكان مكروها من البحارة بقدر ما كان « إدمون دانتيس » Dantes محبوبا منهم ! . . فلما راى دانجلر صاحب السفينة ، ابتدره قائلا :

ــ هل سمعت يا مسيو « موريل » بالخطب الذى وقع ؟ لقد كان القبطان « ليكلير » التعس بحارا من الطراز الأول ، وهذا ما أهله لأن يضطلع بقيادة سفينة تابعة لمؤسسة لها مكانتها مثل مؤسسة « موريل وولده » !

فقال له مسيو « موريل » وهو يرمق « إدمون دانتيس» بنظرة ذات معنى :

ــ هذا صحيح ، ويلوح لى أيضا أن صديقنا « إدمون » ــ نائب القبطان ــ يفهم هذه التبعة جيدا !

فقال « دانجلر » وهو يحدج زميله « ادمون » بنظرة تفيض بالكراهية :

ــ نعم يا سيدى ، ولهذا لم يكد القبطان يلفظ نفسه الأخير حتى تولى « إدمون » القيادة دون أن يستشير أحدا ، ثم مكث بالسفينة يوما ونصف يوم فى جزيرة (إلبا) بدلا من القدوم إلى مارسيليا مباشرة !

وهنا قال « دانتيس » مبررا موقفه :

ــ التمس المعذرة يا مسيو « موريل » Morrel عن ذلك التأخير ، وعلى اية حال فالسفينة الآن تلقى مراسيها، وأنا فى انتظار ما تأمر به .

فقال « موريل » :

ــ لست اريد إلا ان اعرف لماذا توقفتم فى جزيرة إلبا ؟

فأجاب « دانتيس » :

ــ كان ذلك استجابة لآخر تعليمات القبطان « لكلير » ، فقد أعطانى وهو يحتضر طردا صغيرا كى أوصله إلى الماريشال « برتران » !

— لقد فعلت الصواب يا « دانتيس » بتنفيذك وصية القبطان « ليكلير » والتوقف فى إلبا ، ولو أن ذلك قد يجلب عليك المتاعب فيما لو علمت السلطات انك قد حملت طردا إلى المارشال !

— وكيف يجلب ذلك على المتاعب يا سيدى ، وأنا لم أعرف شيئا عن محتويات الطرد الذى حملته ؟

— هل لك أن تأتى لتناول العشاء معنا ؟

— شكرا لك يا سيدى على هذا الشرف الذى تسبغه على ، لكنى أرجو التفضل بإعفائى من هذه الدعوة . إن زيارتى الأولى ينبغى أن تكون لأبى .

— إذن فسوف ننتظرك بعد أن تفرغ من زيارة أبيك .

فاحمر وجه الضابط الشاب ، وقال وهو يغالب حياءه :

— مرة أخرى ارى نفسى مجبرا على الاعتذار يا مسيو « موريل » ، فبعد الفراغ من هذه الزيارة تبقى أمامى زيارة أخرى انا فى اشد الشوق إلى القيام بها !

فابتسم صاحب السفينة ، وقال :

— انت على حق يا « دانتيس » .. إن هناك من تترقب وصولك بلهفة لا تقل عن لهفة ابيك .. وأعنى بها «مرسيديس» الحسناء ! Mercèdes

وهنا ازداد احمرار وجه « دانتيس » ، وقال فى تلعثم :

— اشكرك يا سيدى ، وبهذه المناسبة ارجو أن تسمح لى باجازة لبضعة أسابيع .

فقال له مسيو « موريل » :

— إذن أنت تعتزم إتمام زواجكما ؟

فأومأ موافقا ، وقال :

— وسنسافر بعد ذلك إلى باريس .

فقال مسيو « موريل » :

— حسنا ، لك الإجازة التى تطلبها يا « دانتيس » .. على أن تعود بعد ثلاثة أشهر .

ثم ربت على كتف الشاب ، واستطرد ، قائلا :

— ان (فرعون) لا تستطيع ان تبحر بغير « قبطانها » !

وامام هذه البشرى بتثبيت اختيار الشاب قبطانا للسفينة التى مات قبطانها السابق . ضغط الشاب على يد صاحب السفينة ، وقال وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، لفرط تأثره :

— آه يا مسيو « موريل » ! إننى اشكرك باسم أبى .. واسم « مرسيديس » !

فشد مسيو « موريل » على يد الشاب مهنئا ومودعا ، وقال له :

— إنك شاب كفء طيب القلب ، ولن اعوقك عن الذهاب الآن ، ولتصحبك السلامة !

وعلى اثر ذلك مضى « دانتيس » إلى شارع (دى نواى) فى حى (لاكانا بيير) .. وهناك دخل منزلا صغيرا إلى يسار ممر (دى ميان) ، وصعد سلمه المعتم عدوا إلى الطابق الرابع . حيث تمهل امام باب نصف مفتوح ، يرى الناظر

خلاله جميع محتويات الحجرة التى يفضى إليها . وهناك فى تلك الحجرة كان يجلس والد « دانتيس » ، فما كاد يلمح ابنه حتى اطلق صيحة فرح ، ثم خف إلى استقباله واحتضنه مرتجفا من شدة الانفعال . ولحظ الشاب شحوب وجه ابيه ، فساله فى انزعاج :

ـ ماذا بك يا ابى العزيز ؟ هل انت مريض ؟ اين تحتفظ بنبيذك ؟

فاجاب الشيخ المسن :

ـ لا فائدة من الإنكار يا بنى .. لم يعد عندى نبيذ !

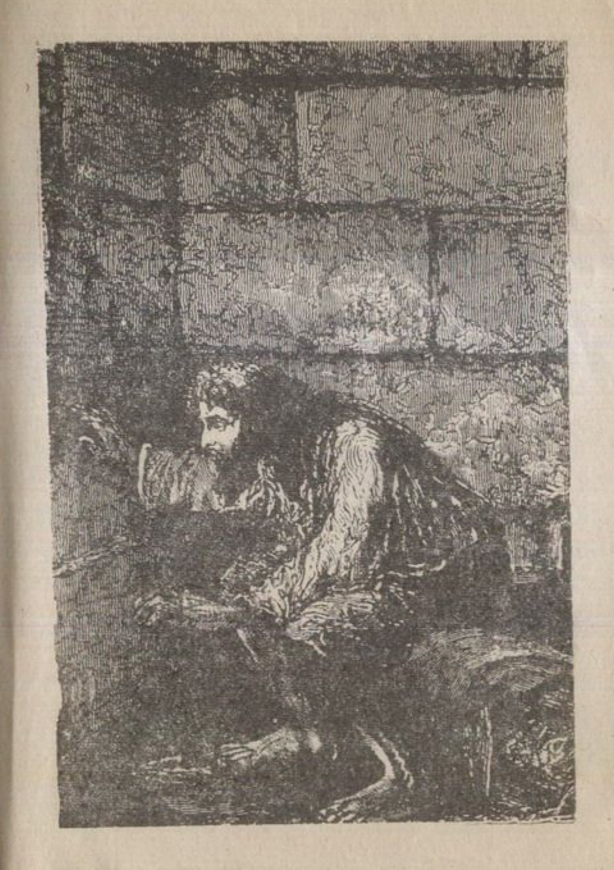
فتساءل « دانتيس » وقد شحب وجهه :

ـ ماذا ؟ ليس عندك نبيذ ؟ هل كنت فى حاجة إلى نقود يا ابى ؟ .. لقد اعطيتك مائتى فرنك حين رحلت منذ ثلاثة اشهر !

ـ نعم هذا صحيح يا « إدمون » ، لكنك نسيت الدين الصغير الذى كان علينا لجارنا « كادروس Caderousse » حائك الثياب ! لقد ذكرنى به وانذرنى إن لم ادفعه بان يطالب به مسيو « موريل » .. وهكذا خشيت ان يصيبك الرجل باذى ، ودفعت له دينه !

فقال « دانتيس » متعجبا :

ـ دفعت كل الدين الذى فى ذمتى « لكادروس » ، دفعت مائة واربعين فرنكا ؟ !



فتمتم الأب المسن موافقا . على حين واصل « دانتيس » كلامه قائلا :

ـ إذن فقد عشت ثلاثة أشهر بستين فرنكا فقط ؟ ! إن هذا ليحزننى كثيرا يا أبى !

وسكت الشاب فجاة إذ سمع وقع خطا شخص قادم ، ثم ظهر « كادروس » عند الباب ، وكان شابا فى نحو الخامسة والعشرين ، تحيط بوجهه لحية سوداء ، وفى يده قطعة من القماش يتهيأ لحياكتها . ولم يكد يلمح « دانتيس » حتى ابتدره قائلا :

ـ أهذا انت يا « إدمون » ؟ .. إنك فيما سمعت مستمتع بالحظوة عند مسيو « موريل » فى هذه الأيام . لكنك أخطأت برفض دعوته إلى العشاء ، فلكى يصير المرء قبطانا ينبغى ان يتقرب بالزلفى إلى رؤسائه !

فاجابه « دانتيس » :

ـ أرجو ان أصير قبطانا بغير هذه الوسيلة !

فقال « كادروس » :

ـ إن أصدقاءك القدامى جميعا على اية حال سيسرهم هذه الترقية ، وانا اعرف ـ يقينا ـ من التى ستكون اشدهم سرورا !

فالتفت الأب الشيخ إلى الخياط ، متسائلا :

ـ أتعنى « مرسيديس » ؟

وسارع ابنه إلى الإجابة ، قائلا :

ـ نعم يا ابى العزيز ، ولهذا أرجو ان تاذن لى فى ان أذهب لزيارة أسرتها الآن .

فقال والده على الفور :

ـ هذا واجب يسرنى ان تؤديه يا بنى العزيز . فلتبارك السماء لك فى زوجتك ، كما باركت لى فيك !

ثم عانق الفتى اباه ، واوما إلى « كادروس » برأسه ، وغادر البيت .. فى حين مضى « كادروس » بعد لحظة ليلحق بصديقه البحار « دانجلر » ، الذى كان فى انتظاره ، فابتدره هذا ، قائلا :

ـ هيه ؟ هل أشار « إدمون » إلى امله فى ان يعين قبطانا ؟

فأجاب « كادروس » :

ـ لقد تكلم عن هذا الأمر كما لو كان شيئا مقررا !

فغمغم دانجلر :

ـ لو كان للإنسان ان يختار . لآثر الغبى ان يظل حيث هو ، بل لآثر ان يهبط درجة عن مرتبته الحالية !

ولما سأله « كادروس » عما يعنيه ، أجاب بقوله :

ـ لا شيء ! .. كنت احدث نفسى !

ثم تنهد واستطرد متسائلا :

ـ هل ما يزال يحب تلك الفتاة التى تنتمى إلى عشيرة كاتالان ؟

فقال « كادروس » :

ـ نعم ، إنه ما يزال يحبها بكل مشاعره .. ولكن ، إذا لم اكن مخطئا فسوف تثور عاسفة فى ذلك الحى .. فما من مرة رايت فيها « مسيديس » تأتى إلى المدينة إلا كان معها شاب اسمر طويل القامة ، مفتول العضلات ، فاحم العينين ، تبدو عليه الشراسة .. وهى تدعوه بابن العم !

فسأله « دانجلر » :

ـ متى يذهب « دانتيس » لزيارة فتاته ؟

ـ لقد انطلق لأداء هذه المهمة قبل ان احضر إليك مباشرة!

ـ إذن ، يحسن ان نمضى الآن إلى هناك لنجلس فى حانة (لاريزروف) ، حيث نشرب قدحا من نبيذ (مالاقا) وننتظر ما يجد من الأنباء !



— ٢ —

اتهـــــام خطير

كانت القرية التى تقطنها عشيرة « كاتالان » تقع على بعد مائة خطوة من الحانة التى جلس فيها « دانجلر » وصديقه « كادروس » يحتسيان النبيذ ، وكانت هذه العشـيرة الغامضة قد هاجرت منذ زمن بعيد من وطنها الأصـلى (اسبانيا) واستقرت فى تلك البقعة من الارض ، الشبيهة باللسان الممتد فى البحر . وقد لبث القوم حوالى ثلاثة قرون أو اربعة لا يختلطون بأهل مرسيليا ، وإنما يتزاوجون فيما بينهم ويحافظون على تقاليد بلادهم الاصلية ، ولغتهـا وزيها .

وفى بيت من بيوت تلك القرية ، كانت تجلس شابة حسناء ذات شعر فاحم كالكهرمان الأسود ، وعينين مثل عينى الغزال .. وقد أسندت ظهرها إلى الجدار . وعلى قيد ثلاث خطوات منها جلس على مقعد هناك شاب طويل ، فى العشرين أو الثانية والعشرين من عمره ، واخذ يحدجها بنظرات ملؤها القلق والحيرة .. ثم قال لها :

— ها هو ذا عيد الفصح قد اقترب مرة اخرى يا « مرسيديس » ، فماذا ترين فى مسألة زواجنا ؟

فقالت له الفتاة :

— لقد اجبت عن هذا السؤال مائة مرة يا « فرناند » Fernand ، وما زلت أؤكد لك انى احبك كاخ ،

وارجو الا تسألنى أكثر من هذا الحب الأخوى ، لأن قلبى ملك لآخر انت تعرفه ، وهو « إدمون دانتيس » !

وهنا حدق « فرناند » فى وجه الفتاة ، ثم سألها وهو يصر بأسنانه :

— وإذا فرضنا انه مات ، فماذا يكون رأيك ؟

فقالت على الفور :

— إذا مات « إدمون » فانى أموت ايضا !

وفى تلك اللحظة هتف صوت طروب من الخارج :

« مرسيديس » !.. « مرسيديس » !

فصاحت الفتاة وقد تورد وجهها غبطة ، وكاد الحب يجعلها تقفز من مكانها :

— آه ، هذا هو !

وعندئذ اندفع « فرناند » إلى الخارج وقد شحب وجهه وارتجفت اوصاله ! .. وهتف يحدث نفسه وهو يعدو ويشد شعر رأسه كالمجنون :

— أوه ، من يخلصنى من هذا الرجل ؟.. يالى من تعس !

وفيما هو كذلك ، سمع صوتا يناديه :

— « فرناند » ! .. إلى اين تعدو هكذا ؟

فتوقف الشاب فجأة ونظر حواليه ، فرأى « كادروس » جالسا مع « دانجلر » إلى منضدة ، تحت تكعيبة خشبية خارج الحانة المجاورة للمنزل .

وقال « كادروس » وهو يومىء إلى صديقه :

— اترى يا « دانجلر » ؟ .. إن « فرناند » شاب شجاع

طيب من عشـــيرة كاتالان ، وهو يحب فتـــاة تـــدعى « مرســـيديس » .. ولـــكن يبدو ان هذه الفتـــاة تحب نائب قبطان السفينة (فرعون) !

فقال « فرناند » :

ـ إن الأمر يكاد يدفعنى إلى هاوية اليأس !

فقال له « كادروس » :

ـ لماذا تستسلم لليأس بدلا من ان تفكر فى حل لمشكلتك ؟ لم اكن اعتقد ان هذا داب عشيرتك ؟ !

فزفر « فرناند » زفرة حسرى ، وقال :

ـ إنى على استعداد لأن اطعن خطيبها ذاك بسكين ، لكنها اكدت لى انها لو وقع له اى مكروه فسوف تقتل نفسها !

وهنا قال « دانجلر » :

ـ هناك حل ناجع لا يقل أثره عن أثر موت ذلك الخطيب .. لو ان جدران السجن مثلا حالت بين « إدمون » و « مرسيديس » ، لأدى هذا إلى انفصالهما ومنع زواجهما .. وهكذا ترى ان لا حاجة بك إلى قتله !

فتنهد « فرناند » مرة أخرى ، وقال :

ـ ومن لى بالوسيلة التى تكفل إلقاء « دانتيس » فى غياهب السجن ؟ .. هل لديك هذه الوسيلة ؟

قال « دانجلر » :

ـ يخيل إلى انه بعد رحلة كالتى قام بها اخيرا ، وعرج فيها على جزيرة (ألبا) ، يمكن بسهولة ان تزج به السلطات الملكية فى السجن ، بتهمة انه من اتباع بونابرت !

فهتف « فرناند » متحمسا :

ـ حسنا ! .. ساشى انا به إلى السلطات الملكية !

فقال « دانجلر » مقاطعا :

ـ كلا ! .. لو قررنا اتخاذ هذه الخطوة لكان الافضل ان نأخذ هذه الريشة ـ كما افعل الآن ـ ونغمسها فى هذا الحبر ، ثم نكتب الاتهام الذى نتفق عليه ـ باليد اليسرى ، وبغير توقيع ـ كيلا يعلم احد بأن لنا يدا فى الأمر !

ثم كتب « دانجلر » ـ بيسراه ـ السطور التالية ، وقراها بعده « فرناند » بصوت هامس :

« من صديق للعرش والدين ، الى فخامة النائب العام لصاحب الجلالة الملك : ان من يدعى « ادمون دانتيس » ، نائب قبطان السفينة (فرعون) ، وصل هذا الصباح قادما من آزمير ، بعد ان مر بنابولى و (بورتوفيراجو) . وقد عهد اليه « مورا » فى مهمة حمل خطاب الى الغاصب « نابوليون بونابرت » .. كما عهد اليه هذا الغاصب ، حين اجتمع به ، فى حمل رسالة منه الى جماعة من انصاره ذوى الخطر فى باريس .. وسوف تجدون الدليل الذى يثبت هذه الجريمة عند القبض عليه ، لأن خطاب الغاصب ما زال عنده ، أو عند أبيه ، ان لم يكن فى غرفته الخاصة بالسفينة » !

ثم قال « دانجلر » معقبا :

ـ هذا عظيم !.. والآن يبدو انتقامك معقولا ، فهو لا يمكن ان يرتد إليك . وما علينا الآن إلا ان نغلف هذا الخطاب ، ثم نكتب على المظروف : (إلى النائب العام لصاحب الجلالة) ، وبذلك ينتهى كل شىء !

وما إن اتم « دانجلر » عبارته حتى كان قد انتهى فى الوقت نفسه من كتابة العنوان .. على حين قال « كادروس » مؤكدا :

— نعم ، وبذلك ينتهى كل شىء !

وكان هذا الأخير قد استطاع ، بإجهاد قواه الذهنية إلى آخر ما تحتمل ، أن يتابع عبارات الخطاب فى أثناء تلاوة « فرناند » إياه ، ويدرك مدى فظاعة النتائج التى قد يفضى إليها الاتهام .. فعاد يكرر قول صديقه « دانجلر » :

— نعم ، بذلك ينتهى كل شىء ! لكنها تكون فعلة دنيئة تجلب العار !

ثم مد الرجل يده محاولا انتزاع الخطاب من يد « دانجلر » ، فلم يمكنه هذا من الوصول إليه ، وقال له وهو يبعد الخطاب عن متناول يده :

— إن الأمر مجرد مـــزاح ، وإنى لأول من يحزن إذا وقع أى مكروه لصديقنا الهمام « دانتيس » ! .. وعلى هـــذا فها انذا اقذف بالخطاب إلى الأرض بين المهملات والقاذورات !

ثم نهض « دانجلر » بعد ان القى الخطاب فى ركن من اركان الحانة ، واخذ طريقه ومعه صديقه « كادروس » عائدين من حيث جاءا . وبعد ان مشيا خطوات ، التفت « دانجلر » إلى الخلف ، فرأى « فرناند » يلتقط الخطاب ويضعه فى جيبه ، ثم يمضى نحو المدينة !

— ٣ —

زفـــاف .. الى السجن !

فى اليوم التالى كانت قد أعدت العدة لزفاف « مرسيديس » إلى « دانتيس » . وهناك فى الطابق الثانى من حانة القرية التى اجتمع فيها المتآمرون فى اليوم السابق ، امتلأت الشرفة بالمدعوين إلى المادبة ، قبل ان يحين الموعد المحدد لها بساعة كاملة .. وكانوا خليطا من بحارة السفينة (فرعون) ، زملاء « دانتيس » ، ولفيف من خاصة اصدقائه ، وقد ارتـدى الجميع احسن ثيابهم .

وحينما لاح موكب العروسين هبط مسيو « موريل » ليستقبله ، إمعانا فى تكريم القبطان الجديد فى أسعد مناسبات حياته ، وتبعه جمع من الجنود والبحارة ، وكانوا قد علموا منه بنبأ اختيار « دانتيس » قبطانا للسفينة (فرعون) ، خلفا للقبطان « ليكلير » ، فتضاعفت فرحتهم بهذا الاختيار .

وحين بلغت العروس منتصـــف المائدة الكبرى وقفت والتفتت إلى ابيها قائلة : « ارجو ان تتكرم يا ابى بالجلوس إلى يمينى » . ثم اومات إلى « فرناند » بابتسامة لطيفة وقالت : « اما عن يسارى فسيجلس ذلك الذى طالما كان بمثابة اخ لى ! » .

وكانما أثارت عبارتها وابتسامتها اللواعج الكامنة فى صدر الفتى ، فشحب وجهه على اثر ذلك شحوبا مخيفا ، وتقلصت شفتاه ، وبدا مضطربا غاية الاضطراب !

وهناك فى الجانب الآخر من المائدة كان « دانتيس » بدوره يتولى معاونة ضيوفه الممتازين على الجلوس ، فأجلس مسيو « موريل » إلى يمينه ، و « دانجلر » إلى يساره .. ثم اوما إلى بقية المدعوين فجلسوا حيثما راق لهم ان يجلسوا . وفيما هم ياكلون قال « دانتيس » يخاطبهم :

ــ اى اصدقائى الأعزاء .. يسرنى ان اخبركم اننا بفضل نفوذ مسيو « موريل » حصلنا على إذن بالتجاوز عن المهلة القانونية المشروطة لعقد القران ، وعلى هذا فسوف ينتظرنا عمدة مارسيليا فى قاعة البلدية فى الساعة الثانية والنصف ، اى بعد حوالى ساعة ، ولن تمضى ساعة اخرى حتى يتم الزواج . وفى صباح غد اسافر إلى باريس لإنجاز المهمة الموكولة إلى ، وسوف اعود إلى هنا فى اول مارس ، وفى اليوم التالى اقيم المادبة الحقيقية للزواج ، حيث يسعدنى ان ادعوكم جميعا إليها منذ الآن !

وبعد حين سمع صوت « مرسيديس » العذب وهى تقول :

ــ هلا تحركنا ؟ .. لقد دقت الساعة الثانية ، ولم يبق إلا ربع ساعة على موعد الذهاب إلى البلدية !

وفى تلك اللحظة سمعت على الباب ثلاث طرقات .. وصاح صوت عال من الخارج :

ــ افتحوا باسم القانون !

ثم فتح الباب ، ودخل منه محقق من وكلاء النائب العام ، يتبعه عدد من الجنود ، وصاح المحقق على الفور :

ــ « إدمون دانتيس » ، إنى اقبض عليك باسم القانون ! .. وسوف تعلن بالأسباب التى دعت إلى ذلك فى بداية التحقيق !

وساد القاعة على اثر ذلك سكون رهيب ، ثم هبط « دانتيس » السلم خلف المحقق ، يتبعهما الجنود .. وكانت امام الباب عربة استقلها برفقة المحقق واثنين من الحراس .. ثم درجت بهم العربة عائدة إلى مارسيليا .

وصاح مسيو « موريل » يخاطب بقية المدعوين :

ــ انتظرونى هنا جميعا ، سأهرع إلى مارسيليا ثم اعود لأنبئكم بالخبر اليقين عن تطور الأمور !

وفى الوقت نفسه كان إلقاء القبض على « دانتيس » موضوع تعليقات مختلفة اللهجة من جانب بعض المدعوين ، فقال احدهم يسأل « دانجلر » :

ــ وما رايك فى هذا الحادث ؟

فاجاب « دانجلر » : (اعتقد ان « دانتيس » لابد قد اتهم بتهريب مادة تافهة من المواد الممنوع دخولها إلى هذه البلاد) .

وهنا قال والد الشاب فى صوت متهدج :

ــ الآن تذكرت .. لقد ذكر لى ابنى المسكين امس انه احضر لى صندوقا صغيرا من البن وآخر من التبغ !

واخيرا هتف واحد من المدعوين كان مطلا من الشرفة :

ــ اخبار طيبة ! اخبار طيبة ! .. هذا هو مسيو « موريل » قد عاد . لا شك الآن اننا سنسمع منه نبأ الإفراج عن صديقنا « دانتيس » !

وهرعت « مرسيديس » والوالد الشيخ ليستقبلا صاحب السفينة عند الباب ويستطلعا منه الأنباء .. لكن هذا خاطب الحاضرين ، قائلا بلهجة جادة :

— ان الأمر قد اتخذ اتجاها أخطر مما كنت اظن أيها الأصدقاء .. ان « دانتيس » متهم بانتمائه إلى حزب بونابرت!

فى الوقت الذى جرت فيه تلك الأحداث المتلاحقة فى مادبة زفاف « مرسيديس » إلى « دانتيس » ، كانت هناك فى احد القصور الأرستقراطية الواقعة فى شارع (جران كور) تجاه نافورة « ميدوزا » حفلة زفاف اخرى ، يشهدها جمع من صفوة المجتمع الرفيع فى مرسيليا .

وفى هذه الحفلة نهض رجل مسن يحلى صدره بصليب « سان لويس » ، مقترحا شرب نخب صحة الملك لويس الثامن عشر . ولم يكن ذلك الشيخ سوى المركيز « سان ميران » . وكانت المركيزة زوجته امراة ذات وجه عبوس ومظهر مترف جليل ، برغم الخمسين سنة التى انصرمت من عمرها .. فقالت معلقة :

— آه ، لو كان الثوريون هنا الآن لما استطاعوا إلا ان يعترفوا بأن الملك الشرعى هو راعينا « لويس المحبوب » فى حين أن عبقريهم الشرير «نابليون اللعين» كان دائما ، وسوف يكون فى كل حين هو الغاصب التعس ! .. ألست على حق يا « مسيو دى فيلفور » ؟ DE VILLEFORT

والتفت هذا إلى المركيزة حين سمعها تذكر اسمه ، وقال فى هدوء :

— اسألك المعذرة يا سيدتى .. إننى فى الواقع ، واعتذر مرة اخرى عن ذلك ، لم أكن اتتبع النقاش !

وهنا قالت « رينيه دى سان ميران » — وهى شابة حسناء يكلل هامتها تاج من الشعر الكستنائى الجميل وتزين وجهها عينان كأنهما تسبحان فى بلور سائل :

— لا بأس يا امى العزيزة . لقد كنت أنا المسئولة عن شغل انتباه المسيو دى « فيلفور » ، بحيث لم ادعه يصغى إلى حديثك .. والآن يا مسيو « دى فيلفور » ، دعنى اذكرك بأن امى تخاطبك !

وعلى اثر ذلك عادت الأم تكرر رأيها ، فقالت :

— كنت اقول يا « فيلفور » إن انصار بونابرت ليست لهم حماستنا وتفانينا فى الإخلاص .

فقال « فيلفور » :

— إن لهم مع ذلك ، عوضا عن هذه الصفات الرائعة ، تعصبهم لزعيمهم إلى أقصى حد .. إن نابليون يكاد يكون معبود اتباعه، وليس هذا لأنه زعيم ومشرع للقوانين فحسب، بل لأنه داعية مثالى للمساواة !

— هل تعلم يا « فيلفور » انك تتكلم بلهجة ثورية مخيفة ؟ لكنى اعذرك ! فمن المستحيل أن ننتظر من ابن « الجيرونديى » ان يكون معصوما من آثار الخميرة القديمة !

وعندئذ اصطبغ وجه « فيلفور » بحمرة القرمز ، واجاب محدثته ، قائلا :

— صحيح يا سيدتى أن أبى كان من أنصار «الجيرونديين»، لكنه لم يكن بين أولئك الذين صوتوا طالبين إعدام الملك. اما عن نفسى فقد وضعت جانبا كل اعتبار، حتى اسم أبى، وتنصلت من مبادئه السياسية. لقد كان — بل يحتمل انه ما زال حتى الآن — من اتباع بونابرت، وهو يسمى نفسه «نوارتييه» .. اما انا فعلى العكس منه ملكى متحمس، وقد خلعت على نفسى لقب «دى فيلفور» .. وعلى كل حال فلندع مخلفات الوباء الثورى حتى تذهب وتزول من تلقاء نفسها!

فأجابته المركيزة :

— من صميم قلبى ارجو أن ينسى الماضى إلى الأبد. وكل ما أطلبه ان يكون «دى فيلفور» فى المستقبل حازما لا يلين فى مبادئه السياسية. ولتثق بانه لو وقع فى يدك اى شخص متآمر على الحكومة فإن واجبك يقضى بأن تعاقبه عقابا صارما، ولا سيما انك معروف بالانتماء إلى اسرة كانت من انصار «الجيرونديين»!

فقال فيلفور :

— إننى يا سيدتى، بحكم مهنتى والزمن الذى نعيش فيه، مضطر إلى ان اكون صارما. لقد توليت توجيه محاكمات علنية عديدة بنجاح تام، وأوقعت بالمعتدين العقاب الذى يستحقونه، لكننا لم نقض على الخطر بعد!

وهنا هتفت حسناء شابة، هى ابنة الكونت «سالفيو» والصديقة الحميمة للآنسة «دى سان ميران».

— أواه! .. بربك يا مسيو «دى فيلفور» حاول ان تعقد بعض المحاكمات المثيرة فى أثناء وجودنا فى مارسيليا، فإنى لم ادخل محكمة فى حياتى، ويقال إنها متعة مسلية!

فأجاب المدعى الشاب :

— نعم إنها تكون مسلية بلا شك، إذا اعتبرنا مشاهدة مآسى الحياة تسلية! .. وعلى اية حال، فلتكونى على ثقة يا سيدتى من انه لو سنحت اية فرصة قريبة فلن اتردد فى دعوتك لكى تحضرى إحدى المحاكمات!

وفى هذه اللحظة دخل خادم وهمس فى اذن «فيلفور»، فنهض هذا معتذرا باضطراره لمغادرة القاعة قليلا، لعمل طارىء، ثم عاد بعد لحظات متهلل الوجه، وقال ردا على استفسار من الآنسة «دى سان ميران» :

— لقد دعيت لتولى التحقيق فى مسألة خطيرة قد تنتهى على يد الجلاد، وإذا صحت المعلومات التى تلقيتها فإن هناك مؤامرة «بونابرتية»، وسأقرأ لكم الخطاب الذى حوى الاتهام!

ثم تلا عليهم الرسالة التى اعدها «دانجلر» و «كادروس» و «فرناند» فى حانة القرية، متهمين فيها «إدمون دانتيس» بالمرور على جزيرة (إلبا) حيث يقيم «نابليون» منفيا، وتوصيل رسالة إليه! .. ولم يكد «فيلفور» يفرغ من القراءة حتى هتفت الفتاة «رينيه» مصفقة، وهى ترنو لخطيبها فى لهفة وإشفاق :

ـ أوه يا « فيلفور » ، كن رحيما فى يوم خطبتنا هذا !

فأجابها مبتسما :

ـ إرضاء لك يا عزيزتى « رينيه » ، اعدك بأن اظهر كل التسامح الذى فى طاقتى ، ولكن إذا كانت التهمة ثابتة على هذا المتآمر البونابرتى ، فينبغى ان تاذنى لى فى ان اقدم راسه للمقصلة !

وغادر « فيلفور » المكان على الفور قاصدا إلى مكتبه ، الملحق بقصر العدالة ، وهناك جلس إلى المكتب مكتئبا .. وبعد لحظة ادخل عليه « دانتيس » ، الذى قال فى هدوء ردا على سؤال المحقق :

ـ اسمى « إدمون دانتيس » .

ـ هل خدمت فى عهد الغاصب ؟

ـ كنت على وشك الانخراط فى سلك البحرية حين سقط بونابرت .

وعندئذ خاطبه « فيلفور » وهو يخرج الخطاب من جيبه ويعرضه عليه :

ـ هل تعرف لك اعداء ؟

فأجابه البحار الشاب بعد ان قرا الخطاب ، وقد غامت على وجهه سحابة قاتمة :

ـ كلا يا سيدى : لست اعرف هذا الخط !

ثم اضاف وهو ينظر إلى المحقق نظرة امتنان :

ـ إنه لمن حسن حظى ان يحقق معى رجل مثلك ، فهذا الخطاب لا يصدر إلا من عدو حاسد !

فقال له « فيلفور » :

ـ الآن حدثنى بصراحة ، حديث الرجل إلى رجل يهتم بأمره : « اى نصيب من الحقيقة فى الاتهام الوارد فى هذا الخطاب ، المجهول المصدر » ؟

فأجاب « دانتيس » :

ـ لا شىء البتة ! سأروى لك الوقائع على حقيقتها : عندما غادرنا (نابولى) ، أصيب القبطان « ليكلير » بحمى مخية . وفى نهاية اليوم الثالث ، إذ احس بدنو اجله ، استدعانى وقال لى : « يا عزيزى دانتيس » ، اقسم امامى لتؤدين المهمة التى سأكلفك بها .. إن قيادة السفينة سوف تئول إليك بعد موتى ، بوصفك نائبى ، وانا اريد منك ان تعرج بالسفينة على جزيرة (إلبا) ، وان تهبط إلى البر فى ميناء (بورتو فيراجو) ثم تسأل عن مكان « المارشال الأكبر » وتسلمه هذا الخطاب ، وإذا اعطاك ـ ردا عليه ـ خطابا آخر ، فلتحمله إلى حيث يطلب منك .. ولتذكر دائما ان رغبات الإنسان المحتضر مقدسة ، علاوة على أن الرغبات الأخيرة الصادرة إلى بحار ، من رئيسه ، تعتبر بمثابة الأمر» !

« وهكذا ابحرت إلى جزيرة (إلبا) ، وهناك امرت جميع البحارة بالبقاء على ظهر السفينة ونزلت وحدى إلى

البر ، ثم مضيت إلى حيث سلمت الرسالة للماريشال الأكبر ، فزودنى برسالة لأحملها إلى شخص فى باريس » .

فقال « فيلفور » على الفور :

ــ إذا كنت قد ارتكبت ذنبا فهو ذنب عدم الحيطة ، الذى جعلك تطيع أوامر رئيسك .. فلتهمل أمر الخطاب الذى أحضرته من (إلبا) ، ولتعدنى بشرفك أن تحضر متى استدعيناك ، والآن اذهب إلى أصدقائك !

فتساءل « دانتيس » فرحا :

ــ إذن فأنا مطلق السراح يا سيدى ؟

فقال « فيلفور » :

ــ نعم ، ولكن أعطنى ذلك الخطاب اولا !

فأجاب البحار :

ــ لقد اخذوه منى حين فتشونى ، هاهو ذا اراه ضمن الأوراق التى أمامك !

ثم تناول « دانتيس » قبعته وقفازيه وهم بالخروج ، لكن المحقق استوقفه ، قائلا :

ــ انتظر دقيقة .. إلى من كتب الخطاب ؟

ــ إلى مسيو « نوارتييه » NOIRTIER ، بشارع « كوك هيرون » بباريس .

ولو ان صاعقة سقطت فى الحجرة ، لما كان ذهول « فيلفور » أشد منه لدى سماعه هذا الاسم .. فقد شحب وجهه شحوبا مخيفا ، ثم سأل محدثه :

ــ هل اطلعت أحداً على هذا الخطاب ؟

ــ كلا يا سيدى ! واقسم بشرفى !

ــ أليس لك علم بشىء مما فيه ؟

ــ كلا .. واقسم بشرفى يا سيدى !

فغمغم « فيلفور » ، محدثا نفسه :

ــ آه لو علم بمحتويات هذا الخطاب ، وبأن « نوارتييه » هو والدى ، إذن لهلكت !

ثم أضاف محدثا « دانتيس » :

ــ لم يعد فى وسعى يا سيدى ــ كما كنت أؤمل ــ أن اطلق سراحك فورا ، لكنى سأجاهد كى أجعل مدة اعتقالك اقصر ما يمكن ، ذلك لأن التهمة الرئيسية ضدك هى هذا الخطاب، وسترى الآن ما انا فاعل به !

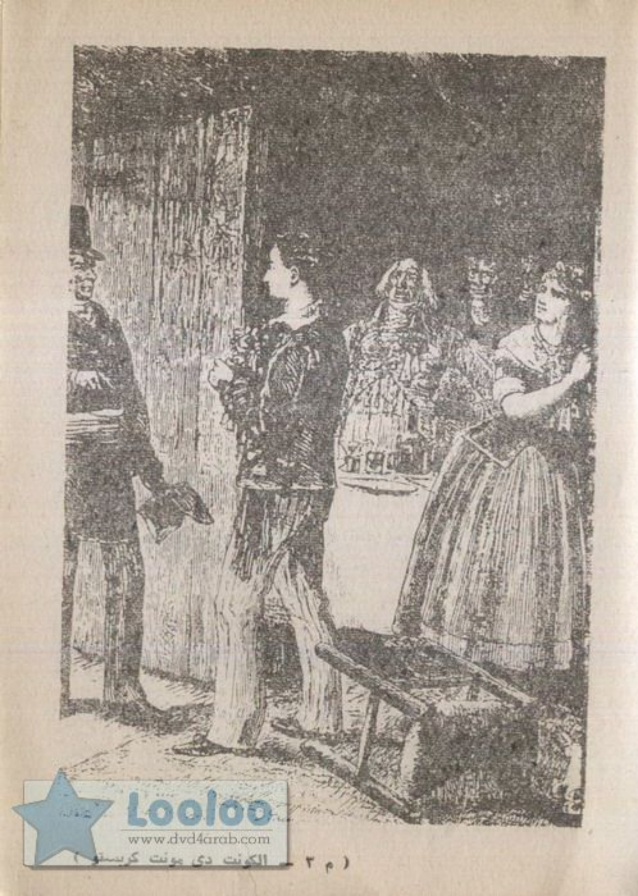
ثم اقترب من المدفأة ، والقى الخطاب فى النار ، وانتظر حتى احترق عن آخره ، وعندئذ قال مستطردا :

ــ هأنت ذا ترى انى احرقت الخطاب .. وسوف أحجزك حتى المساء فى قصر العدالة ، فإذا استجوبك احد غيرى فقل له ما ذكرته لى ، ولكن حذار ان تشير بحرف إلى هذا الخطاب ، وثق بأنك إذا اطعت هذه التعليمات فلا ضير عليك البتة !

فتنهد « دانتيس » وقال :

ــ اطمئن يا سيدى ، لن اشير إليه بحرف !





وإذ ذاك دق « فيلفور » الجرس ، فلما ظهر احد الجنود على الباب همس فى أذنه ببضع كلمات .. ثم قال يخاطب « دانتيس » :

ـ اتبعه !

ولم يكد الباب يغلق بعد انصرافهما حتى القى « فيلفور » بنفسه متهالكا على مقعده وراح فى شبه إغماء .. فلما أفاق راح يحدث نفسه قائلا : « لو كان النائب العام موجودا فى مارسيليا اليوم لهلكت ، ولدمر هذا الخطاب اللعين كل آمالى ! .. اواه يا أبى ، إلى متى يظل ماضيك يعرقل مستقبلى ونجاحى » ؟

وفجأة أضاء وجهه خاطر مباغت ، ورفت على فمه ابتسامة .. ثم تحجرت عيناه من الانهماك فى التفكير ، وقال يحدث نفسه : « هذا يكفى ! من هذا الخطاب الذى كان سيقضى على ، سوف أجمع ثروة من الملك ! .. والآن إلى العمل » ! .. وهرع فيلفور لمقابلة الملك « لويس الثامن عشر » ليطلعه على تفصيلات المؤامرة التى اكتشفها وقضى عليها فى مهدها !

***

اما « دانتيس » فقد خرج ، يتوسط حامية حراسه ، إلى حيث كانت عربة تنتظر فى الخارج .. فصعد سلمها وجلس بين اثنين من جنود البوليس على حين جلس فى مواجهتهم جنديان آخران .. ثم بدات المركبة سيرها فوق الطريق المرصوف بالأحجار .. وحين وقفت آخر الأمر ، طلب الحراس إليه أن يهبط ، وتقدمه بعضهم إلى رصيف يفضى

إلى البحر ، فاركبوه قاربا انطلق بهم فى الماء ، تدفعه مجاديف اربعة من البحارة !

وتساءل « دانتيس » :

ـ إلى أين تأخذوننى ؟

لكنه لم يتلق اى جواب ! .. وحين تطلع حواليه ، وقعت عينه على الصخرة السوداء الكئيبة التى يقوم عليها سجن (قصر « إيف ») .. القلعة الموحشة التى كانت مادة لأشنع الأساطير المخيفة خلال اكثر من ثلاثمائة عام !

واحس « دانتيس » ، وهو يصعد سلم القلعة ، كانه فى حلم ! .. ولم يلبث ان اغلق دونه الباب الضخم الذى يفصل بينه وبين عالم الاحرار .. ولم يلق نظرة ، وهو داخل ، إلى البحر .. على ذلك الحاجز الرهيب الذى ينظر إليه المسجونون نظرة يأس بالغة !

وقاده حارس إلى زنزانة تكاد تقع تحت مستوى الأرض ، وكانت جدرانها العارية مبللة ببخار البحر ، كأنها مشربة بالدموع ، يضيئها مصباح خافت الضوء ، موضوع فوق كرسى صغير بغير ظهر . وخاطبه الحارس ، قائلا :

ـ هذه غرفتك التى ستقضى فيها الليلة .. فالوقت متاخر ، وحاكم السجن نائم ، وقد ينقلك غدا إلى غرفة اخرى .. وإليك طعامك من الخبز والماء ، وهو كل ما يستطيع السجين ان يطمع فيه . طابت ليلتك !

بقى « دانتيس » وحيدا ، فى الظلمة والسكون ، يحس كان اشباحا وظلالا تتنفس على جبهته الملتهبة ! .. وعند

ظهور اول طلائع الفجر ، عندما عاد إليه السجان يحمل امرا بتركه حيث هو ، وجده واقفا فى الوضع الذى تركه عليه فى اول الليل ، وكأنه تحول إلى تمثال جامد ، وقد تقرحت اجفانه من البكاء .. لقد قضى الليلة واقفا ، بلا نوم !

واقترب السجان منه ، فلم يبد على « دانتيس » انه تنبه إلى اقترابه .. ثم سأله هذا :

ـ الم تنم ؟

ـ لست أدرى !

ـ هل انت جائع ؟

ـ لست أدرى !

ـ الا تريد شيئا ؟

ـ أريد مقابلة حاكم السجن !

وعندئذ هز السجان كتفيه وغادر المكان صامتا . بعد ان اغلق باب الزنزانة كما كان !

فانفجر « دانتيس » باكيا ، ثم القى بنفسه على الأرض وراح يسائل نفسه : « اية جريمة ارتكبتها ، حتى اعاقب على هذه الصورة » ؟

وانقضى اليوم على هذا المنوال ! .. لم يكد يذوق طعاما ، وإنما راح يدور فى الزنزانة كالوحش الحبيس ، ويلوم نفسه على انه جلس ساكنا مستسلما فى الزورق فى اثناء نقله إلى السجن ، فى حين كان يستطيع ان يقفز إلى البحر فيبلغ الشاطىء ، بفضل براعته المشهود بها فى السباحة .. وهناك يخفى نفسه حتى تصل اية سفينة فيستقلها هاربا إلى

اسبانيا أو إيطاليا ، حيث يلحق به ابوه ، وخطيبته « مرسيديس » .. ولن يحيره التفكير فى الوسيلة التى يكسب بها عيشه هناك ، فالبحارة الأفذاذ أمثاله يجدون ترحيبا حيثما حلوا ، وهو يتقن الإيطالية والأسبانية كأبنائهما !

وكاد يجن ندما على أنه وثق بوعد « فيلفور » ، فألقى نفسه فى حنق فوق القش المفروش على أرض الزنزانة ، واغمض عينيه لعله ينام !

وفى الصباح التالى دخل عليه السجان بصحبة جاويش واربعة من الجنود ، وقال لهم السجان على الفور : « هيا ، لقد أمر حاكم السجن بنقل هذا السجين إلى الطابق الأسفل ، ليودع مع أمثاله من المجانين هناك ! » .

وأمسك الحراس « بدانتيس » ، فتبعهم مستسلما ، وبعد ان هبط خمس عشرة درجة من السلم ، فتح امامه باب قبو معتم ، ثم القى فيه وحده واغلق الباب كما كان !

وتقدم « دانتيس » مادا ذراعيه فى الظلام الحالك حتى لمس الجدار ، فارتمى إلى جواره يائسا ، وراح يحدث نفسه قائلا : « حقا ، لقد صدق السجان . إن الخيط الذى يفصلنى عن الجنون المطبق صار الآن اوهى من خيط العنكبوت » ؟

ـ ٤ ـ

بريق من الأمل

كان قد انقضى عام على استرداد الملك لويس الثامن عشر عرشه ، بعد هزيمة نابليون فى معركة ووترلو .

وذهب المفتش العام للسجون ليزور « قصر إيف » .. فسمع « دانتيس » وهو فى زنزانته بقبو ذلك السجن ضجيج الإستعداد لزيارة المفتش العام ، فادرك ان هناك شيئا غير عادى يجرى فى عالم الأحياء ، وإن لم يدرك ما هو ذلك الشىء بالضبط !

وهبط الزائر السلم إلى الطابق الأسفل ، المظلم الموحش ، فلم يملك ان صاح :

ـ اوه ، من يستطيع أن يعيش هنا » ؟ !

فأجابه حاكم السجن الذى يرافقه :

ـ يعيش هنا متآمر خطير ، لدينا تعليمات مشددة بأن نراقبه بمنتهى الدقة والصرامة ، نظرا لجرائه وشدة بأسه ، وانه الآن لأشبه بمجنون ، ولن يمضى عام آخر حتى يكون جنونه قد اكتمل ! .. وفى الزنزانة السفلى التى سنهبط إليها بسلم آخر لا يزيد طوله على عشرين قدما ، يوجد راهب سجين كان يراس احد الأحزاب الإيطالية ، وهو هنا منذ سنة ١٨١١ ، وقد جن بعد سنتين من دخوله السجن ، وهو يضحك احيانا ويبكى احيانا .. وقد نحل جسمه فى البداية ،

لكنه بدا الآن يمتلىء ويصـــير بدينا ، ولعله يروقك أن تراه ، فإن جنونه مسل إلى حد كبير » !

وفيما كان « دانتيس » مستلقيا فى ركن من القبو ، سمع وقع خطوات بقرب الباب ، ثم صوت المفتاح يدار فى القفل ، فهب واقفا متربصا ، وما كاد المفتش يدخـــل حتى هتف يخاطبه فى ضراعة تثير الإشفاق :

ــ اريد ان اعرف اية جريمة ارتكبتها ؟ ! .. أريـد ان احاكم ، فإذا ثبت اننى مذنب اعدم رميا بالرصـــاص ، وإلا اطلق سراحى » !

فأجابه المفتش :

ــ سوف نرى .

ثم التفت إلى الحاكم وهمس ، قائلا :

ــ إن حالة هذا المسكين تفتت قلبى ، ويجب أن تعرض على الأدلة التى تثبت جريمته !

وخرج المفتش فاغلق الباب من جديد ، ولـكن بقى مع « دانتيس » فى زنزانته هذه المرة رفيق جديد ، هو الأمل الذى بعثته فى نفسه كلمات المفتش العام !

وسال حاكم السجن ضيفه المفتش :

ــ هل تريد الاطلاع على السجل اولا ، أم نتابع الجولة لزيارة القبو الآخر ؟ إن الراهب السجين الذى فيه يتخيل

انه يملك كنزا هائلا . وقد عرض فى العام الماضى ان يدفع مليون فرنك ، مقابل الافراج عنه . وفى العام التالى عرض مليونين .. وهكذا دواليك . وهو الآن فى عامه الخامس ، فلن استغرب لو عرض عليك خمسة ملايين !

***

وهناك فى وسط ذلك القبو ، راى الزائران شيخا لا تكاد اسماله البالية تغطى جسده . ولم يتحرك السجين حين سمع جلبة الداخلين ، بل استمر مشغولا بأعماله الحسابية الخاصة بكنزه ، حتى إذا اضاءت المشاعل القبو ، رفع رأسه وحدق قليلا فى الزائرين ، ثم اسرع يلف غطاء الفراش حول جسمه !

وساله مفتش السجن :

ــ ماذا تريد يا سيدى ؟

فأجاب : « سيدى ، انا الراهب « فاريا » ، ولدت فى روما وعملت عشرين عاما سكرتيرا للكاردينال « سبادا » ، وقد اعتقلت سنة ١٨١١ لسبب لا اعلمه .

ومنذ ذلك التاريخ وانا اطلب الإفـــراج عنى ، تارة من الحكومة الفرنسية وتارة من الحكومة الإيطالية .. وإنى مستعد لان ادفع فى مقابل الإفراج عنى خمسة ملايين من الجنيهات ! » .

فأجابه المفتش :

يا سيدى العزيز ، إن الحكومة غنية وليست فى حاجة إلى ملايينك ، فاحتفظ بها حتى يفرج عنك !

فقال الراهب السجين :

– إذا لم يفرج عنى وبقيت هنا حتى اموت ، فسوف يضيع الكنز . إنى اعرض عليك ستة ملايين ، وسأقنع بالباقى فى مقابل ان ترد إلى حريتى .. إنى لست مجنونا . والكنز الذى اتحدث عنه موجود حقا ، وانا على استعداد لان اوقع على تعهد بالإرشاد إلى مكانه ، فإذا لم تجدوه فاعيدونى إلى هنا .. ولست اطلب اكثر من ذلك !

فقال المفتش :

– إنها خطة بارعة ، فلو طلب جميع السجناء ذلك لاتيحت لهم فرصة رائعة للفرار !

ثم خرج الزائر ومرافقوه ، واغلق السجان الباب دون السجين !

ووفى المفتش بوعده « لدانتيس » ، ففحص سجله ، ووجد فيه هذه العبارة : « بونابرتى عنيف شديد الخطر ، قام بدور إيجابى فى فرار الغاصب من إلبا » .. ! ولم يستطع المفتش إزاء هذه التهمة إلا ان يكتب على هامش السجل معلقا : « لا شىء يمكن عمله فى امره » !

* * *

فى نهاية العام التالى وصل إلى السجن حاكم جديد ، وكان عسيرا عليه ان يعرف المسجونين باسمائهم ، لأن عددهم يزيد على الخمسين ، فصار يرمز إلى كل برقم زنزانته .. وكان رقم القبو الذى يعيش فيه « إدمون دانتيس » ٣٤ ..

وفى الوقت الذى بلغ فيه اليأس بالسجين الشاب غايته – حتى دفعه إلى التفكير فى الانتحار – فوجىء ذات ليلة بسماع صوت اجوف صادر من وراء الجدار الذى ينام إلى جواره . وكأنه صوت آلة حديدية تدق الأحجار.. فحدث نفسه ، قائلا :

– لا شك فى ان هناك سجينا يحاول الفرار . آه لو استطعت مساعدته !

ومضى إدمون إلى ركن قبوه فتناول حجرا ودق به الجدار ثم انتظر قليلا فلما لم يسمع شيئا ، افعم قلبه بالأمل فى نجاح مساعدته لذلك السجين زميله المجهول . ونهض فنقل فراشه من مكانه واخذ يبحث عن شىء يثقب به الجدار حتى ينتزع حجرا منه ، ولكنه لم يجد ما يصلح لذلك غير آنية شرابه ، على ان يحطمها ويستخدم قطعة مدببة منها فى الغرض المطلوب !

وكان امامه الليل كله يعمل فى اثنائه برغم ان الظلام كان يعوقه إلى حد ما .. وحين وجد الجدار شديد الصلابة أعاد الفراش إلى مكانه ليخفى آثار المحاولة وآثر الانتظار إلى الصباح .. اما زميله فقد داب على عمله طيلة الليل .

ولما اشرق النهار وجاء السجان إلى « دانتيس » بالطعام ، اخبره هذا بان الآنية وقعت فانكسرت .. فما كان من هذا إلا ان ذهب لإحضار اخرى دون ان يعنى بجمع شظايا الآنية المكسورة ! ..

وبعد ثلاثة ايام نجح « دانتيس » ، بفضل مراعاته منتهى الحذر ، فى إزالة طبقة الاسمنت التى تكسو الجدار والكشف عن حجر كبير وراءها .. وصار عليه ان يحفر حول الحجر حتى يستطيع اقتلاعه من مكانه ، ولكن بماذا يحفر ؟ .. إن الآنية الخزفية تعجز عن ذلك . وهنا خطر له ان يضع الآنية الحديدية التى يحضر له فيها السجان الحساء امام الباب بحيث يدوسها هذا بقدمه حين يدخل لاخذ الصحاف الفارغة، فتنكسر ! .. فلما تم له ذلك وفق الخطة التى رسمها ، طلب إلى الحارس ان يدع بقايا الآنية المكسورة إلى الصـــباح . وصادف هذا الطلب هوى من نفس السجان الكســول . فقبل !

وكاد « دانتيس » يجن فرحا .. فلما خرج ، زحـزح الفراش من مكانه واهوى بمقبض الآنية المدبب على جوانب الحجر .. فلم تمض ساعة حتى امكن اقتلاعه من مكانه . وانفتحت فى الجدار ثغرة سعتها قدم مكعب ونصف قدم .. وإذ ذاك أخذ « دانتيس » المخلفـات التى نتجت عن ثقب الجدار ودفنها فى شقوق الجدران .. ثم اعاد فراشـه إلى مكانه ليخفى آثار فعلته ونام قرير العين !

وبعد مجهود مماثل دام بضع ليال ، فوجىء « دانتيس » فى ذات ليلة بسماع صوت كانه صادر من تحت الأرض . فوقف شعر رأسه دهشة وإجفالا .. ثم قال له صاحب الصوت : « لا تحفر أكثر من ذلك . ولكن قل لى فقط ما ارتفاع ثغرتك ؟ » .

فهمس قائلا : « إنها فى مستوى أرض الحجرة ! » .

ـــ وعلام يفتح باب حجرتك ؟

ـــ على ممر يؤدى إلى فناء السجن !

ـــ اعتقد أن الجدار الذى تثقبه هو جدار السجن الخارجى. فلتتوقف عن العمل حتى اتصل بك . أنا الســجين رقم ٢٧ . وسأتصل بك غدا ..!

وفى الصباح التالى سمع « دانتيس » ثلاث طرقات .. فركع على ركبتيه وراح ينصت . ثم قال له ذلك السجين .

ـــ هل خرج سجانك ؟

ـــ نعم ، وهو لن يعود قبل المساء . ومن ثم فامامنا اثنتا عشرة ساعة للعمل . وبعد لحظة انهار الجزء من الارض الذى كان « دانتيس » متكئا عليه بيديه ، فى حين كان راسه فى الثغرة .. فارتد إلى الخلف فى الوقت الذى هوت فيه كتلة من الأحجار والأرض فاختفت فى حفرة انفتحت تحت الثغرة التى فتحهـا هو .. ثم من اعماق هذا الممر راى رجل يبرز أولا ثم يتبعه جسمه .. وإذا السجين رقم ٢٧ قد صار معه فى زنزانته !

واخذ « دانتيس » زميله السجين بين ذراعيه معانقا ، بل كاد يحمله نحو النافذة كى يرى ملامح وجهه .. كان رجلا ضئيل الجسم ، أبيض شعره من الآلام ، ذا عين نافذة تكاد تكون مدفونة خلف حاجبهالإغبر الغزير . وكانت له لحية طويلة تصل إلى صدره . اما وجهه النحيل وخطوط ملامحهالجسورة فتنم عن رجل الف أن يستخدم قواه الذهنية اكثر من قــواه الجسمية .

وعلم « دانتيس » من زميله انه انتزع بعض « شناكل » سريره كى يستعين بها على حفر الطريق الذى سلكه من زنزانته إلى زنزانة جاره ، وطوله نحو خمسين قدما .

فهتف دانتيس ، شبه مذعور :

ـ خمسون قدما ؟

ـ نعم ، هى المسافة بين حجرتك وحجرتى . ولكنى لسوء الحظ اخطأت تبين اتجاه الطريق الذى حفرته ، بسبب نقص الأداوت الهندسية اللازمة .. فبدلا من أن ينتهى بى إلى الجدار الخارجى المطل على البحر ، قادنى إلى الممر الذى تنفتح عليه حجرتك . وهكذا ذهب جهدى كله هباء ، فإن الممر يطل على فناء مزدحم بالجنود !

فقال « دانتيس » :

ـ هذا صحيح ، لكن الممر الذى تتحدث عنه لا يحد غير جانب واحد من زنزانتى . وهناك ثلاثة جوانب اخرى . فهل تعرف شيئا عن موقعها ؟

ـ هذا الجانب ينتهى إلى الصخر الصلب .. وهناك جانب آخر ينتهى عند الجزء الأسفل من مسكن حاكم السجن، ولو نقبناه لوصلنا إلى زنزانات مغلقة . اما الجانب الرابع والأخير من زنزانتك فهو يطل على مكان مفتوح يمر فيه الحراس بلا انقطاع ، ويسهرون على حراسته ليل نهار .. ومن هذا تتبين الاستحالة المطلقة فى الفرار عن طريق زنزانتك ؟

وبعد ان قضى السجينان فترة يتشاوران فى تأمل عميق ، هتف « دانتيس » فجأة :

ـ لقد وجدت ما كنت تبحث عنه .. إن الممر الذى سلكته من زنزانتك يمتد هنا فى اتجاه الرواق الآخر ، ولا يرتفع عنه اكثر من ١٥ قدما . وإذن ينبغى أن نثقب جدار الممر لفتح ثغرة جانبية فى منتصفه .. وفى هذه المرة ستضع خططك بحيث تجىء اقرب إلى الصواب ، فسوف نهبط فى الرواق الذى وصفته ، فنقتل الحارس الذى يحرسه ونلوذ بالفرار ! » .

ـ لحظة واحدة يا صديقى العزيز .. لقد جعلت دأبى حتى الآن ان أعلن الحرب ضد الظروف ، لا البشر .. لم أجد بأسا او خطيئة ما فى ان اثقب جدارا او احطم درجة من سلم، ولكنى لا استطيع إقناع نفسى بسهولة بأن اثقب قلبا حيا او انتزع حياة .. فتعال زرنى فى زنزانتى يا صديقى العزيز ، وسوف اريك عملا ادبيا كاملا ، هو ثمرة افكارى وتأملاتى طيلة حياتى !

ـ على اى شىء كتبت مؤلفك هذا ؟

ـ على قميص من قمصانى ، لقد اخترعت تركيبا يجعل التيل مثل ورق البرشمان فى نعومته وسهولة الكتابة عليه .

ـ ولكن ، مم صنعت الحبر الذى كتبت به ؟

ـ كانت فى زنزانتى يوما ما مدفأة ، تغطيها طبقة كثيفة من « الهباب » فأخذت قليلا منه واذبته فى جزء من النبيذ الذى كانوا يحضرونه إلى كل يوم أحد ، واؤكد لك ان الحبر الذى نتج من

هذا الخليط لا يضارع . لكنى فى المسائل والملاحظات الهامة كنت اخز إصبعى بابرة واكتب بدمى ذاته .. اتبعنى !

ومضى الراهب يتبعه زميله عبر الممر تحت الأرض حتى وصلا دون صعوبة تذكر إلى نهاية الممشى الذى يفضى إلى زنزانة الراهب . وهناك فى تلك البقعة كان الممر يزداد ضيقا حتى لا يسمح بمرور احد منه إلا إذا زحف على يديه وركبتيه !

واخيرا بلغا قبو الراهب ، فاخرج هذا من أحد المخابىء ثلاث اسطوانات من التيل مكتوبة كلها ، وقال « لدانتيس » :

ــ هاك المؤلف كاملا .. لقد كتبت كلمة « النهاية » فى آخر الصفحة الثامنة والستين منذ نحو اسبوع ، فلو خرجت يوما من هذا السجن ووجدت فى إيطاليا ناشرا له الجراة على نشر ما كتبت ، فإن سمعتى الأدبية تكون قد توطدت نهائيا .

ثم عرض الراهب على « دانتيس » « الريشة » التى كان يستخدمها فى الكتابة ، وهى عصا صغيرة طولها ست بوصات ، ربط فى طرفها غضروف مأخوذ من راس سمكة وقد دبب طرفه وشق مثل الريشة العادية .. فقال له « دانتيس » .

ــ الشىء الذى يحيرنى هو كيف تعمل فى ظلام الليل ؟

فاجابه « فاريا » :

ــ لقد فصلت الشحم من اللحم الذى يجيئنى فى الطعام ، وصهرته فنتج عنه زيت للوقود، ثم صنعت لى مصباحا صغيرا

من قطعتين من الصوان وقطعة من الكتان المحروق . أما الثقاب فقد اضطرنى تدبير أمره إلى التظاهر بأنى مصاب بمرض جلدى ، ثم طلبت قليلا من مادة الكبريت لهذا الغرض ، فجلبوها لى .. إنك لم تر بعد شيئا من أفانينى !

ثم ازاح الفراش من مكانه فظهرت خلف احد الأحجار ثغرة فى داخلها سلم من الحبال طوله يتراوح بين خمسة وعشرين مترا وثلاثين مترا . وقد وجده « دانتيس » من المتانة بحيث يتحمل اى ثقل ! .. فسأل زميله الراهب :

ــ كيف صنعتها ؟

فاجاب « فاريا » :

ــ صنعتها من اقمصتى التى مزقتها !

ثم سد الراهب الثغرة بالحجر واعاد الفراش إلى مكانه ، وقال :

ــ هل لك الآن أن تروى لى قصتك انت ؟

واخذ « دانتيس » يسرد له قصته حتى اتمها ، فاطرق الراهب برهة يفكر ثم ساله :

ــ من الذى يستفيد من اختفائك ؟.. إن الأمر واضح كالشمس ، لكن بساطتك وطيبة قلبك قد اخفيا الحقائق عليك . والآن قل لى ، هل كان « دانجلر » يعرف « فرناند » ؟

ــ لا .. بل نعم : فالآن تذكرت أننى رايتهما جالسين معا فى الليلة السابقة للزفاف ، وكان « دانجلر » يمزح فى مرح ، فى

حين بدا « فرناند » شاحبا قلقا ، ولست أدرى كيف لم افكر فى هذا الامر من قبل ؟ إنى لأذكر الآن جيدا انه كان أمامهما على المنضدة حبر وريشة وورق !. يا للأنذال القساة القلوب :

— هل ثمة شىء آخر استطيع أن اعينك على كشفه ؟

— نعم ، اريد منك ان تعلل لى سبب إلقائى فى السجن دون محاكمة أو تحقيق !

— هذا شىء آخر !.. إلى من كان ذلك الخطاب الذى أعطى لك فى « إلبا » موجها ؟

— إلى مسيو نوارتييه رقم ١٣ شارع (كوك هيرون) بباريس .

— نوارتييه ، نوارتييه ؟ كنت اعرف شخصا بهذا الاسم من الجيروندين فى أثناء الثورة .. وماذا كان اسم المحقق الذى استجوبك ؟

— « دى فيللفور » !

وعندئذ اغرق الراهب فى الضحك ، وقال :

— كيف هذا ؟ .. الا تستطيع استنتاج شخصية «نوارتييه» هذا ، بعد أن حرص المحقق على إخفاء اسمه ؟.. إنه أبوه !

ولو ان صاعقة سقطت على « دانتيس » ، لما كان أشد فزعا منه لدى سماع هذه العبارة !. وومض فى ذهنه ضوء

خاطف مباغت اضاء وأوضح كل ملابسات الموقف التى كانت غارقة فى الظلام !

وحين عاد إلى زنزانته ارتمى على فراشه ، حيث وجده الحارس حين دخل عليه فى المساء محملقا فى الفضاء صامتا ، بلا حراك .. لقد انتهى من تفكيره وتأملاته الطويلة إلى قرار مخيف اقسم لينفذنه ما وجد إلى ذلك سبيلا !

وأخيرا افاق « دانتيس » من شروده على صوت « فاريا »، الذى جاء على اثر خروج سجانه ليدعوه إلى مشاركته عشاءه .. فقال له « إدمون » :

— ينبغى ان تعلمنى بعض ما تعلم .. على الأقل حتى لا تمل صحبتى !.. وانا اعدك بالا اشير بكلمة واحدة بعد ذلك إلى الفرار من السجن :

فأجابه الراهب العلامة متأوها : « إن المعارف البشرية يابنى محدودة داخل دائرة ضيقة ، فاذا علمتك الرياضيات والعلوم والطبيعة والتاريخ واللغات الثلاث او الأربع التى اتقنها فسوف تضارعنى فى العلم .. وهذا يستغرق حوالى عامين ! » .

فهتف « دانتيس » :

— عامين فقط ؟ اتعتقد أن عامين يكفيان لاستيعاب كل هذه العلوم ؟

وفى تلك الأمسية وضع السجينان برنامجا للدراسة ، وفى اليوم التالى بدأ تنفيذه !

— ٥ —

سر الكنز المفقود

فى نهاية ذلك العام كان « دانتيس » — بفضل ما تعلمه — قد صار وكأنه خلق من جديد !. لكنه لاحظ أن « فاريا » يزداد كل يوم كآبة ووجوما ، وكأن فكرة ما لا تفتأ تلح عليه وتطارده .. وذات يوم سمعه يقول فى شرود :

— آه ، لو لم يكن هناك ذلك الحارس الديدبان !

فسأله متلطفا :

— هل فكرت فى وسيلة لاسترداد حريتنا ؟

فقال : « نعم ، ولكن هل انت قوى البنية ؟ » .

فتناول الشاب إزميل الراهب وثناه بيديه حتى صار كهيئة حدوة الحصان ، ثم عاد فقوم اعوجاج الأزميل حتى عاد كما كان !

وبدا الاغتباط فى وجه الراهب الحزين ، ثم قال له :

— هل تعدنى بالا تصيب الحارس بأذى ، إلا عند الضرورة القصوى ؟

— اعدك بشرفى !

— إذن نستطيع ان نشرع فى تنفيذ خطة الهرب ، وسوف تستغرق منا حوالى عام !

واخذ الراهب يشرح « لدانتيس » خطته ، وهى تتلخص فى حفر نفق تحت الممر الموصل بين زنزانتيهما ، بالطريقة التى تحفر بها المناجم ، ثم الخروج من نافذة قريبة إلى جدار السجن الخارجى ، ثم الهبوط إلى البحر بوساطة الحبل الذى فتله الراهب وجعل منه سلما !

وفى اليوم نفسه بدا السجينان حفر النفق. بالنشاط الذى توافر لهما بعد طول الراحة ، مدفوعين بآمالهما فى الحرية والخلاص .. ولم يكن يعوق عملهما غير حرص كل منهما على العودة إلى زنزانته فى الموعد المناسب قبل زيارة السجان النهارية او الليلية ..!

وانقضى عام .. وفى نهاية الشهر الخامس عشر تم حفر النفق ، وصار السجينان يسمعان بوضوح صدى خطوات الديدبان وهو يروح ويجىء فوق رأسيهما .. ولم يبق أمامهما غير انتظار حلول ليلة حالكة الظلام كى ينفذا خطة الفرار !

وفى ذات ليلة سمع « دانتيس » صوت الراهب يناديه فى حشرجة تنم عن ألم شديد ، وكان قد تركه فى زنزانته هو ، فخف إليه على عجل ، ليجده واقفا فى وسط المكان . شاحبا شحوب الموتى ، وقد تصبب جبينه عرقا وتقلصت يداه ، وما كاد يراه حتى ابتدره قائلا :

— اصغ إلى ما ساقوله بعناية .. إنى مصاب بنوبة من نوبات مرض رهيب قاتل ، وقد أصابتنى النوبة الأولى منه فى العام السابق لاعتقالى ، وليس لها غير علاج واحد . فاسرع

بربك إلى زنزانتى واخلع إحدى قوائم السرير ، تجد فى داخلها قارورة صغيرة مملوءة إلى نصفها بسائل احمر .. احضرها إلى بسرعة.. او فلتأخذنى انا إلى فراشى لئلا يفاجئنى الحراس غائبا عن زنزانتى . خذنى قبل ان افقد ما بقى لى من قوة على جر ساقى !

وحين ارقد «دانتيس» رفيقه على فراشه قال له هذا وهو يرتجف :

— شكرا لك !.. إنى اوشك ان اصاب بنوبة كالصرع ، وحين تبلغ حدتها قد ترانى راقدا بلا حراك كالميت ، او قد تزداد النوبة شدة فتسبب لى تشنجات مخيفة ، فاذا حدث ذلك فاحرص على الا تبلغ صرخاتى مسامع احد ، وإلا فرقوا بيننا إلى الأبد واحبطوا كل خططنا . وحين يبرد جسدى ويسكن كالجثة الهامدة ، فعندئذ — وليس قبل ذلك — افتح فمى عنوة بسكين او نحوها ، واسكب فى حلقى ثمانى قطرات او عشرا من السائل الذى فى القنينة ، وبذلك قد اشفى من نوبتى !

فتساءل « دانتيس » فى لهجة المفجوع :

— قد تشفى ؟

وفجاة صاح « فاريا » :

— النجدة .. النجدة ... إنى اموت !

وبلغ من عنف النوبة ان المسكين عجز عن إتمام عبارته ، وراح جسده يهتز هزات مخيفة وتنطلق منه صرخات مروعة

كتمها « دانتيس » بوضع الغطاء فوق رأسه .. واستمرت النوبة ساعتين ، استرد المريض فى نهايتها هدوءه وسكن جسمه كالميت .. وانتظر « دانتيس » حتى زالت منه كل علائم الحياة ثم فتح فمه عنوة وسكب قطرات السائل فى حلقه .. وانقضت ساعة والمريض لا يبدى بادرة من بوادر العودة إلى الحياة !.. واخيرا صعد إلى خديه لون باهت ، وارتد الوعى إلى مقلتى العين ، وبذل الراهب محاولة متخاذلة للتحرك .. وحين استرد قدرته على الكلام قال :

— إن النوبة الماضية لم تدم أكثر من نصف ساعة . وقد افقت منها دون معاونة احد .. اما الآن فإنى عاجز عن تحريك ساقى اليمنى او ذراعى ، ورأسى ثقيل ، مما يدل على حدوث نزيف دموى فى المخ .. واغلب الظن أن النوبة الثالثة سوف تقضى على أو تخلفنى مشلولا مدى الحياة . بل إن هذه النوبة التى انقضت قد حكمت على بالبقاء رهن السجن بقية عمرى ، فقد شلت ذراعى نهائيا .. ارفعها واحكم بنفسك إذا كنت مخطئا !

ورفع الشاب ذراع الراهب فلما سقطت من تلقاء نفسها بحكم ثقلها ، قال له فى اسى :

— إذن فسوف ابقى انا ايضا !

ثم مسح بيده فى رفق راس الراهب المريض واضاف قائلا :

— اقسم بكل ما هو مقدس الا اتركك ما دمت على قيد الحياة !

فنظر « فاريا » إلى صديقه الشاب نظرة شغف وقرأ فى وجهه توكيدا لإخلاصه المكين . فغمغم وهو يمد إليه يده :

ـ أشكرك ، وأقبل ما تعد به .. ولكن لما كنت لن استطيع مغادرة هذا المكان ، فلا مناص من سد الثغرة التى فى نهاية النفق خشية ان تنهار الأرض عندها بمضى المدة فيكتشف أمر ما دبرنا ويفصل بيننا مدى الحياة .. فامض واتم هذه المهمة، ولا تحضر إلى غدا إلا بعد أن يخرج السجان من عندى .. فإن لدى امرا على أعظم درجة من الأهمية اود الإفضاء به إليك !

وحين عاد « دانتيس » فى صباح اليوم التالى وجد « فاريا » جالسا وقد بدت عليه الراحة ، وفى يده اليسرى ورقة لوح له بها ، قائلا :

ـ انظر إلى هذه الورقة ياصديقى !.. إن فى وسعى أن اعترف لك الآن ـ بعد أن ثبت لى وفاؤك ـ بأن فيها مفتاح كنزى الذى يخصك نصفه منذ اليوم ! .. لا تحسبنى مخبولا، فهذا الكنز موجود فعلا يا « دانتيس » ولئن لم يتح لى أن اظفر به فسوف يتاح لك ذلك . والآن اقرأ هذه الورقة !

وكانت الورقة تحوى هذه الكلمات .

« فى هذا اليوم ، الخامس والعشرين من إبريل سنة ١٤٩٨، دعيت إلى العشاء عند صاحب القداسة البابا « الكسندر » السادس .. وخشية ان يطمع قداسته فى ان يغدو وارثى ، وان يدخر لى مصير الكردينال « كابرارا » . والكردينال

« بنتيفوجليو » اللذين قتلا بالسم ، أعلن هنا لابن أخى « جيدو سبادا » وريثى الوحيد أنى دفنت فى مكان يعرفه هو وقد زاره معى ، وأعنى به كهوف « جزيرة مونت كريستو » الصغيرة ، كل ما أملك من المال والذهب والجواهر والأحجار الكريمة ، وهى ثروة تقدر بنحو مليونين من الريالات الرومانية، ويستطيع ان يجدها إذا رفع الصخرة العشرين من الأخدود الصغير الواقع إلى الشرق على امتداد خط مستقيم . ولهذه الكهوف فتحتان ، والكنز يوجد فى الزاوية البعيدة من ثانيتهما، وهذا الكنز اتركه باكمله له باعتباره وريثى الوحيد ! ..

« قيصر سبادا »

وانتظر الراهب حتى اتم « دانتيس » قراءة الورقة ثم قال له :

ـ هذه هى وصية الكردينال « سبادا » التى عين فيها مكان كنز الأسرة الذى حاول البابا « الكسندر » السادس اغتصابه بقتل الكردينال . على ان هذا الكنز لم يعثر عليه أحد . وقد كنت انا سكرتير الكردينال « سبادا » وهو آخر من حملوا هذا الاسم ، وبعد موته اكتشفت هذه الورقة بين طيات كتاب صلوات خلفه لى . وقبل ان أصل إلى (جزيرة مونت كريستو) لأبحث عن الكنز ، اعتقلت !.. فلو اننا هربنا يوما معا فسيكون لك نصف هذا الكنز .. أما إذا مت هنا وهربت انت وحدك فإنه يكون لك باكمله !.

وتساءل « دانتيس » متلعثما :

ـ ولكن .. الم يعد للكنز ورثة شرعيون فى العالم غيرنا ؟

فقال « فاريا » :

ــ كلا ! . لقد انقرضت أسرة « سبادا » ، علاوة على أن الكردينال الأخير منهم جعلنى وريثه الشرعى.. فلو اننا وضعنا ايدينا على الكنز ففى وسعنا الاستمتاع به دون ادنى وخز من ضمير .. وهو يساوى بعملتنا الحالية نحو ثلاثة عشر مليون ريال ! » .

وخيل إلى « دانتيس » انه فى حلم ، فتأرجح برهة بين الفرح وعدم التصديق ، على حين استطرد « فاريا » :

ــ لقد كتمت عنك قصة هذا الكنز حتى الآن كى اختبر خلقك ثم أفاجئك بها .. ولو كنا قد هربنا قبل ان تصيبنى النوبة لقدتك بنفسى إلى (جزيرة مونت كريستو) ، فانا أعدك بمثابة ابن لى ، وقد أرسلك الله إلى كى تواسينى فى الوقت الذى لم يعد فى استطاعتى ان اكون حرا ، ولا والدا !

ثم مد « فاريا » ذراعه السليمة إلى « دانتيس » فاخذها الشاب بين يديه وانخرط فى البكاء !

ولم يكن الراهب يعرف (جزيرة مونت كريستو) ، ولكن « دانتيس » كان يعرفها ، فقد طالما مر بها ، وهى تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا من «بيانوزا»، بين (جزيرة كورسيكا) و (جزيرة إلبا) ، وقد كانت الجزيرة ــ وما تزال ــ مهجورة تماما ، وهى صخرة مخروطية الشكل تبدو كأنما قد قذفت بها قوة بركانية من جوف المحيط .. وقد رسم «دانتيس» خريطة

تقريبية للجزيرة ، وأدلى إليه « فاريا » ببضع نصائح تتعلق بطريقة البحث عن الكنز .

ولكن ، كأنما شاء القدر أن يحرم المسجونين من فرصتهما الأخيرة .. فقد أعادت سلطات السجن بناء الجناح المطل على البحر ، لأنه كان قد تهدم فى كثير من المواضع ، وسدت بكتل ضخمة من الأحجار تلك الثغرة التى أغلقها « دانتيس » مؤقتا بناء على نصيحة الراهب .. وهكذا قام سد جديد منيع يهدم كل آمال السجينين فى الفرار !

- ٦ -

الميت الهارب

استيقظ « دانتيس » من نومه فجأة على صوت نداء صادر من زنزانة « فاريا » زميله الراهب السجين ، فسارع إليه منزعجا ، وعلى ضوء المصباح الصغير هناك رآه شاحب الوجه غائر العينين متشبثا بقوائم السرير ، وقد تقلصت قسماته بتلك الأعراض المخيفة التى ظهرت عليه فى النوبة السابقة !

وقال له « فاريا » بصوت خائر :

— وا أسفاه يا صديقى !.. إن النوبة الفظيعة تعاودنى ، ولن يمضى ربع ساعة حتى أكون ساكنا كالجثة الهامدة .. فافعل ما فعلته فى المرة السابقة ، ولكن لا تطل الانتظار .. فإذا رأيت بعد أن تسكب فى حلقى اثنتى عشرة قطرة ، بدلا من عشر ، أننى لا أفيق .. فاسكب بقية محتويات القارورة أيضا فى فمى !

وأخذ « دانتيس » صديقه المريض بين ذراعيه وأرقده على الفراش .. وانتابت الراهب على الأثر تشنجات عنيفة ، فرفع رأسه بمجهود أخير ، وهمس له :

— (مونت كريستو) ، لا تنس (مونت كريستو !) .

وحين قدر « دانتيس » أن اللحظة المناسبة لإسعاف صديقه قد حانت ، فتح فكيه وسكب بينهما اثنتى عشرة قطرة ثم انتظر .

وكانت القارورة تحوى بعد ذلك ضعف هذا القدر .. وانقضى نصف ساعة دون أن يحدث أى تغيير فى حالة المريض فوضع فم القنينة بين شفتى الراهب القرمزيتين وسكب ما فيها فى حلقه !.. فأحدث الدواء أثرا مؤقتا هز كيان المريض هزا عنيفا ثم عاد جسده إلى سكونه الأول ، وظلت عيناه مفتوحتين .. وشيئا فشيئا سرت فيه برودة الموت ، وضعف نبضه تدريجا حتى توقف آخر الأمر !

وكان موعد مرور السجان قد اقترب ، فأطفأ « دانتيس » المصباح وأخفاه بعناية ثم خرج إلى الممر السرى وأغلق الثغرة بالحجر بكل ما وسعه من إتقان .. وحين وصل إلى زنزانته لم يلبث أن سمع جلبة السجان وهو يكتشف موت السجين ، ثم أصوات الحاكم وطبيب السجن والحراس ، وكان الحاكم يقول :

— إنه سوف يدفن الليلة بكل تكريم فى أحدث غرارة (جوال) نجدها هنا !

ثم سمعت خطوات أخرى ، وضجيج أعقبه تحريك سرير الميت وأصوات مختلفة .. وبعد حين هدأ كل شىء وعاد سكون الموت يخيم على السجن .. فتسلل « دانتيس » إلى الممر ، وإذ أيقن من خلو زنزانة صديقه من أى إنسان ، رفع الحجر فى حذر ودلف إليها !

كانت الجثة قد وضعت فى كفنها داخل غرارة من الخيش ، استعدادا لإلقائها فى البحر ، كما تقضى قوانين السجون ..

وإذ رأى « دانتيس » ذلك المنظر الذى يعده للفراق الأبدى عن صديقه الذى كان سلواه الوحيدة فى سجنه ، عاودته فكرة الانتحار التى كانت تراوده من قبل ، فراح يذرع المكان جيئة وذهابا .. وفجأة وقف إلى جوار الفراش جامدا ، وغمغم :

— يا إلهى ! . ما الذى اوحى إلى بهذه الفكرة ؟.. اهى من وحيك ؟ .. لكن ما دام ان احدا غير الموتى لا يخرج حرا من هذا المكان ، فلآخذ مكان الميت !

ولم يتمهل ليتدبر هذا القرار اليائس ، بل جذب الجثة من الفرارة وحملها عبر النفق إلى زنزانته هو ، حيث وضعها فوق فراشه . ولف راسها بالغطاء الذى يتدثر به فى أثناء نومه .. ثم قبل جبين صديقه الوفى التعس وادار راسه نحو الحائط كى يحسبه السجان نائما حين يدخل فى الزيارة التالية، ومرق عائدا إلى الممر حاملا معه إبرة وخيطا وسكينا !

وحين بلغ زنزانة الراهب دلف إلى داخل الجوال واتخذ الوضع الذى كانت عليه الجثة ثم خاط الفرارة من الداخل كما كانت !

وانقضى الليل على هذه الحال ، دون ان يحضر احد . وفى الساعة السابعة من الصباح بدأ عذاب « دانتيس » الحقيقى ! .. ولم تستطع يده التى وضعها فوق قلبه أن تخفف من عنف ضرباته الشديدة ، وراح يمسح بيده الاخرى قطرات العرق المتصبب على وجهه ، ومن وقت لآخر كانت تسرى فى جسمه قشعريرة باردة تعتصر قلبه ، حتى خيل إليه انه سوف يموت! واخيرا سمع صدى خطوات تدنو . فتذرع بكل ما بقى له من

شجاعة وحبس أنفاسه !.. ثم فتح الباب ، ودخل منه رجلان، فى حين وقف ثالث عند الباب يحمل مصباحا بلغ ضياؤه الخافت عين الشاب عبر الفرارة السميكة .. وحمله كلا الرجلين من طرفى الفرارة ، وسمع احدهما يقول للآخر :

— إنها ثقيلة هذه الجثة مع أن صاحبها كان عجوزا نحيل الجسم !

فأجابه زميله :

— يقولون إن وزن العظم يزداد بمقدار نصف رطل كل عام !

ثم سارت القافلة ، يتقدمها حامل المصباح ، فصعد رجالها السلم المؤدى من القبو إلى الطابق الأول .. وفجأة احس « دانتيس » هواء البحر الرطيب المنعش يصدم جبهته .. ثم وضعه حاملاه وهو فى الفرارة على حاجز ، وثبتا ثقلا حديديا بقدميه فى عنف كاد يرغمه على أن يصرخ من الالم !.. ثم عادا فحملاه واستأنفا السير حتى سمع اصطفاق أمواج البحر وهى تصدم الصخور التى يقوم عليها بناء السجن .. ثم قال أحد الحمالين :

— يالها من ليلة باردة ، لا تناسب الغوص فى البحر !

فأجابه الثانى :

— إن الراهب سوف يصاب بالبلل !

ثم انفجر كلاهما ضاحكين فى وحشية ! فوقف شعر رأس الشاب من الفزع ! .. وعاد الأول يقول :



ـ ها قد وصلنا أخيرا !..

فاعترض زميله ، قائلا :

ـ بل لنصعد بضع درجات ايضا ، فلعلك تذكر أن الميت الذى القيناه آخر مرة قد اصطدم بالصخور ، فاتهمنا الحاكم بالإهمال .. !

ثم صعدا خمس درجات أو ستا ، وتوقفا أخيرا .. وأحس «دانتيس» أيديهما تؤرجحه ذهابا وجيئة تأهبا لإلقائه فى اليم. وسمع احدهما يقول :

ـ واحد .. اثنين .. ثلاثة !..

وفى هذه اللحظة شعر بهما يطوحان به فى الفضاء بقـوة : فيهوى من حالق كالطير الذبيح ، بسرعة مروعة جعلت دمـه يجمد فى عروقه !

وبدا له كأن سقوطه استمر قرنا من الزمان !.. واخيرا اصطدم فى عنف بالماء البارد، فأطلق برغمه صيحة حادة اختنقت حين غاص فى اعماق البحر ، يجذبه إلى قاعه ثقل زنته ستة وثلاثون رطلا ، وما لبث قليلا حتى شعر بأنه استقر فى قاع البحر .. فى مقبرة سجن (قصر إيف !) .

وبرغم ما لقيه من الفزع خلال « رحلته » الرهيبة هذه ، كان من حضـور الـذهن بحيث لم يكـد يغـوص فى لجة البحر حتى مد يده اليمنى بالسكين إلى الغرارة التى تحتويه فشقها واخرج ذراعه ثم جسمه ، لكنه عجز برغم جهوده ان يخلص

نفسه من الثقل الذى يجذبه نحو القاع .. وأخيرا انحنى على نفسه ، وبمحاولة أخيرة يائسة قطع الرباط الذى يثبت الثقل فى قدميه ، فى اللحظة التى كاد فيها يموت مختنقا !.. ثم رفع جسمه نحو السطح بكل ما بقى له من قوة .. وحين بلغه جذب نفسا عميقا من الهواء ثم غاص فى الماء مختارا ، خشية ان يلمحه احد « زبانية » السجن !

وحين برز فوق الماء مرة اخرى كان قد ابتعد عن البقعة التى القى فيها نحو خمسين قدما .. وكانت تنبسط فوق رأسه سماء سوداء تنذر بالعاصفة ، ويمتد البحر أمامه فسيحا كئيبا رهيبا .. تزار امواجه وترغى وتزبد .. وخلفه كان يقوم كالشبح ذلك البناء الصخرى الموحش التى تمتد صخوره المدببة كالأذرع التى تتأهب للانقضاض على فريستها . وفوق الصخرة العليا كان مصباح يضىء وجهى رجلين . خيل إليه انهما الحمالان اللذان قذفا به إلى البحر وقد سمعا صيحته توقفا يرقبان ظهوره فوق صفحة الماء !.. وعلى هذا لم يجد بدا من أن يعود فيغوص ويبقى تحت اللجة اطول فترة ممكنة ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير عليه وهو المشهود له بأنه أبرع سباح فى مارسيليا .. وحين برز فوق الماء مرة اخرى كان المصباح قد اختفى !

واعتزم « دانتيس » أن يهرع نحو اقرب جزيرة ، وكانت تبعد فرسخا عن (قصر إيف) ، وبعد انقضاء اكثر من ساعة فى السباحة المتواصلة ضد الريح ، احس الما حادا فى ركبته ، فمد يده .. وإذا هى تصطدم بعائق من الصخور .. وبوثبة

اخرى بلغ شاطىء جزيرة (تيبولين) ، فتمدد هناك فوق صخور الجرانيت وهو يرفع إلى الله احر صلوات الشكر .. ثم ما لبث قليلا حتى راح فى النعاس ، بعد أن نال منه الجهد الذى بذله فى الوصول إلى هناك !

وبعد حوالى ساعة استيقظ من نعاسه على هزيم الرعد ، وحين نهض كان البرق يضىء الظلمة بومضات خاطفة راى على هديها زورقا من زوارق الصيد تتقاذفه الأمواج وقد تعلق اربعة من ركابه بشراعه الممزق فى حين تعلق الخامس بالدفة المكسورة .. فاندفع « دانتيس » يعدو هابطا الصخور . فلما بلغ الشاطىء لم ير للزورق أثرا !

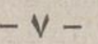
وهدأت العواصف بالتدريج .. ثم أشرق النهار ، فقال الشاب محدثا نفسه :

ـ بعد ساعتين أو ثلاث سوف يدخل السجان زنزانتى فيكتشف الحادث وتطلق سلطات السجن صفارة الإنذار ..!

واستدارت عيناه فى اتجاه (قصر إيف) ، فلمح عن بعد سفينة شراعية صغيرة من طراز سفن (جنوة) قادمة من ميناء مارسيليا .. فهتف جذلا :

ـ هل يعقل أن أكون بعد نصف ساعة على ظهرها ؟.. إن هؤلاء المهربين الذين يرتدون مسوح التجار سوف يفضلون ان يبيعونى على ان يقوموا بعمل إنسانى ، لكنى سأزعم انى بحار غرقت فى عواصف الليلة السابقة ، وسوف يصدقون قصتى لأن احدا لن يفندها أو ينقضها !

وحانت منه نظرة إلى حيث غرق زورق الصـيد ، فلمح غطاء رأس أحمر من أغطية البحارة متعلقا بطرف صخرة ، وبضع قطع من أخشابه عائمة فـوق الماء .. وفى لحظـة رسم خطته : سبح إلى مكان غطاء الرأس حتى يلفه ثم وضعه على رأسه ، وتعلق بإحدى قطع الأخشاب الطافية واتجه إلى حيث وقف فى طريق السفينة المقتربة .. !



فى جزيرة مونت كريستو

قضى « دانتيس » شهرين ونصف شهر يعمل بحارا فى سفينة المهربين ، ويمر بجزيرة (مونت كريستو) ذهابا وإيابا بدون أن يجد الفرصة الملائمة للهبوط فيها ..

واخيرا اقترح الربان الوقوف عندها للراحة . وكانت مهجورة تماما بحيث بدت مكانا نموذجيا لتجارة التهريب !

وفى اليوم التالى لم يرتب أحد فى نوايا « دانتيس » حين اعلن عزمه على اصطياد بعض الوعول البرية التى تقفز بين الصخور .. ثم تظاهر بانه سقط من صخرة واصيب فى ركبته إصابة تعجزه عن الحركة .. وحين اقترح عليه زملاؤه أن يحملوه إلى السفينة ، ابى قائلا : إنه يفضل الموت على آلام التحرك !.. ثم طلب من إخوانه أن يتركوا له بعض المؤن ويعودوا إليه بعد يومين أو ثلاثة ، أو يرسلوا إليه أى زورق صيد يصادفونه فى البحر ، فلم يسعهم إلا إجابته إلى طلبه !

ولم تكد سفينتهم تبحر حتى هب من مرقده فى خفة الغزال حاملا معه بندقيته وفأسه ، وهرع نحو المكان الذى حددته خريطة الراهب مكانا للكنز .. وهناك لمح آثارا على الصخور تؤدى إلى أخدود صغير يكفى اتساعه وعمقه لمرور زورق صغير وإخفائه عن العيون ، فرجح أن يكون الكردينال « سبادا » قد أحضر كنزه إلى هذا المكان فى زورق أخفاه فى الأخدود ثم دفن كنزه فى نهايته ، عند صخرة ضخمة تغطى تلك النهاية !

وتمشيا مع هذه النظرية راح يحفر بفأسه مجرى صغيرا بين الصخرة العليا والتى تحتها ، ثم ملأه بالبارود واشعل طرف الفتيل وانسحب .. فلما حدث الانفجار رفع الصخرة العليا عن قاعدتها وحطم السفلى تحطيما ، وفر من شقوقها آلاف الحشرات ، يتبعها ثعبان ضخم كان كأنه شيطان الكنز الحارس ، لكنه لم يلبث أن تسلل إلى الظلمات واختفى !

واقترب « دانتيس » من الصخرة العليا ، التى مالت نحو البحر .. ثم وضع جذر شجرة زيتون فى احد الشقوق وبذل كل قواه واجهد كل اعصاب جسمه كى يزحزح الحجر .. واخيرا تداعت الصخرة ، وانزلقت تتدحرج من قمة إلى قمة حتى اختفت آخر الأمر فى جوف البحر ..!

وكانت البقعة التى تغطيها الصخرة مستديرة الشكل ، تكشف عن حلقة حديدية مثبتة فى بلاطة مربعة ، فوضع « عتلة » شجرة الزيتون فى الحلقة وجذبها بكل قوته ، فانكشفت البلاطة عن سلم يؤدى إلى كهف عميق تحت الأرض !

وهبط « دانتيس » السلم ، لكنه بدلا من أن يجد ظلمة فى قاع الكهف وجد ضوءا خافتا يتسرب من شقوق الصخور .. وتذكر ان وصية الكاردينال حددت مكان الكنز بأنه فى « ابعد زاوية من الفتحة الثانية » .. وإذن فعليه ان يبحث الآن عن الكهف الثانى . وخطر له أن هذا الكهف المنشود لابد ان يوجد فى مكان ابعد من شاطىء الجزيرة ، فراح يدق الصخور وينصت إلى رنينها علّه يسمع رنينا اجوف

ينم عن وجود الكهف .. واخيرا خيل إليه انه يسمع الرنين المطلوب ، فعاد يدق الصخور ليتأكد من الأمر ، فتهشمت طبقة خارجية تكسو الصخرة وكشفت بذلك عن حجر أبيض كبير !

لقد غطيت فتحة الكهف بالأحجار ثم كسيت بتلك الطبقة وطليت بحيث تشبه ما حولها من الجرانيت !

والفأس التى كانت ثقيلة فى البداية صارت الآن فى خفة الريشة ..

وحين تم « لدانتيس » الكشف عن الفتحة هبط إلى الكهف الثانى ، فاذا هو اعمق واحلك ظلمة من الأول !.. وإلى يسار الفتحة كانت توجد زاوية عميقة مظلمة ، قدر الشاب من منظرها ان الكنز لو وجد فلن يوجد إلا فيها .. ومن ثم تقدم نحوها وأهوى بفأسه على ارضها ..!

وعند الضربة الخامسة او السادسة اصطدمت الفأس بسطح ذى رنين يشبه الحديد ، وسرعان ما رأى الشاب خزانة من خشب البلوط مثبتة بأحزمة من الفولاذ .. وفى وسط غطائها لوحة فضية حفر عليها شعار أسرة « سبادا » !

وامسك الصندوق من مقبضه وحاول أن يرفعه ، فلم يفلح .. فحول همه إلى محاولة فتحه .. وبعد جهود جبارة بمختلف الوسائل لانت الأقفال وانكسرت . ولكنه أصيب بدوار ، فأغمض عينيه وفتحهما ، ليستوثق من انه لا يحلم !

كان الصندوق مقسما إلى ثلاثة اقسام : لمعت فى الأول منها اكوام من العملة الذهبية البراقة .. وكان القسم الثانى



يحوى كتلا من الذهب غير المصقول .. أما الثالث فقد اغترف الشاب منه بيديه حفنات من الجواهر الخلابة ، من ماس ولؤلؤ وياقوت ..!

وحين استرد هدوءه . وأطربته فرحته ، عكف على إحصاء محتويات كنزه : كانت هناك الف سبيكة من الذهب الخالص، زنة كل منها من رطلين إلى ثلاثة .. ثم خمسة وعشرون ألف ريال ، يساوى كل منها نحو ثمانين فرنكا من العملة المتداولة، ويحمل رسم البابا « الكسندر » السادس وأسلافه .. ثم احصى عشرين حفنة من الماس واللآلىء النادرة .

وكان النهار قد أوشك أن ينقضى ، فخشى « دانتيس » أن يفاجئه أحد فى الكهف فغادره وبندقيته فى يد .. وفى تلك الليلة تناول عشاءه بضع قطع من البسكويت وكأسا من الروم ، ثم اختلس من الليل بضع ساعات نامها فوق فوهة الكهف ، نوما متقطعا تتخلله مشاعر مختلفة من الفرح والفزع !

***

ولما أشرق النهار التالى بعد أن انتظره « دانتيس » بفارغ الصبر ، هبط إلى مكان الكنز حيث ملأ جيوبه بالجواهر ثم اغلق الصندوق بإحكام وأعاد كل شىء إلى مظهره الأول سواء فى داخل الكهف أو خارجه ، بحيث لم يترك وراءه أثرا ينم عن اقتراب إنسان من المكان !.. ثم ربض على الشاطىء فى انتظار وصول قافلة من البحارة !

وفى اليوم السادس عاد المهربون إلى الجزيرة ، فلم يكد « دانتيس » يلمح شراع السفينة « إميليا الشابة » حتى خف

إلى الشاطىء ليستقبل إخوانه .. وحرص على ان يقول لهم إن إصابته لم تشف تماما، وإن خفت حدة آلامه !.. وفيما هو يثرثر معهم فهم من حديثهم أنهم يخشون أن تلتقى بهم سفينة من سفن حراس السواحل علموا أنها غادرت ميناء طولون لمطاردتهم !.. ولم تضيع الجماعة وقتا فى الانتظار فأقلع الجميع بسفينتهم إلى ميناء (ليجهورن) .. وهناك عرج « دانتيس » على جوهرى يهودى باع له اربعة من الأحجار الصغيرة التى يحملها فى جيوبه بعشرين الف فرنك .. ثم عاد يقول لزملائه البحارة المهربين إن ميراثا قد آل إليه من عم له، وانه سوف يتركهم نهائيا . ثم قدم لصديق له منهم قد أحبه — ويدعى « جاكوبو » — سفينة شراعية جديدة على سبيل الهدية ، علاوة على مبلغ من المال يعينه على استئجار بحارة لحسابه والاستقلال بالعمل ، مقابل شرط واحد اشترطه « دانتيس » عليه ، هو أن يذهب من فوره إلى مارسيليا ويستقصى انباء شيخ مسن يدعى « لويس دانتيس » يقطن حارة (دى ميان) ، وفتاة شابة تدعى « مرسيدس » من قاطنات قرية (كاتالان) .

وفى صباح اليوم التالى ابحر جاكوبو بسفينته إلى مارسيليا ، على ان يعود فيلتقى بولى نعمته فى جزيرة (مونت كريستو) ، حيث يقدم له تقريرا عن المهمة التى اداها فى مارسيليا !

وبعد أن ودع « دانتيس » زملاءه « المهربين » ووزع عليهم الهبات والهدايا لمناسبة الإرث الذى آل إليه ، رحل

وحده إلى جنوة .. وعند وصوله كان أحد أساطين بناء السفن يجرى تجربة « يخت » جديد صنعه لثرى إنجليزى ، مقابل مبلغ اربعين الف فرنك . فعرض عليه « دانتيس » أن يبيعه إياه بثمن يزيد عشرين الفا أخرى !.. ووجد الصانع أن فى وسعه بناء يخت آخر مماثل قبل موعد وصول الثرى الإنجليزى لتسلمه ، فقبل ما عرضه عليه الشاب .. وعندئذ قاده « دانتيس » إلى منزل تاجر يهودى حيث خلا هو إلى التاجر فترة باعه خلالها عددا من الجواهر التى يحملها فى جيوبه ، ثم خرج فدفع إلى صاحب اليخت الثمن المتفق عليه .. وطلب إليه أن يصنع خزانة سرية توضع فى مخبأ غير منظور فى كابينته الخاصة باليخت .. فأتم الصانع المهمة المطلوبة منه فى اليوم التالى ..

وبعد ساعتين أبحر « دانتيس » باليخت من ميناء جنوة ، بين حشد من المتفرجين الذين تجمهروا ليروا النبيل الأسبانى الذى يقود يخته بنفسه !.. وعند غروب شمس اليوم التالى رسا « دانتيس » بيخته فى احد خلجان جزيرة (مونت كريستو) ولم يكد يشرق النهار حتى عكف على نقل كنزه الضخم إلى المخبأ السرى الذى فى كابينته ، ففرغ من مهمته قبيل الغروب !

ثم قضى « دانتيس » اسبوعا آخر يتجول بيخته حول الجزيرة — فى انتظار عودة « جاكوبو » — ويدرس معالمها بعناية الفارس البارع الذى يدرس مؤهلات جواده الجديد الذى يعده للاشتراك فى سباق حاسم !

وفى اليوم الثامن لمح سفينة « جاكوبو » الصغيرة تدنو من



الجزيرة . وحين رسا بها صاحبها إلى جوار يخت مولاه حمل إليه نتيجة أبحاثه بصدد المهمتين اللتين عهد بهما إليـه .. وكانت نتيجة غير سارة : فان « لويس دانتيس » قد مات .. اما مرسيديس فاختفت ولا يعلم احد عنها شيئا !

اصغى الشاب إلى هذه الأنباء بهدوء متكلف ، ثم تقفز نحو الشاطىء فى خفة ، معربا عن رغبته فى ان يترك وحده بعض الوقت .. وحين عاد بعد بضع ساعات امر اثنين من بحارة « جاكوبو » بإعداد اليخت للمسير ، فى اتجـاه مرسيليا ! .. لقد كان « دانتيس » متاهبا لنبا موت ابيه . اما اختفاء خطيبته الغامض فلم يدر كيف يعلله !

ولم يكن فى وسعه أن يزود احدا من رجاله بتعليمـات واضحة بصدد المستقبل ، بغير أن يفشى سره .. هذا إلى أن بعض المعلومات التى كان يريد الوصول إليها لم تكن تصلح بطبيعتها لأن يستقصيها سواه ! وكانت المرآة قد دلته عند وصوله إلى (ليجهورن) على أن هيئته قد تغيرت بحيث لم يعد فى إمكان احد ان يعرف حقيقة شخصيته !.. هذا بالإضافة إلى كونه يملك الآن من وسائل التنكر ما يكفل اتخاذه اى اسم واية شخصية يقع اختياره عليها .

وهكذا رسا بيخته ذات صباح جميل فى ميناء مارسيليا ، تتبعه سفينة « جاكوبو » الصغيرة .. واختـار لرسـوه الرصيف المواجه لذاك الذى حمل منه إلى القارب الذى اقله إلى سجن (قصر إيف) الرهيب فى تلك الليلة الليـلاء التى لا تنسى !

وبرغم انه كان يرتجف رجفة غير إرادية كلما وقع بصره على احد رجال الشرطة ، فإنه تذرع بقدرته على تمالك نفسه ، وكان قد تعود ذلك فى اثناء معاشرته للراهب العلامة « فاريا » فى السجن ، فلم يبد عليه ادنى انفعال وهو يقدم إلى شرطة الميناء جواز سفره الإنجليزى الذى حصل عليه من (ليجهورن) .. وبفضل ذلك الجواز الأجنبى الذى يحترم فى فرنسا اكثر من جوازات البلاد نفسها ، استطاع ان ينزل إلى البر بلا صعوبة تذكر !

وكان اول من لفت نظره على ارصفة الميناء بحار من مرءوسيه القدامى فى السفينة « فرعون » ، فخطر له ان يمتحن تنكره بالتحدث إلى الرجل .. فاتجه إليه وراح يلقى عليه بعض الأسئلة المختلفة وهو يرقب تعبير وجهه بعناية .. لكن البحار لم تصدر منه كلمة او نظرة تلقى فى الروع انه قد راى محدثه يوما من الأيام من قبل ! .. وفى النهاية منحه « دانتيس » قطعة من النقود جزاء له على شهامته وانصرف !

وكانت كل خطوة يخطوها تقبض قلبه وتثير فى نفسه عواطف وذكريات شتى .. فلما بلغ نهاية شارع (دى نواى) ولمح حارة (دى ميان) اهتزت ركبتاه لفرط تأثره حتى كاد يسقط تحت عجلات عربة عابرة !.. واخيرا بلغ المنزل المتواضع الذى كان يقطنه ابوه !

كان المسكن الصغير الذى عاش فيه الأب يقع فى الطابق الخامس ، حيث يسكن الآن شاب وعروس لم يمض على زواجهما اسبوع . ولم يكن قد بقى من مظهر المسكن القديم

« كادروس »

غير جدرانه .. فالتمس الزائر رؤية المسكن ، وحين لحظ الزوجان عليه علائم التأثر العميق آثرا ان يحترما قداسة حزنه فلم يسألاه عن سببه وملابساته وتركاه يتأمل المكان كما يشاء .. فلما انسحب آخر الأمر من موطن ذكرياته رافقاه حتى الباب ووجها إليه الدعوة كى يعود لزيارة المكان فى الوقت الذى يروقه !

وفى اثناء نزول « دانتيس » السلم توقف فى الطابق الرابع ليستفسر عما إذا كان « الترزى » المدعو « كادروس » مايزال يقطن مسكنه القديم ؟ .. فقيل له إن الرجل قد أصيب بضائقة جعلته يهجر مهنته ، وانه الآن يدير حانة صغيرة على الطريق بين « بيلجارد » و « بوكير » .

ثم استفسر عن مالك المنزل ، فلما عرفه وكل مسجلا للعقود فابتاعه له من مالكه باسم « اللورد ويلمور » - وهو الاسم المثبت فى جواز سفره الإنجليزى - مقابل مبلغ خمسة وعشرين الف فرنك ، وهو مبلغ يساوى عشرة أضعاف قيمته الحقيقية .. ولو طلب المالك نصف مليون من الفرنكات ثمنا له لحصل عليها !.. وفى اليوم نفسه أخطر مسجل العقود قاطنى الطابق الخامس ان المالك الجديد يعرض عليهما ان يختارا اى مسكن آخر فى المنزل بالإيجار الزهيد نفسه ويخليا مسكنهما الصغير !

وقد أثارت هذه القصة الغريبة اهتمام أهل الحى وفضولهم ، فراحوا يعللونها بشتى التعليلات ، لكن تعليلا واحدا منها لم يقترب من الحقيقة الخفية او يحوم حولها !

— ٨ —

جزاء الوفاء

لعل الذين طافوا بجنوب فرنسا ، مروا خلال الطريق بين مدينة (بوكير) وقرية (بيلجارد) بحانة صغيرة يؤرجح الهواء على واجهتها لافتتها المصنوعة من الصفيح .. وقد اشرف على إدارتها خلال السنوات السبع الأخيرة رجل وزوجته ، يعاونهما اثنان من الخدم ، اما الرجل فكان صاحبنا « الترزى » القديم « جاسبار كادروس » . أما زوجته فكانت امراة شاحبة يبدو عليها المرض ، لا تكاد تبرح مخدعها فى الطابق الثانى ، فى حين يشرف زوجها على استقبال الرواد وإجابة طلباتهم !

وفى ذات يوم رأى « كادروس » رجلا يرتدى مسوح رجال الدين السوداء ويمتطى جوادا ، مقبلا من جهة (بيلجارد) ، وعلى رأسه قبعة مثلثة الأركان .. فلما ترجل أمام باب الحانة استقبله صاحبها ، مرحبا ، فالقى عليه القس نظرة طويلة فاحصة ، ثم قال يسأل فى لهجة إيطالية قوية :

— أنت مسيو « كادروس » على ما أعتقد ؟.. أما أنا فادعى القس « بوزونى » .. هل عرفت فى سنة ١٨١٤ ، أو ١٨١٥ ، بحارا شابا يدعى « دانتيس » ؟

فاجابه « كادروس » وقد احمر وجهه تحت نظرة القس الصافية الهادئة :

— « دانتيس » ؟ نعم .. لقد كان « إدمون دانتيس » من أعز أصدقائى !

ثم استطرد بعد حين قائلا :

— أخبرنى إذا سمحت أيها الأب : « ماذا جرى لإدمون التعس ؟ هل تعرفه ؟ هل هو حى مطلق السراح ؟ هل هو موسر وسعيد ؟ » .

— بل إنه مات سجينا تعسا محطم القلب ، فريسة لليأس المرير ..!

عندئذ غامت على وجه « كادروس » سحابة من الشحوب الشبيه بشحوب الموتى ، ثم ادار وجهه بعيدا ، ورآه القس يمسح الدموع من عينيه بطرف المنديل الأحمر المربوط حول رأسه .. ثم أردف :

— هل كنت تعرف الفتى المسكين إذن ؟

— لقد استدعيت لأراه على فراش الموت ، كى ادخل على نفسه عزاء الدين ، ولقد اقسم « دانتيس » فى حضرة الموت انه يجهل كل شىء عن سبب سجنه !

فغمغم « كادروس » :

— هذا صحيح .. آه يا سيدى ، إن الفتى المسكين قد ذكر لك الحقيقة !

فقال القس :

— لهذا السبب ناشدنى ان اكشف





يستطع يوما ان يحله ، وان انقى ذكراه من اية وصمة او شائبة تكون قد علقت بها !

وهنا استراحت نظرات القس على وجه « كادروس » الذى تمشت فيه كآبة وانقباض شديدان .. ثم استطرد القس ، قائلا :

ــ لقد عرف « دانتيس » فى سجنه ثريا إنجليزيا أطلق سراحه فى عهد الإمبراطورية الثانية ، كان يملك ماسة كبيرة القيمة اهداها يوم خروجه من السجن إلى « دانتيس » ، إعرابا عن امتنانه وشكرا له على العناية والعطف اللذين اظهرهما الشاب نحوه وهو يمرضه فى اثناء إصابته بمرض خطير فى سجنه . وتقدر الماسة بنحو خمسين الف فرنك !

واخرج القس من جيبه علبة فتحها فبهرت الماسة التى فى داخلها عينى « كادروس » ، الذى ساله ملهوفا :

ــ ولكن كيف وصلت الماسة إلى حيازتك يا سيدى ؟ هل اوصى لك « إدمون » بها ؟

فقال القس :

ــ كلا !.. بل جعلنى منفذا لوصيته ، وقد ذكر لى انه كان يوما له اربعة اصدقاء اوفياء ، إلى جانب العذراء التى كان خطيبها . وقد شعر بانهم جميعا تالموا لغيابه اشد الألم .. احدهم يدعى « كادروس » ..

وهنا ارتجف صاحب الحانة لذكر اسمه .. فى حين استطرد محدثه يروى على لسان « دانتيس » ، متظاهرا بانه لا يلحظ ارتباك « كادروس » :

ـــ والصديق الثانى يدعى « دانجلر » .. والثالث كان يزعم انه غريمه يحبه أخلص الحب ،وكان اسمه « فرناند » .. اما خطيبته فاسمها « مرسيديس » . وقد كلفنى ان اذهب إلى مرسيليا لأبيع الماسة واقسم ثمنها إلى خمسة انصبة متساوية ، ثم أعطى كلا من هؤلاء الأصدقاء الأوفياء نصيبا منها . فهم وحدهم الذين احبوه على الأرض !

ـــ ولكنك لم تذكر غير أربعة أسماء .. فمن الخامس ؟

ـــ الخامس هو والد « دانتيس » ، وقد علمت انه توفى !

ـــ هذا صحيح يا سيدى !.. إن الشيخ المسكين قد مات !

وكادت تخنقه غصته وانفعاله .. على حين استطرد الأب « بوزونى » قائلا وهو يبذل جهدا كبيرا كى يخفى تأثره :

ـــ لقد وقفت من ابحاثى فى مرسيليا على معلومات كثيرة، لكنى عجزت عن الاهتداء إلى من يصف لى كيف كانت نهاية والد « دانتيس » ، فهل تعرف شيئا فى هذا الصدد ؟

ـــ ومن يعرف إذا لم اعرف انا ؟.. لقد كنت اعيش فى المسكن الذى يقع أسفل مسكن الأب مباشرة . لقد مات « لويس دانتيس » بعد نحو عام من اختفاء ولده ، والناس يقولون إنه مات من الحزن ، اما انا الذى رأيته فى ساعات احتضاره فاقول لك إنه مات من الجوع !

فهتف القس وهو يهب من مقعده :

ـــ مات من الجوع ؟.. إن شر الحيوانات لا تموت هذه الميتة البشعة !.. هذا مستحيل ، مستحيل ..!

فاستطرد « كادروس » مستدركا :

ـــ لست أعنى أن الجميع قد هجروه أو نبذوه تماما ، فإن « مرسيديس » ومسيو « موريل » كانا يعطفان عليه .. ولكن لسبب ما ظل الشيخ التعس يكن كراهية شديدة للمدعو « فرناند » ، الذى ذكرت اسمه منذ حين بين اصدقاء « دانتيس » الأوفياء !

ـــ أو لم يكن كذلك فى الواقع ؟

ـــ وهل يمكن أن يكون الرجل وفيا لغريمه الذى ينافسه على الحظوة بالمرأة التى يحبها ويريدها لنفسه ؟.. مسكين « إدمون » ، لقد خدعوه بقسوة ، لكنه لحسن الحظ لم يعرف، وإلا لتعذر عليه وهو على فراش الموت أن يصفح عن أعدائه .. والواقع أن هبة « إدمون » المسكين لا يستحقها الخونة امثال « فرناند ودانجلر » اللذين وشيا به باعتباره من عملاء نابليون .. لقد كنت حاضرا ذلك الحادث .

ـــ وهل لم تحتج أو تعترض على هذا الإثم ؟ .. إنك إذا كنت لم تفعل فقد كنت شريكا فيه !

ـــ سيدى ، إنهما قد سقيانى من الخمر ما أفقدنى كل وعيى تقريبا ، بحيث لم أعد أشعر بما يجرى حولى إلا شعورا مبهما غير واضح . وقد قلت كل ما كان فى استطاعة من فى مثل حالتى تلك أن يقول ، لكن اللعينين [illegible] يجدان

ولا ضرر من مزاحها البتة .. ومع ذلك فإن وخز الضمير يطاردنى ليل نهار !

— لقد اشرت إلى شخص يدعى مسيو « موريل » ، ممن يكون ؟

— إنه صاحب السفينة (فرعون) ورئيس « دانتيس » ، وقد توسط من اجله عشرين مرة . وحين عاد الإمبراطور إلى عرشه طالب بالإفراج عن السجين بحماسة جعلت القوم يضطهدونه فيما بعد باعتباره من انصار بونابرت ! .. وقد ذهب لزيارة والد « دانتيس » عشر مرات ، ودعاه كى يزوره فى بيته . وقبل وفاة الرجل بيوم أو اثنين ترك مسيو « موريل » كيس نقوده فوق رف المدفأة ، فدفعت منه ديون الميت وانفقت على دفنه بالمظهر اللائق . وهكذا مات والد « إدمون » ، كما عاش ، دون ان يؤذى احدا . وما زلت احتفظ بكيس النقود المذكور . إنه كبير ، ومصنوع من الحرير الأحمر !

— وهل ما يزال مسيو « موريل » على قيد الحياة ؟ لا ريب إنه الآن ثرى سعيد ؟

فابتسم « كادروس » فى مرارة ، واجاب :

— إنه فى اسوأ حال ، يكاد يشرف على الإفلاس والدمار بعد خمس وعشرين سنة من العمل المتواصل الذى اكسبه احسن سمعة فى دوائر مارسيليا التجارية . لقد فقد الرجل خمس سفن فى مدى عامين ، وخسر أموالا طائلة بسبب

إفلاس ثلاثة من البيوت المالية الكبرى . والآن بات امله الوحيد معلقا على وصول السفينة « فرعون » سالمة ، وهى السفينة التى كان « دانتيس » المسكين ربانها ، وينتظر وصولها من جزر الهند حاملة شحنة من النيلة ودود القز .. فاذا غرقت هذه السفينة مثل سابقاتها فعلى الرجل السلام ! .. إن له زوجة كانت تصرفاتها برغم كل الظروف اشبه بتصرفات الملائكة .. كما ان له ابنة كانت على وشك الزواج من الشاب الذى تحبه لكن اسرته سوف تحول الآن دون زواجه من ابنة تاجر مفلس !.. وله ايضا ابن يدعى « مكسمليان » يعمل ملازما فى الجيش .. وهكذا ترى ان كل ذلك يزيد فى احزانه واشجانه ، فلو كان وحيدا فى الدنيا لافرغ رصاصة فى راسه واستراح ..!

— هذا فظيع !

— وهكذا تكافىء السماء الفضيلة يا سيدى !.. فانا الذى لم افعل يوما شرا — عدا الذى ذكرت لك قصته — اعانى ضائقة شديدة ، وزوجتى تموت من الحمى أمام عينى ، وانا عاجز عن أن اصنع شيئا من أجلها ، إنى سوف أموت جوعا، كما مات والد « دانتيس » ، على حين يتمرغ «دانجلر وفرناند» فى الثراء الفاحش .. لقد جلبت عليهما أفعالهما الحظ الحسن، فى حين اصاب الشقاء والبؤس الرجال الشرفاء .. !

— وماذا صار من أمر « دانجلر » المتآمر الأول كما تقول ؟

— لقد غادر مارسيليا على اثر اعتقال « دانتيس » إلى حيث عين — بوساطة « موريل » الذى جهل كل شىء عن

جريمته ــ صرافا فى بنك اسبانى . وخــلال الحــرب مع
اسبانيا استخدم فى قوميسيرية الجيش الفرنسى حيث جمع
ثروة ، ثم ضارب بها فى البورصة فضاعفها ثلاث او أربع
مرات ، وقد تزوج اولا ابنة صاحب البنك الذى كان يعمل
فيه ، لكنها ماتت ، فتزوج للمرة الثانية من ارملة تدعى مدام
« دى نارجون » ، هى ابنة مسيو « دى سرفيو » كبير أمناء
الملك ، إنه الآن مليونير وقد أنعموا عليه بلقب « بارون » .
فصار يدعى « البارون دانجلر » .. وهو يقطن قصرا فاخرا
فى شارع (مون بلون) ، به حظيرة تضم عشرة جياد ، وستة
من الخدم ، اما ملايينه التى فى البنك فلست اعرف عددها ..!

ــ « وفرناند » ؟

ــ إن له قصــة مشــابهة .. فعلى أثر عودة الإمبراطور
جند للجيش ، كما جندت انا ايضا ، لكنى كنت اكبر منـه
سنا ، ومتزوجا حديثا من زوجتى المسكينة ، فارسلت إلى
الساحل .. اما هو فقد انضم إلى الجيش العامل ومضى مع
فرقته إلى الجبهة حيث اشترك فى معركة (لينى) . وفى الليلة
التالية للمعركة عهد إليه فى الوقوف (ديدبانا) امام باب جنرال
كان على اتصال سرى بالأعداء .. وفى تلك الليلة كان على
الجنرال ان يــذهب إلى خطــوط الإنجليز ، فعــرض على
« فرناند » أن يرافقه .. فوافق هذا ، وهجر مركز حراسته
وتبع الجنرال !.. ولو بقى « نابليون » على عرشه لحوكم
« فرناند » أمام مجلس عسكرى ، لكن بلاط الملك كافأه على
فعلته !.. وهكذا عاد إلى فرنسا برتبة صف ضابط ، وبفضل

عطف الجنرال ووساطته رقى إلى يوزباشى فى سنة ١٨٢٣ ،
خلال الحرب الأسبانية .. اى فى الوقت الــذى قامر فيـه
« دانجلر » بمضارباته الأولى . ولما كان « فرناند » من اصل
أسبانى فقد ارسل إلى اسبانيا ليعمل على تهدئة شـعور
مواطنيه ، وهنا التقى « بدانجلر » وتوطدت بينهما الصلات
.. وما لبث أن ظفر بمعاونة الملكيين فى العاصمة ، وأدى
من الخدمات خلال تلك الحملة القصيرة ما نتجت عنه ترقيته
عقب معركة (تروكاديرو) إلى رتبــة أمــيرالاى ومنحه لقب
(كونت) ووسام الضابط فى فرقة الشرف (اللجيون دونور) .

فغمغم القس :

ــ يا لها من اقدار !

واستطرد « كادروس » :

ــ هذا صحيح ، ولكن اسمع البقية : فعند انتهاء الحرب
الأسبانية تاثر مستقبل « فرناند » ومصالحه بالسلام الطويل
الذى بدا انه يسود أوربا ، ولم يعكره غير إقدام اليونان على
شن الحرب ضد تركيا ، من أجــل اســتقلالها .. وعــندئذ
استدارت العيون جميعا نحو أثينا ، حتى صار شعار العصر
كله الإشفاق على اليونانيين وتعضيدهم .. ومن هنا سمحت
حكومة فرنسا بتأليف جيش من المتطوعين لنصرة جــارتها ،
دون أن تتولى ذلك التعضيد رسميا .. فسعى « فرنانــد »
حتى حصل على إذن بالسفر للخدمة فى اليـونان ، وكان
اسمه ما يزال مدرجا فى سجلات الجيش . وبعد فتــرة من
الزمن أعلن أن الكونت « دى مورسرف » ــ وكان هذا هو

الاسم الذى صار يعرف به — قد التحق بخدمة الوالى الالبانى « على باشا » فى درجة « مشير عام » .. وقد قتل « على باشا » ، لكنه قبل ان يموت راى ان يكافىء « فرناند » على خدماته بأن يترك له مبلغا من المال عاد به هذا إلى فرنسا ، حيث رقى إلى رتبة لواء .. وهو الآن يملك قصرا فاخرا — رقم ٢٧ شارع « دى هيلدر » بباريس ! .

فتح القس فمه دهشة ، وتردد لحظة ، ثم بذل جهدا كبيرا كى يتمالك نفسه ، واخيرا قال :

— و « مرسيديس »؟ ماذا كان مصيرها ؟ يقولون إنها اختفت !

فأجاب « كادروس » :

— « مرسيديس » اليوم من أسعد نساء باريس !.. لقد أصيبت عقب اعتقال « دانتيس » بنوبة من اليأس البالغ كادت تقضى عليها .. وكم استعطفت المحقق مسيو « دى فيللفور » ، ولكن بلا جدوى !.. واخيرا جعلت همها أن تعنى بالشيخ المهدم والد « إدمون » . وفى غمرة يأسها أصابها مكروه جديد ، هو رحيل « فرناند » إلى الحرب . ولم تكن قد عرفت بدور « فرناند » فى اعتقال حبيبها « إدمون » ، والجريمة التى اقترفها نحوه !.. فلما ذهب بدوره أحست أنها فقدت اخاها بعد خطيبها ، وبقيت وحيدة !.. وانقضت ثلاثة اشهر بدون أن تتلقى اى نبأ من « إدمون » ، أو من « فرناند » ، فصار البكاء ملاذها الوحيد .. لم تبق لها غير رفقة شيخ مهدم يقتله اليأس قتلا بطيئا !.. وذات مساء

سمعت خطوات أدركت أنها خطوات « فرناند » ، وظهر هذا أمامها بسترة صف الضابط . لم يكن هو حبيبها المنشود « دانتيس » ، لكنها أحست كأن جانبا من حياتها الماضية قد رد إليها .. لقد ملك آخر قلبها ، لكن هذا الآخر — إدمون دانتيس — غائب ، مختف ، ولعله قد مات !.. ولدى هذه الفكرة الأخيرة كانت « مرسيديس » تنخرط فى البكاء ، وتضم يديها فى لوعة وضراعة .. لكن الخاطر الذى طالما استبشعته من قبل ، حين كان يقترحه عليها أحد ، فرض نفسه الآن من تلقاء ذاته على ذهنها .. وفى الوقت عينه كان « دانتيس » الشيخ لا يفتأ يقول لها : (مات حبيبنا « إدمون » .. وإلا لعاد إلينا !) .. ولكن لو عاش الشيخ لما صارت « مرسيديس » زوجة لآخر ، غير ابنه .. فانه لم يكن ليكف عن تأنيبها وتحذيرها من الخيانة .. وقد ادرك « فرناند » ذلك ، فلما سمع بوفاة الرجل ، عاد — وكان قد صار ملازما — وفى الزيارة الأولى لم يتفوه بحرف « لمرسيديس » عن حبه إياها .. وفى الثانية ذكرها بأنه يحبها .. فطلبت إليه أن ينتظر ستة اشهر أخرى تحزن خلالها على «إدمون» وترتدى السواد !

فقال الأب « بوزونى » وهو يبتسم ابتسامة مريرة :

— إذن فقد أخلصت لحبيبها ثمانية عشر شهرا فى الجملة. ففيم يطمع اكثر من ذلك أعظم العشاق ولها وهياما ؟.. ثم ردد مغمغما كلمات الشاعر الإنجليزى : « يا ضعف الإرادة .. يا وهن العزيمة .. إن اسمك : المرأة ! » .

واستطرد « كادروس » :

ــ وبعد ستة أشهر من ذلك التاريخ تم زفافها إلى « فرناند » ، فى كنيسة (اكول) :

فغمغم الكاهن :

ــ الكنيسة ذاتها التى كان سيعقد فيها زواجها من « إدمون » ! .. لم يطرأ غير تغيير فى شخص الزوج !

واستأنف « كادروس » حديثه :

ــ وهكذا تزوجت « مرسيديس » لكنها كادت يغمى عليها وهى تمر امام حانة (لاريزرف) ، حيث احتفل قبل عام ونصف عام بخطبتها إلى ذلك الذى لو أمعنت النظر الآن فى اعماق قلبها لادركت انها ما تزال تحبه ! .. وفى حمى غزع « فرناند » من عودة « دانتيس » ، حرص على الابتعاد بنفسه وبزوجته عن المدينة .. فلم تنقض عشرة ايام على الزواج حتى غادرا مرسيليا !

ــ وهل لم تر « مرسيديس » بعد ذلك ؟

ــ بل لقد رايتها ، خلال الحرب الأسبانية ، فى (بربجنان)، حيث كان « فرناند » قد تركها تعنى بتربية ولدها .

ــ ابنها ..؟

ــ نعم .. « البرت » الصغير !

ــ ولكن ، كى تستطيع تثقيف ابنها لا بد ان تكون هى على قدر من الثقافة . وقد فهمت من « إدمون » انها ابنة صياد بسيط .. جميلة ولكن ليست متعلمة !

ــ إنها من الذكاء بحيث كيفت نفسها حسب مركز زوجها وثروته ، فتعلمت الرسم ، والموسيقى ، وكل شىء . واعتقد انها فعلت ذلك كى تشغل نفسها عن التفكير فى حبها القديم وتنسى الماضى . لقد ملأت راسها كى تخفف العبء الذى يثقل قلبها . وهى الآن غارقة فى الثراء والمجد والألقاب .. لكنها فيما أعتقد غير سعيدة !

ــ وما الذى يجعلك تعتقد ذلك ؟

ــ عندما اشتدت بى الضائقة فكرت فى ان الجا إلى اصدقائى القدامى ، لعلهم يساعدوننى .. فذهبت إلى « دانجلر » ، ولكنه ابى ان يستقبلنى .. ثم ذهبت إلى « فرناند » ، فارسل إلى مائة فرنك مع خادمه .. وفيما انا خارج سقط عند قدمى كيس نقود يحوى خمسة وعشرين جنيها إنجليزيا ، فرفعت راسى نحو مصدره بسرعة ، وإذ ذاك رايت « مرسيديس » فى النافذة ، لكنها سارعت إلى إغلاقها !

ــ ومسيو « دى فيلفور » ؟ هل تعلم ما صار إليه .. ونصيبه فى المأساة التى حلت « بإدمون » ؟

ــ كلا ، كل ما أعلمه عنه انه بعد اعتقال « إدمون » بزمن وجيز تزوج من الآنسة « دى سان ميران » ثم غادر مرسيليا على الأثر . ولا شك انه كان محظوظا مثل الآخرين .. وهكذا لم يبق فقيرا تعسا منسيا سواى !

ــ أنت مخطىء يا صديقى .. قد يبدو احيانا كأن الله ينسى ان ينصف المظلوم فترة من الوقت ، لكن عدالته تمهل ولا تهمل . وإليك الدليل !

واخرج القس من جيبه العلبة التى تحوى الماسة الثمينة واعطاها للرجل ، قائلا :

ـــ إليك يا صديقى . خذ هذه الماسة ، فهى لك !

فصاح « كادروس » :

ـــ ماذا ؟ . لى انا وحدى ؟!.. بربك لا تسخر منى يا سيدى !

ـــ كان المفروض أن يقسم ثمن هذه الماسة بين أصدقاء « إدمون » جميعا .. ولكن لم يكن له فى الحقيقة غير صديق واحد ، وإذن فلا داعى لتجزئتها . خذ الماسة إذن وبعها . إنها تساوى خمسين الف فرنك ، وارجو أن يكفى هذا المبلغ لانقاذك من ضائقتك !

فقال « كادروس » وهو يمد إحدى يديه فى خجل ليأخذ الماسة ، ويجفف العرق المتصبب على جبينه باليد الأخرى :

ـــ سيدى .. لا تسخر من سعادة إنسان أو شقائه !

ـــ إنى أعلم ما هى السعادة وكيف يكون الشقاء ، وحاشاى أن اسخر من عواطف الناس ومشاعرهم .. خذ الماسة إذن .. واعطنى فى مقابلها كيس النقود الحريرى الأحمر الذى تركه مسيو « موريل » فوق رف مدفأة « دانتيس » الأب ، والذى تقول إنه فى حيازتك !

- ٩ -

غادة الكرنفال

فى أواخر سنة ١٨٣٧ وصل إلى روما لحضور «كرنفالها» الكبير شابان ينتميان إلى مجتمعات باريس الرفيعة ، هما : الفيكونت « البرت دى مورسيرف » والبارون « فرانز ديبيناى » .

وكان الجناح الذى اقاما به فى الفندق مؤلفا من حجرتين صغيرتين وردهة ، اما بقية الطابق الفسيح الذى به هذا الجناح فكان يشغله ثرى من نبلاء صقلية أو مالطة يدعى الكونت « دى مونت كريستو » .

وأوصى الشابان السنيور « باسترينى » صاحب الفندق أن يبحث لهما عن عربة تكون تحت تصرفهما فى أثناء احتفالات الكرنفال .. لكنه عجز عن العثور على العربة المطلوبة ، من فرط ازدحام المدينة بالسائحين .. وفى اليوم التالى عاد إليهما الرجل يقول : إن الكونت « دى مونت كريستو » يعرض عليكما مكانا فى عربته ومقعدين فى نافذته بقصر (روسبولى) كى تشاهدا منها الاحتفال ! » .

ثم قادهما إلى جناح الكونت ، ودق الجرس ، فظهر خادم دعاهما إلى الدخول وأجلسهما فى حجرة استقبال فاخرة حافلة بالرياش والطنافس ، والسجاد التركى الثمين والأرائك المريحة والمقاعد الوثيرة والوسائد والستائر

الثمينة .. وظهر خلفها الكونت صاحب كل هذا الثراء .. وكان برغم شحوبه ذا وجه وسيم وعينين نفاذتين براقتين ، وأنف مستقيم ، وأسنان بيضاء ناصعة كاللؤلؤ ، يعلوهـا شارب أسود فاحم يزيدها جمالا .. أما قامته فكانت متوسطة الطول متناسبة التكوين .. وكانت يداه صغيرتين ، وقدماه صغيرتين ايضا شأن أهل الجنوب .

وابتدر الكونت « دى مونت كريستو » ضيفيه قائلا :

ـ ارجو ان تغفرا لى دعوتكما إلى زيارتى أولا ، فقد خشيت أن ازعجكما لو سبقت إلى زيارتكما !

ثم قال الكونت وهو يشير إلى الشابين كى يجلسا :

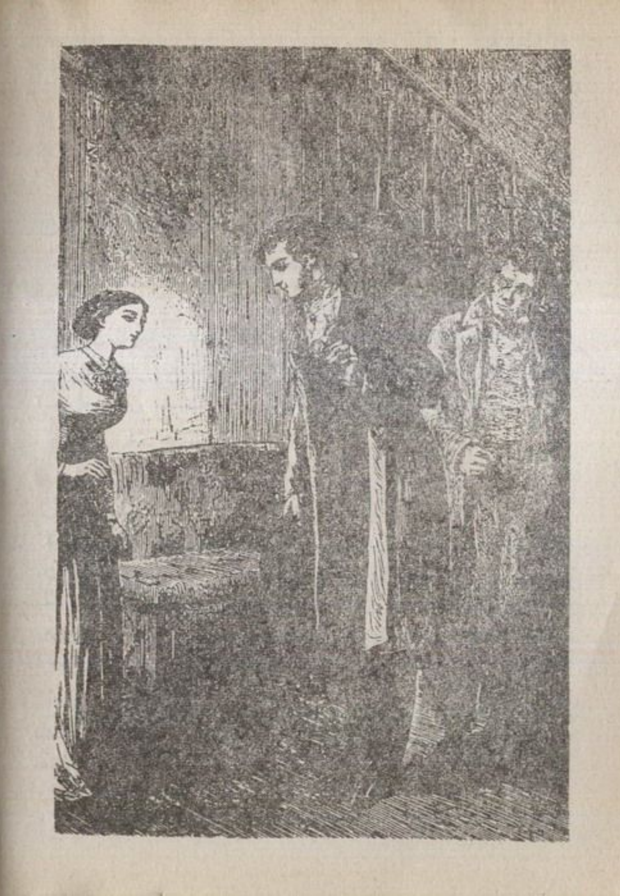
ـ الواقع أن ذلك الغبى « باسترينى » هو المسئول عن عدم مبادرتى إلى ذلك قبل هذه الساعة ، فهو لم يشر بكلمة إلى جيرتكما قبل اليوم ، فى حين انه يعلم مبلغ ترحيبى ـ فى وحدتى وعزلتى ـ بانتهاز كل فرصة للتعارف مع جيرانى .. والآن ارجو أن تشرفانى بتناول الإفطار معى !

فقال « البرت » :

ـ إننا يا سيدى الكونت لنشكر لك كرمك واريحيتك ونرجو الا نكون قد اثقلنا عليك !

فقال الكونت « دى مونت كريستو » :

ـ كلا !.. بل إنكما سوف تدخلان السرور على قلبى ولعلى أتشرف يوما بزيارتكما فى باريس !



ثم تطور الحديث بعد حين إلى حكم بإعدام اثنين من زعماء العصابات كان مزمعا تنفيذه فى ذلك اليوم . فافاض الكونت فى الحديث عن هذا الموضوع . حتى قال له « فرانز » :

— يلوح لى يا سيدى الكونت انك درست مختلف العقوبات واساليب التعذيب عند كل شعوب العالم !

فاجاب الكونت فى برود :

— بل هناك وسائل معدودة منها لم اشاهدها !

فساله « فرانز » :

— هل تجد متعة فى مشاهدة هذه المناظر البشعة ؟

فأجاب الكونت بقوله :

— كنت اول الامر ارتاع لمشاهدتها ، ثم صرت اشعر إزاءها بعدم المبالاة . واخيرا صار الفضول هو الذى يدفعنى إلى مشاهدتها !

وهنا غمغم « البرت » قائلا :

— الفضول ؟.. يالها من كلمة رهيبة !

فالتفت إليه الكونت وقال :

— إن شغلنا الشاغل فى الحياة هو الموت ، فليس عجيبا ان يشتد بنا الفضول لدراسة مختلف الوسائل التى تؤدى إلى فصل الروح عن الجسد ، او التى يقابل بها مختلف الناس انتقالهم من الحياة إلى الموت ، ومن الوجود إلى العدم ، تبعا لاختلاف شخصياتهم وطباعهم وعادات بلادهم المختلفة !.. وإنى لأؤكد لك انك كلما رايت عددا اكبر من

الناس يموتون ، سهل عليك ان تواجه الموت .. وفى اعتقادى ان الموت قد يكون عذابا ، لكنه ليس تكفيرا ! » .

فقال « فرانز » مأخوذا :

— لست افهم ما تعنيه تماما يا سيدى الكونت ، فهل لك ان توضحه لى ؟.. إنك تثير فضولى إلى اقصى حد !

فاجابه الكونت وقد بدت فى وجهه أمارات الاستياء العميق :

— سأوضح لك الامر بمثل اضربه لك : فافرض ان إنسانا قضى على حياة ابيك او امك او خطيبتك او اى عزيز لديك ، اليس فقده يترك جرحا لا يندمل فى صدرك ، وما يزال حزنك عليه يؤرقك ويعذبك ما حييت ؟.. إن القصاص الذى ياخذ به المجتمع ذلك القاتل بفصل راسه عن جسده بالمقصلة فى ثوان معدودات ، لا يمكن ان ينسيك العذاب النفسى الذى تقاسيه بسبب الجريمة التى اقترفها ، فى حين انه هو لا يقاسى مثل ذلك العذاب إلا بعض الوقت ، ريثما يؤخذ إلى المقصلة حيث يتالم جسمه بضع ثوان ، ثم ينتهى كل شىء بالنسبة له !

فقال « فرانز » :

— نعم .. إن العدالة البشرية لا تكفى لتعزيتنا ، وكل ما تفعله انها تسفك دما مقابل دم .. لكن لا ينبغى لنا ان نطالبها بما ليس فى طاقتها !

— دعنى اعرض عليك مثلا آخر : هناك الوف من حالات التعذيب يقاسى فيها المرء اشنع الويلات بلا علم المجتمع ، او

من غير أن يكفل له المجتمع الوسائل الكافية للانتقام !.. وهناك جرائم لا يعاقب عليها المجتمع ، فى حين أن عقابها يجب أن يكون أشد من (خوازيق) الأتراك ، و (بريمة) الفرس ، ووشم الهنود بالنار ! .. ألا تقع هذه الجرائم كل يوم ؟

— نعم ، إنها تقع بلا ريب .. ولعل المبارزة ما شرعت إلا لتكون وسيلة يلجأ إليها المعتدى عليه للانتقام من المعتدى!

— كلا يا سيدى !.. ليس هو الانتقام المنشود .. فأنا ألجأ إلى المبارزة فى الأمور التافهة ، وغالبا لا ينجو خصمى من الموت بفضل براعتى فى أنواع الرياضة البدنية ، وتعودى الاستهانة بالأخطار .. أما الانتقام بمعنى التعذيب البطىء العميق المستمر ، فمن رأيى أن يتبع المرء فيه القاعدة القديمة (العين بالعين والسن بالسن) ، كما يقول الشرقيون — أساتذتنا فى كل شىء — أولئك المحظوظون الذين رسموا لأنفسهم حياة من الأحلام وجنة من الحقائق !

— لكنك تبعا لهذه النظرية التى تجعل نفسك بها قاضيا وجلادا فى قضيتك الشخصية ، يكون من العسير أن تنجو دائما من الوقوع تحت طائلة القانون .. فالكراهية العمياء والحقد يحملانك على أن تركب الصعب من الأمور ، ومن يسكب الانتقام فى كئوس الآخرين يعرض نفسه لخطر الشرب من كأس أمر !

— هذا صحيح إذا كان المرء فقيرا وغير مجرب .. لا غنيا حاذقا .. ثم إن أسوأ ما قد يصيبه لن يخرج عن حد العقاب

السريع السهل الذى تحدثنا عنه ، والذى اتخذته الثورة الفرنسية الرحيمة بدلا من التمزيق تحت سنابك الجياد أو العجلات ، وما أتفه هذا العقاب ما دام الشخص قد انتقم لنفسه ؟!

* * *

— وفى هذه اللحظة سمعت دقات الأجراس فى كنيسة « مونتى سيتوريو » ولم تكن تدق إلا عند وفاة البابا أو افتتاح الكرنفال ، فقال الكونت :

— لقد بدأ الاحتفال ، ويحسن أن نسارع إلى ارتداء ثياب التنكر الخاصة به ..

ثم أشار إلى أزياء كثيرة أنيقة من حرير الساتان كانت متراكمة على بعض المقاعد ، ليختارا من بينها ما يشاءان .

وحين فرغ ثلاثتهم من هذه المهمة ، هبطوا إلى حيث كانت العربة فى انتظارهم .. فدرجت بهم فى شوارع المدينة الحافلة بمواكب المهرجين وعربات الزهور وجموع المتنكرين فى أغرب الأزياء والأقنعة ، وكلهم يصخبون ويتصايحون ويتقاذفون كرات الورق الملون والبيض المحشو بالدقيق !

وحين بلغت العربة ثانى منعطف فى الطريق ، أشار الكونت إلى الحوذى بالوقوف ، واستأذن ضيفيه فى الانصراف قائلا : « حين تملان الاشتراك فى التمثيل ولا تبغيان أن تصيرا متفرجين ، يمكنكما الحضور إلى حيث حجزت لكما مكانا فى نوافذى .. وفى انتظار ذلك أترك العربة والحوذى والخدم رهن إشارتكما ! » .

فشكر « فرانز » الكونت على كرمه واهتمامه ، فى حين انشغل « البرت » بإلقاء الزهر والورق الملون على عربة ملأى بالمتنكرين فى زى فلاحى الرومان .. ثم تابعت عربته والعربة الأخرى سيرهما فى اتجاهين متضادين ، فتنهد الشاب متحسرا وقال لصديقه : « إنك لم تر يا فرانز ركاب تلك العربة ، لست أشك فى أنهم جميعا من النساء الفاتنات المتنكرات فى زى الفلاحين ! فعسى ألا ينتهى الكرنفال قبل أن تتاح لنا فرصة لقائهن مرة أخرى ! » .

ولم يخب أمله ، فقد التقت العربتان بعد قليل فى أحد الشوارع ، فألقت إحدى الفتيات المتنكرات باقة من زهر البنفسج على عربتهما ، فتلقفها « البرت » بيديه .. وعندئذ وعد « فرانز » صديقه الماجن بأن يقتنع هو فى اليوم التالى بمشاهدة الكرنفال من النافذة ويترك له العربة يتابع بها مغازلاته !

وفى المساء تلقى « فرانز » رسالة مكتوبة بخط « البرت » ، فقراها مرتين بإمعان قبل أن يفهم مدلولها . وكان نصها :

« يا صديقى العزيز ..

فى اللحظة التى تصل فيها هذه الرسالة إليك ، أرجو أن تتكرم بأخذ دفتر الشيكات الذى يخصنى من درج المكتب الصغير الموجود فى حجرة نومى ، ثم تضيف إلى محتوياته كل ما تملك من مال .. وتهرع إلى بنك (تورلونيا) لتسحب منه المبلغين فورا وتسلمها لحامل هذا الخطاب .. وإنى أعتمد



عليك فى إمدادى بلا إبطاء بالمال المطلوب لسبب غاية فى الأهمية ! » .

وكانت هناك تحت هذه الأسطر ، ملاحظة بخط البرت نفسه يقول فيها :

« لقد آمنت الآن بالعصابات الإيطالية ! » .

كما كانت هناك عبارة أخرى كتبت تحت هذه الملاحظة بخط مغاير ، ونصها : « إذا لم يصل إلى مبلغ أربعة آلاف الليرة قبل الساعة السادسة صباحا ، . فلن تحل الساعة السابعة حتى يكون الفيكونت « البرت » قد فارق الحياة ! » .
« لويجى فامبا »

وقال « فرانز » محدثا نفسه :

ــ إذن فقد وقع « البرت » فى يد عصابة من اللصوص الخطرين !.. ليس فى الوقت متسع يمكن إضاعته !..

ثم نهض مسرعا ففتح درج المكتب الصغير حيث وجد دفتر شيكات « البرت » وكان الحساب المقيد فيه يدل على أن كل ما بقى من رصيده فى البنك ثلاثة آلاف ليرة !

ولم يكن « لفرانز » حساب فى البنك لأنه كان يعيش فى (فلورنسا) ، وقد حضر إلى (روما) ليقضى سبعة أيام أو ثمانية ، ولم يبق من المبلغ الذى أحضره معه إلا حوالى ثلاثمائة ليرة ، فى حين كان عليه لكى يتم قيمة الفدية المطلوبة أن يحصل على ألف ليرة !

وهنا تذكر « فرانز » صديقهما الكونت « دى مونت كريستو » ، فهرع إليه .. ووجده فى حجرة صغيرة تحف بها الأرائك الوثيرة ، فابتدره الكونت سائلا :

ــ أية ريح طيبة حملتك إلى هنا فى هذه الساعة ؟ هل أتيت لتتناول العشاء معى ؟ إن هذا يكون كرما منك !

فأجاب الشاب :

ــ بل جئت لأتحدث إليك فى مسألة خطيرة !

ثم قدم له خطاب « البرت » ، فلما فرغ الكونت من قراءته قال يسأل « فرانز » :

ــ أرى أن أذهب بنفسى للبحث عن « فامبا » هذا ، فهل ترافقنى ؟.. إنها ليلة رائعة الطقس تحلو فيها النزهة خارج المدينة .. أين الرجل الذى أحضر الرسالة ؟

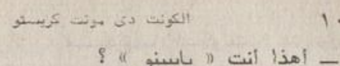
فقال « فرانز » :

ــ إنه ينتظر فى الشارع !

فمضى الكونت إلى النافذة وارسل من فمه صفيرا خاصا غريبا ، وسرعان ما برز من جوار الحائط رجل يرتدى عباءة وخرج إلى عرض الطريق ، فقال له الكونت بلهجة من يخاطب خادمة :

ــ اصعد !

ــ فأطاعه الرسول فورا فى خضوع ، ولم تمض دقائق حتى كان يطرق باب الحجرة .. فقال له الكونت :



— أهذا انت « ياببينو » ؟

لكن « ببينو » بدلا من أن يجيبه ارتمى على ركبتيه عند قدمى الكونت وتناول يديه يغمرهما بالقبلات !.. فقال له الكونت :

— آه ، إذن فأنت لم تنس أننى أنقذت حياتك ؟.. هذا غريب ، مع انه قد انقضى على الحادث أسبوع !

وتمتم الرجل فى خضوع :

— لن أنسى ذلك ما حييت يا صاحب الفخامة !

ثم سأله الكونت :

— كيف وقع الفيكونت « ألبرت » فى يد « لويجى » ؟

فأجاب : « إن عربة السيد الفرنسى مرت أكثر من مرة بمحاذاة العربة التى كانت فيها « تيريزا » عشيقة الزعيم !.. وقد طلب منها الفرنسى موعدا لمقابلته ، فضربت له الموعد فى المكان الذى حملته عربته إليه ، حيث كانت تنتظره ومعها « لويجى » فى سراديب مقابر (سانت سباستيان) !

فالتفت الكونت إلى « فرانز » وقال له :

— إنها قصة شائقة ، ولو لم تجدنى هنا لكلفت المغامرة صديقك ثمنا غاليا .. أما الآن فلتثق بأن الانزعاج هو الخسارة الوحيدة التى ستصيب « ألبرت » . هل تعرف مكان سراديب (سانت سباستيان ؟)

فقال « غرانز » :

— لم أزرها قط ، لكنى كنت اعتزم ذلك منذ زمن !

فقال الكونت :

— حسنا ، ها هى ذى الفرصة قد واتتك ، ومن العسير ان تتاح لك فرصة أفضل !

ثم دق الكونت الجرس طالبا إعداد عربته ، وبعد دقائق كانت تجتاز به وضيفه طريق « إبيان » القديم .. وقبل أن تصل إلى حمامات « كاراكالا » توقفت ، وهبط منها الرجلان وسارا حتى بلغا منفذا ضيقا يقع خلف اجمة صغيرة تحيط بها الصخور . ومرق « ببينو » من ذلك المنفذ أولا ثم تبعه الآخران .. وبعد أن سار الثلاثة خطوات اتسع الممر وسرعان ما وجدوا انفسهم امام سراديب عدة فهبطوا سردابا منها لا يكاد البصر يجد نهايته ، وتتخلله اشعة من الضوء ، ومنه تقدموا نحو حجرة كبيرة مربعة يضيئها مصباح ويجلس فيها رجل يقرا وظهره إلى المدخل الذى وقف فيه الزائرون يتأملون المنظر .

كان الرجل هو « لويجى غامبا » زعيم العصابة ، وحوله عشرون لصا وقاطع طريق أو اكثر جلسوا مسندين ظهورهم إلى مقاعد حجرية وأمام كل منهم غدارته ، فى متناول يده .. فلما دخل الكونت نهض « غامبا » مسرعا ، وفى لحظة كانت عشرون غدارة مشهرة فى وجه الزائرين !

فقال الكونت بصوت هادىء صاف ، دون أن تختلج عضلة فى وجهه .

— يبدو أيها العزيز « غامبا » أنك تستقبل الأصدقاء بقدر كبير من الحفاوة !

فصاح الزعيم برجاله وهو يشير بيده إشارة آمرة :

— اخفضوا اسلحتكم !

فى حين خلع باليد الأخرى قبعته احتراما ، ثم استدار نحو ضيفه ، قائلا :

— عفوك يا صاحب الفخامة ، كنت ابعد ما اكون عن توقع شرف زيارة منك ، بحيث لم اعرفك اول الأمر !

فأجابه الكونت :

— يبدو أن ذاكرتك ضعيفة فى كل شىء « يافامبا » ، بل إنك لا تنسى وجوه الناس فقط ، ولكن تنسى الشروط التى تتفق معهم عليها أيضا !.. الم نتفق على أن تحترم — فضلا عن شخصى — جميع اصدقائى ؟.. إذن لم اختطفت الليلة الفيكونت « ألبرت دى مورسيرف » وأحضرته إلى هنا ، مع انه من اصدقائى ؟!..

فقال زعيم العصابة وهو يستدير نحو رجاله الذين تراجعوا أمام نظرته :

— لماذا لم تذكروا لى ذلك أيها الأوغاد ؟ لقد جعلتمونى احنث بعهدى مع رجل مثل الكونت يملك ارواحنا جميعا فى قبضته !

ثم استطرد « فامبا » مشيرا نحو ثغرة يحرسها واحد من رجاله :

— السجين يوجد هنا ، وسأذهب بنفسى لأخبره بأنه مطلق السراح ، تفضل بالدخول يا صاحب الفخامة !

وصعد الكونت و « فرانز » فى اثر الزعيم بضع درجات ، ثم فتح « فامبا » احد الأبواب .. فإذا « البرت » متدثرا بمعطف كان أحد اللصوص قد أعاره إياه ، وقد رقد فى ركن من الحجرة المظلمة .. فلمس « فامبا » كتفه ، قائلا :

— أنت مطلق السراح يا سيدى !

وإذ ذاك نظر « البرت » حوله فرأى « فرانز » ، وهتف به :

— اهذا انت يا عزيزى « فرانز » ؟ لقد اظهرت المحنة صدق محبتك وصداقتك !

فأجابه « فرانز » :

— كلا لست انا صاحب الفضل ، بل هو جارنا الكونت « دى مونت كريستو » !

فقال « البرت » فى مرح :

— اوه يا عزيزى الكونت ، هذا عطف كبير منك ، وارجو ان تعتبرنى مدينا لك مدى الحياة .. إن والدى الكونت « دى مورسيرف » — وإن كان من اصل اسبانى — له نفوذ كبير فى بلاط فرنسا ومدريد .. وإنى ابادر فأضع

— بلا تردد — خدماتى وخدمات كل من تعد حياتى غالية فى نظرهم ، تحت تصرفك !

فأجاب الكونت :

— يا مسيو « دى مورسيرف » ، إنى أقبل ما تعرضه على بمثل روح الإخلاص القلبى التى املته .. بل إنى سأخطو خطوة إيجابية فأصارحك بأنى كنت قد اعتزمت من قبل أن اسألك معروفا عظيما !

فقال « البرت » فى حماسة :

— إنى رهن إشارتك يا سيدى !

ومضى الكونت فقال :

— إنى غريب عن باريس تماما ، فهى مدينة لم ارها قط . ولما كنت لا أعرف فيها أحدا يقدمنى لمجتمعاتها الرفيعة . ويتيح لى أن اقف على مفاتنها وعجائبها ، فإنى ارى فيما تعرضه على ما يذلل جميع الصعوبات ، فهل أستطيع أن اعتمد عليك كى تفتح لى عند وصولى إلى باريس ابواب عالم الطبقات الرفيعة فيها ؟.. إننى لا أعرف عن شخصياتها اكثر مما اعرف عن اهل الصين ؟

— إنه ليسرنى ان أؤدى لك هذه الخدمة مرحبا ، وسوف يعيننى على القيام بها خطاب التوصية الذى احمله من ابى إلى اصدقائه الكبار فى باريس !

— وانا سأمنحك مهلة ثلاثة اشهر ، الحق بك فى نهايتها ، فمن عادتى ان احسب دائما حساب شتى العراقيل والمصاعب

.. فهل نتفق على موعد محدد ، من حيث اليوم والساعة ؟.. إننى لمضرب الأمثال فى دقة مواعيدى !

ومد الكونت يده نحو تقويم على الحائط ، قائلا :

– اليوم ٢١ فبراير .. ثم اخرج ساعته من جيبه وأردف ، قائلا :

– والساعة الآن العاشرة والنصف .. فعدنى ان تذكر ذلك ، وأن تنتظرنى فى مثل هذه الساعة من صباح يوم ٢١ مايو القادم ..!

– حسنا يا سيدى !.. وسوف تجد الإفطار معدا لك ..

– اين تقطن ؟

– فى المنزل رقم ٢٧ بشارع دى هلدر :

فأومأ الكونت موافقا ، وقال :

– لا تنس ما اتفقنا عليه .. يوم ٢١ مايو ، الساعة العاشرة والنصف صباحا ، شارع « دى هيلدر » رقم ٢٧ !

– ١٠ –

فى باريس

أعد « ألبرت » كل شىء فى منزله بشارع هلدار بباريس للحفاوة بضيفه الكبير الكونت « دى مونت كريستو » .. وفى اليوم المحدد للقائهما هنا جلس مع بعض خاصته يحدثهم عن الكونت المنتظر وصوله ، وكيف أنقذه من نتيجة مغامرته فى إيطاليا .. فقال له أحدهم ويدعى « لوسيان دبراى » :

– يخيل إلى انك تمزح معنا باختراع هذه القصة ، بل أكاد أعتقد ألا وجود لزعيم العصابة الإيطالى الذى تحدثنا عنه ، ولا للكونت « دى مونت كريستو » الذى تنتظره !

وقال ضيف آخر يدعى « بوشان » :

– خير لك يا عزيزى « ألبرت » أن تعترف بأنك رأيت هذا كله فى حلم ، أو تدعنا نتناول طعام الإفطار فى هدوء وسلام !

ولم يسع « ألبرت » إلا ان يسكت إزاء سخرية أصدقائه ، وبقى صابرا على مضض ، حتى حان موعد وصول الكونت، واخذت ساعة الحائط تدق إيذانا بانتصاف الساعة الحادية عشرة ، وقلبه يدق معها فى عنف ، فى حين كان العرق البارد يتصبب من جبينه خشية أن يزداد خجله ، إن لم يصل الكونت فى موعده !

وما انتهت الساعة من دقاتها ، حتى ظهر احد الخدم بالباب وقال « لألبرت » :

— سيدى .. إن الكونت « دى مونت كريستو » قد وصل !

ودل الإجفال غير الإرادى الذى بدا من جميع الحاضرين على شدة تأثرهم بهذا النبأ . ولم يستطع « البرت » نفسه قمع انفعاله ، ولا سيما انه لم يكن قد سمع صوت عربة تقف امام الباب ، أو خطوات تخفق فى الردهة .. ولكنه فوجىء بفتح الباب دون جلبة ، ثم بظهور الكونت على عتبته ، مرتديا زيا يجمع بين الأناقة والبساطة ، وقد بدا فى سن لا تزيد على الخامسة والثلاثين ! على أنه سرعان ما خف لاستقباله مرحبا ثم قال :

— يا عزيزى الكونت .. لقد اعلنت نبا زيارتك لهؤلاء الأصدقاء ، بعد ان دعوتهم طبقا لما اتفقنا عليه ، وهانذا اقدمهم لفخامتك : هذا هو الكونت « دى شاتو رينو » ، النبيل ذو الأصل العريق ، الذى اشترك اسلافه فى مؤتمر المائدة المستديرة !.. وهذا مسيو « لوسيان دبراى » السكرتير الخاص لوزير الداخلية .. ومسيو « باشان » الصحفى الذى يصدر صحيفة تسبب الذعر للحكومة الفرنسية ، وان كان الارجح انك لم تسمع باسمه فى إيطاليا — برغم شهرته الوطنية — نظرا إلى كون صحيفته ممنوعة من الدخول إلى إيطاليا .. وهنا مسيو « مكسمليان موريل » قبطان السفينة (سباهى) ..

وكان الكونت يحيى كلا منهم بانحناءة يشوبها طابع الرسمية والود ، لكنه ما كاد يسمع الاسم الأخير حتى تقدم

خطوة إلى الأمام وقال « لألبرت » ، وقد اصطبغت وجنتاه الشاحبتان بحمرة خفيفة :

— يا عزيزى الفيكونت ، إنك ذكرت لى فى (روما) شيئا عن مشروع زواج .. فهل لى أن أهنئك ؟

فقال « البرت » :

— إن الأمر ما زال فى حيز التفكير !

وهنا تدخل « دبراى » ، قائلا :

— هل افهم من ذلك ان الأمر قد تقرر ؟

فاجاب « البرت » :

— كلا ! ولكن والدى شديد الرغبة فى تنفيذ الفكرة ، وارجو ان اقدمك فى القريب ، إن لم يكن لزوجتى ، فعلى الأقل لخطيبتى الآنسة « أوجينى دانجلر » .

فهتف الكونت « دى مونت كريستو » :

— « اوجينى دانجلر » ؟ اهى ابنة البارون « دانجلر » ؟

فقال « البرت » :

— نعم يا سيدى ، وهو بارون من الطراز الحديث !

فقال الكونت :

— حسبه انه ادى للدولة خدمات استحق عليها هذا الإنعام !

وقال « بوشان » :

ـ الواقع انه ادى للدولة خدمات جليلة ، فهو برغم كونه من حزب الأحرار ، فاوض فى عقد قرض كبير للملك « شارل » العاشر فى سنة ١٨٢٩ ، ولهذا منحه لقب البارون ، ووسام فارس فى فرقة الشرف :

فقال الكونت « دى مونت كريستو » :

ـ إنى لا أعرفه ، وإن كان يغلب على ظنى أنى سـوف أتعرف إليه قريبا ، فإن لى معه حسابا جاريا لدى ثلاثة من البيوت المالية ، احدها فى (لندن) ، والثـانى فى (فينا) ، والثالث فى (روما !) .

ثم واصل « البرت » ، كلامه ، فقال :

ـ على اى حال ، وقبل كل شىء ، ينبغى أن نجد مسكنا فى عاصمتها الكبرى يلائم ضيفها العزيز الجديد الكونت « دى مونت كريستو » !

فقال الكونت : « شكرا لك يا سيدى .. إننى منذ استقر رايى على الحضور إلى هنا ، ارسلت خادمى الخاص لكى يبتاع لى منزلا مناسبا فى باريس ويؤثثه ، ولا بد انه قد فرغ من هذه المهمة الآن !

فقال « بوشان » :

ـ إذن فالخادم الخاص لصاحب الفخامة يعرف باريس جيدا ؟

فأجاب الكونت :

ـ نعم ، إنه أمينى (النوبى) الصموت « على » وهـو يعرف باريس جيدا ، كما يعرف ذوقى ومطالبى .. وكان يعلم أننى سأصل اليوم فى الساعة العاشرة ، فانتظرنى منذ التاسعة عند حاجز (فونتنبلو) حيث اعطانى هـذه الورقة التى تحوى عنوان مسكنى الجديد !

فقال « بوشان » :

ـ إذن فلنقتنع بأن نؤدى للكونت الخدمات التى فى مقدورنا .. ويسرنى ، بوصفى صحفيا ، أن أفتح لفخامته أبواب جميع المسارح !

فشكره الكونت ، وقال :

ـ إن لدى سكرتيرى تعليمات بأن يحجز لى مقصورة فى كل مسرح :

وهنا سأله « دبراى » :

ـ هل سكرتير الكونت نوبى أيضا ؟

فأجاب :

ـ كلا ! بل هو (كورسيكى) ، يدعى مسيو « برتوشيو » ، وقد كان جنديا ومهربا ، بل كان فى الواقع كل شىء .. ولست واثقا من انه لن يحتك بسلطات البوليس يوما ، بسبب طعنة خنجر او ما يشبهها من الحوادث التافهة فى نظره !

وهنا قال « شاتو رينو » مخاطبا الكونت :



— إذن .. ما دام عندك المسكن والخادم والسكرتير ، فلا ينقصك غير الخليلة !

فابتسم الكونت ، وقال :

— الواقع انه عندى من هى خير من الخليلة .. عندى الجارية الخاضعة !.. إنكم تحصلون على خليلاتكم من الأوبرا ودور اللهو المختلفة ، أما أنا فقد حصلت على صاحبتى من (القسطنطينية) .. وهى تكلفنى نفقات أكثر ، لكنى لا ارى باسا فى ذلك !

فقال له « دبراى » ضاحكا :

— لا تنس يا سيدى أننا فى بلد الحرية ، وعلى هذا فإن جاريتك هذه لا بد أن تغدو حرة فى اللحظة التى تطأ فيها قدماها أرض فرنسا !

فقال له الكونت :

— من أين لها ان تعرف ذلك ، وهى لا تتكلم بغير لغتها ؟!

فقال « بوشان » :

— أظن أننا سنراها على كل حال ، ولكن هل فخامتك تقتنى الجوارى ..؟

فابتسم الكونت مرة اخرى ، وقال :

— كلا !.. لست على هذه الدرجة من التوحش ، بل إن كل واحد حولى له كل الحرية فى ان يتركنى إذا شاء ، وفى استطاعته ان يعيش بعد ذلك فى غنى عنى وعن اى إنسان

آخر .. ولكن جميع من حولى ليس فيهم من يفكر فى ذلك ، بفضل ما يلقون من حسن المعاملة !

وحين انصرف أصدقاء « البرت » ، وخلا هذا إلى الكونت ، قاده إلى جناحه الخاص الأثير عنده ، فمرا من الصالون إلى غرفة النوم ، التى كانت نموذجا للذوق الرفيع والأناقة البسيطة ، وكانت فيها لوحة من رسم فنان شهير ، تشرق على الحجرة من وسط إطارها المذهب .. فلفتت نظر الكونت الذى اقترب منها فى خطوات سريعة ثم وقف أمامها وراح يتأملها فى إعجاب !

كانت اللوحة تمثل فتاة حسناء سمراء ، ذات عينين مشرقتين لامعتين ، تظللهما أهداب طويلة ، وترتدى ثياب صيادات عشيرة (كاتالان) المؤلفة من خليط من اللونين الأحمر والأسود ، وتضع فى شعرها دبوسا ذهبيا .. وتتجه بعينيها إلى البحر ، وحول المحيط الأزرق والسماء الصافية . وكان الضوء فى الحجرة ضئيلا إلى حد ان « البرت » لم يلحظ الشحوب الذى كسا وجه الكونت ، او الرجفة العصبية التى هزت صدره وكتفيه ..!

وحين تمالك الكونت نفسه ، قال فى صوت هادىء :

— أرى ان لك خليلة جذابة جدا يا فيكونت . وهذا الثوب الذى لا شك أنه ثوب الرقص ، يناسبها بشكل رائع !

فأجابه « البرت » :

— آه يا سيدى ، ما كنت لأغفر لك هذا الخطأ لو انك رايت صورة اخرى إلى جانبها .. إنك لا تعرف من هى .. ولكن

هانت ذا تراها أمامك .. لقد رسمت لها هذه الصورة منذ حوالى ثمانى سنوات ، وهذا الزى هو فيما يبدو زى تنكرى ، على أن الصورة من الاتقان والمشابهة للأصل بحيث يخيل إلى انى ارى فيها امى حقيقة كما كانت تبدو سنة ١٨٣٠ . لقد رسمت لها هذه الصورة فى اثناء غياب ابى ، ولا شك انها ارادت ان تدبر له مفاجأة سارة .. لكن العجيب فى الأمر ان هذه الصورة لم تعجب ابى ، ولم تستطع قيمتها الفنية — باعتبارها من اعظم لوحات الفنان الذى رسمها — أن تتغلب على بغض ابى لها ! .. اغفر لى تحدثى فى امر عائلى كهذا ، ولكن لما كنت اعتزم ان اقدمك إلى ابى ، فإنى اذكر لك هذه التفصيلات ، راجيا الا تشير إلى هذه الصورة فى حديثك معه .. ويخيل إلى ان لهذه اللوحة تأثيرا خبيثا ، فما من مرة تدخل فيها امى هذه الحجرة إلا وتقف تنظر إليها مليا ، ثم تنخرط فى البكاء !

وكان الكونت يصغى إلى مضيفه الشاب فى انتباه ، فى حين استطرد هذا فقال :

— الآن وقد رايت كل تحفى ، ارجو ان ترافقنى إلى جناح ابى .. لقد كتبت إليه من (روما) ورويت له قصة اليد التى اسديتها إلى ، كما انبأته بموعد زيارتك هذه .. وفى وسعى ان اقول : إن ابى وامى يتلهفان شوقا إلى ان يقدما لك شكرهما وامتنانهما على إنقاذك حياتى !

ثم ارسل « البرت » خادمه إلى ابويه ليخبرهما بقدوم الكونت « دى مونت كريستو » ، ومشيا فى اثره حتى وصلا

إلى الحجرة المفضية إلى حجرتها الخاصة ، وسرعان ما فتح بابها ، ووجد الكونت « دى مونت كريستو » نفسه وجها لوجه امام الكونت «دى مورسيرف» . وكان هذا فى الخامسة والأربعين من عمره — وإن بدا فى الخمسين على أقل تقدير — كما كان شاربه الأسود وحاجباه يتنافران كل التنافر مع شعر رأسه الأشيب القصير ، المقصوص على الطريقة العسكرية .. وكان يرتدى ثيابا بسيطة ، ويضع فى عروة سترته أشرطة النياشين المختلفة التى حصل عليها .

وتقدم الكونت « دى مورسيرف » للقاء ضيفه ، فى خطوات متزنة تنم عن الاعتداد بالنفس .. فى حين بقى الكونت « دى مونت كريستو » فى مكانه لا يتحرك ، وبدا له كأن قدميه سمرتا فى الأرض ، وكأن عينيه سمرتا على محيا مضيفه الوقور !

وقال الكونت « دى مورسيرف » يحييه مبتسما :

— على الرحب والسعة يا سيدى .. إنك قد أديت لهذا البيت جميلا لن ينساه مدى الحياة ، إذ انقذت حياة وريثه الوحيد !

ثم قدم لضيفه مقعدا ، فتناوله هذا وجلس ، بحيث يسقط عليه ظل الستائر الكبيرة التى صنعت من القطيفة .. وقرا على قسمات وجه مضيفه قصة أشجان خفية حفرها الزمن مع ما حفر من الغضون والتجاعيد فى ذلك الوجه !

ثم صاح « البرت » فجأة :

ـ هذه أمى قد حضرت !

فالتفت الكونت « دى مونت كريستو » إلى حيث أشار « البرت » ، فرأى الكونتيس « دى مورسيرف » واقفـه عند مدخل الصالون ، امام الباب المواجه لذلك الذى دخل منه زوجها ، وكانت شاحبة الوجه لا تتحرك .. وحين التفت إليها ، تركت ساعدها الذى كان يستند إلى مقبض الباب يسقط إلى جانبها !

كانت الكونتيس قد دخلت الحجرة قبل ذلك بثوان ، بدون ان يلحظها احد ، ولما نهض الكونت وانحنى لهـا ، ردت التحيـة بغير ان تتكلم .. وإذ ذاك قـال لهـا الـكونت « دى مونت كريستو » .

ـ عفوا يا سيدتى ، ارجو الا تكونى مريضة !

وعندئذ اجابته :

ـ لست مريضة ، وإنما هو الانفعال الذى تملكنى فجاة وانا ارى لأول مرة الرجل الذى لولا شهامته لكنا الآن غارقين فى دموعنا واشجاننا !

.. ثم استطردت قائلة وهى تتقدم نحوه بجلال الملكات:

ـ سيدى .. إنى مدينة لك بحياة ابنى ، ومن اجـل هذا اباركك واشكرك على كـونك قد اتحت لى فرصـة الإعراب لك شخصيا عن امتنانى القلبى !

وانحنى الكونت مرة اخرى ، وقد بدا وجهه اكثر شحوبا من وجهها ، ثم قال لها :

ـ سيدتى ، إنك وزوجك تبالغان فى تقدير امر تافه .. فان إنقاذ رجل ، من اجل نفسه ومن اجل شـعور ابيـه وعاطفة امه ، ليس عملا كبيرا من اعمال الخير ، وإنمـا هو واجب عادى بسيط من الواجبات الإنسانية !

فاجابته الكونتيس دى مورسيرف :

ـ إنه لمن حسن حظ ابنى يا سيدى أن وجـد صـديقا مثلك .. وانا اشكر الله على ذلك !

ثم رفعت عينيها إلى السماء وقد تجلى فيهما الامتنـان الحار ، بحيث خيل إلى الكونت انه لمح فيهما دموعا تلمع .. وهنا اقترب زوجها منها ، وقال :

ـ يا سيدتى .. لقد استأذنت الكونت فى الانصراف ، وأرجو منك أن تفعلى ذلك ايضا ، فان اجتماع المجلس يبدا فى الساعة الثانية ، والساعة الآن الثالثة ، وعلى ان القى خطابا فيه اليوم !

فاجابته الكونتيس ، باللهجة نفسها الدالة على التاثر :

ـ اذهب إذن ، وسوف نبذل جهدنا كى ننسى غيابك ..

ثم التفتت إلى الكونت « دى مونت كريستو » وقالت له :

ـ الا تشرفنا بقضاء بقية اليوم معنا ؟



فقال الكونت :

— شكرا لك يا سيدتى على كرمك ، وارجو قبول اعتذارى من عدم استطاعتى قبول هذه الدعوة ، فقد جئت إلى هنا راسا عقب وصولى إلى باريس ، وما زلت اجهل كل شيء عن المنزل الذى سأقطنه !

فقالت :

— إذن .. هل تعد بأن تمنحنا شرف حضورك فى فرصة قريبة ؟

فأومأ الكونت « دى مونت كريستو » موافقا ، على حين استطردت الكونتيس فقالت :

— إذن .. لن اعوقك يا سيدى !

* * *

.. وعلى اثر ذلك انصرف الكونت إلى المنزل الذى اختاره له تابعه « على » فى حى (الشانزليزيه) فلم تكد العربة تقف امام الباب حتى اقبل « على » و « برتوشيو » فاطلا من نافذتها ، ثم انحنى الأخير لسيده احتراما ، وقدم له ذراعه ليعينه على النزول ، فقال له الكونت وهو يهبط درجات سلم العربة الثلاث :

— اشكرك يا مسيو برتوشيو .. اين مسجل العقود ؟

فقال برتوشيو :

— إنه فى انتظار سيدى ، فى الصالون الصغير !

وحين دخل الكونت الصالون ، ابتدر الرجل سائلا :

— انت يا سيدى المسجل المكلف ببيع المنزل الريفى الذى اريد شراءه ؟.. وهل اعددت عقد البيع ؟..

فقال المسجل :

— نعم يا سيدى الكونت ، وهذا هو العقد ..

ومد يده بالعقد ، فتناوله الكونت قائلا :

— واين يقع هذا المنزل ؟

وقد القى الكونت هذا السؤال فى هدوء ينم عن عدم المبالاة ، وهو ينظر إلى كل من برتوشيو والمسجل ، فقال الأخير متعجبا : « ماذا ؟ . الا يعلم سيدى موقع البيت الذى يشتريه ؟.. انه فى ضاحية (اوتوى) » ..

وإذ ذلك شحب وجه « برتوشيو » ، فى حين وقع الكونت على العقد بسرعة ، وهو يلقى نظرة على البيانات الخاصة بموقعه وملاكه السابقين .. ثم التفت إلى « برتوشيو » ، وقال له وهو يشير إلى المسجل :

— أعط هذا السيد خمسة وخمسين الف فرنك .

ولم يكد الكونت يخلو إلى نفسه حتى أخرج من جيبه كتابا مغلقا بقفل ، ففتحه بمفتاح كان يحتفظ به حول رقبته .. وبعد ان قلب محتوياته بضع لحظات توقف أمام ورقة تحوى بعض البيانات ، فراح يقارن ما فيها بما ورد فى عقد الشراء الموضوع فوق المنضدة ، وهو يحدث نفسه : « (أوتوى) ، شارع النافورة رقم ٢٨ .. إنه هو بعينه . والآن هل اعتمد على الاعتراف المنتزع بالتعذيب الدينى او الجسمانى ؟ على اية حال سوف أعرف كل شيء فى خلال ساعة ! » .

وبعد عشرين دقيقة كان الكونت « دى مونت كريستو » و « برتوشيو » فى طريقهما إلى ضاحية (أوتوى) ، وازداد انفعال الوكيل وهما يقتربان من الضـاحية ، وكان المنزل رقم ٢٨ فى أقصى أطرافها . وقد خلع الظلام على المناظـر المحيطة به طابع المناظر المسرحية المصنوعة !

وطرق « برتوشيو » الباب ، وسرعان ما فتح ، واطـل الحارس منه ، فقدم له « برتوشيو » عقد الشراء قائلا ، وهو يشير إلى الكونت :

— هذا هو سيدك الجديد !

ثم سأل الكونت الحارس :

— ماذا كان اسم سيدك القديم ؟

فأجاب :

— المركيز « دى سـان ميران » ، وهو شيخ مسن من اتباع اسرة (البوربون) الملكية ، وليس له إلا ابنة واحدة متزوجة من المسيو « فيللفور » ، الذى كان وكيلا للنـائب العام فى (نيم) ثم فى (فرساى) ..

فقال الكونت :

— يخيل إلى انى سمعت أن هذه الابنة قد ماتت ؟

فقال الحارس :

— نعم يا سيدى ، لقد ماتت منذ إحدى وعشرين سنة .. ومنذ ذلك التاريخ لم نر اباها المسكين سوى ثلاث مرات !

— شكرا ، شكرا .. أعطنى مصباحا .

وكف الكونت عن استجواب الرجل ، بعـد أن لمح من نظرة وكيله انه لن يستطيع المضى فى ذلك دون تعـريض نفسه لخطر إثارة الريب والشكوك فى نفس الحارس . ثم قال له الحارس :

— هل ارافقك يا سيدى ؟

— كلا : لا ضرورة لذلك .. سوف يرافقنى «برتوشيو» .

واطاع الوكيل صامتا ، لكن ارتجاف يده التى تحمـل المصباح دل على مـدى الجهد الـذى كلفته إياه طـاعة سيده !.. وقال الكونت وهما يدخلان :

— اهذا سلم خاص ؟.. هذا بديع .. أضىء لى يا مسيو « برتوشيو » ، وتقدمنى .. سوف نرى إلى أين يـؤدى السلم !

ولم يسع « برتوشيو » إلا ان ينفذ أمر الكونت .. فلمـا بلغا الحديقة ، تريث عند الباب الخارجى برهة ثم صـاح وهو يضع المصباح عند زاوية الجدار الخارجى :

— لا ، لا ، يا سيدى .. مستحيل !.. لن اسـتطيع المضى اكثر من ذلك !

وهنا سأله الكونت فى هدوء :

— ماذا تعنى ؟

فأجاب ، قائلا :

— ينبغى أن توافقنى يا صاحب الفخامة على ان هـذا



أمر غير طبيعى : أن تشترى المنـزل فى (أوتوى) ، وفى شارع النافورة بالذات ، ورقم ٢٨ دون غيره !.. أوه ، لم لم اصارحك بكل شىء ؟ انا واثق بانك ما كنت لتجبرنى على الحضور . لقد رجوت ان يكون البيت الذى اشتريته غير هذا الذى وقعت فيه جريمة القتل !

فصاح الكونت وهو يتوقف عن المسير فجاة :

ـ ماذا ؟.. ما هـذا الكلام الـذى تقـوله ؟ يالك من شيطان (كورسيكى) لعين ! .. الا تفـكر إلا فى المآسى والخرافات ؟.. هيا تناول المصباح ودعنا ندخل الحديقـة .. لعلك لست خائفا من الاشباح وانت معى ؟

فحمل « برتوشيو » المصباح وأطاع الأمـر .. وحين فتح الباب المفضى إلى الحديقة طالعتهما سـماء قاتمة ، يحاول فيها القمر جاهدا أن ينفذ من خلال السـحاب .. فأراد الوكيل ان ينعطف إلى اليسـار ، لكن صوت الكونت لاحقه ، قائلا له :

ـ كلا .. كلا !.. ما جدوى السير فى الممرات ؟.. هذا هو بستان جميل ، فلنمض إلى الأمام !

ثم تقدم الكونت ، وواصل السير حتى بلغ اجمـة من الأشجار فتوقف .. وإذ ذاك عجز الوكيل عن أن يقمـع انفعاله ، فصاح :

ـ تحرك يا سيدى من مكانك بسرعة ، اتوسل إليـك : إنك تقف فى البقعة التى سقط فيها بالضبط .. وها أنت ذا

فى وقفتك هذه ، مرتديا هذا المعطف الذى يخفى وجهك . تذكرنى بمسيو « دى فليفور » ، باللأثيم !

فقال الكونت ، بلهجة جعلت الرعدة تسرى فى أوصال الوكيل المسكين :

ـ إذن فقد خدعنى الأب « بوزونى » حين أرسلك إلى عقب رحلته فى انحاء فرنسا سنة ١٨٢٩ ، مزودا بخطاب توصية عدد فيه صفاتك الحميدة . حسنا !.. سوف أكتب الآن إلى الأب « بوزونى » واحمله مسئولية سوء مسـلك مبعوثه .. وسأعرف كل شىء عن جريمة القتل هذه . لكنى انذرك منذ الآن بانى حين اقيم ببلد ما أخضع لجميع قوانينه، ولست ارغب الآن فى أن اضع نفسى تحت رحمة القـانون الفرنسى من اجلك !

فقال « برتوشيو » فى برود :

ـ ولكن يا صاحب الفخامة ؟!.. ألم يذكـر لك الأب « بوزونى » ما تضمنه اعترافى الكامل له فى سجن (نيم) ؟ إن عبئا جسيما يجثم فوق ضميرى ؟!

فقال الكونت :

ـ لقد ذكر لى الأب « بوزونى » انك تصلح وكيلا مثاليا . وقد حسبت ان جريمتك كانت جريمة سرقة لا غير .. هذا كل ما فى الأمر .. والآن لا بد من ان تكاشفنى بكل شىء !

* * *



اخذ « برتوشيو » يروى قصته للكونت بالتفصيل . قائلا :

ــ تبدا القصة فى سنة ١٨١٥ . حيث كان لى اخ اكبر يعمل فى خدمة الإمبراطور : كان اخى وصديقى فى الوقت نفسه ، تولى تنشئتى كما لو كنت ابنه ، وفى سنة ١٨١٤ تزوج ، فلما عاد الإمبراطور من جزيرة (إلبا) انخرط اخى هذا فى الجيش ، ثم اصيب بجرح خفيف فى معركة (واترلو) وانسحب مع الجيش وراء (اللوار) . وذات يوم تلقينا خطابا منه جاء فيه : أن الجيش تفرق شمله ، وأنه سوف يعود من طريق (نيم) . ثم طلب إلى أن أترك له ما أملك من نقود عند صاحب حانة من حانات (نيم) كانت لى معه معاملات تتصل بالتهريب .. ولما كنت احب اخى حبا قويا فقد رايت ان احمل النقود إليه بنفسى . وفى ذلك الوقت حدثت تلك المذابح الشهيرة فى جنوب فرنسا ، فإن ثلاثة من قطاع الطرق هم : «ترستايون ، وتروفيمى ، وجرافان» . اخذوا على عاتقهم أن يذبحوا علانية كل من يتوهمون أنه من اتباع بونابرت ، فلما دخلت (نيم) خضت فى بحار من الدم حتى بلغت منزل صديقى صاحب الحانة ، ومنه علمت ان اخى وصل فى الليلة السابقة ، وانه ذبح غيلة على باب الدار التى جاء يلتمس ضيافتها !

***

وبذلت كل ما فى وسعى كى أعرف القتلة ، لكن أحدا لم يجرؤ على مكاشفتى بأسمائهم ، لفرط الذعر الذى اشاعوه فى المدينة .. فلم أجد مفرا من ان ألجا إلى وكيل النائب

العام ، مسيو « دى فيللفور » .. وقد تلقانى يومها قائلا :

— لكل ثورة فواجعها ، وقد كان اخوك واحدا من ضحاياها .. إنه سوء حظ ، والحكومة ليست مدينة لأسرته بشيء .. إن ما حدث امر طبيعى ، يتفق مع قانون الأخذ بالثار .. فاذهب الآن فورا وإلا امرت بطردك !

نظرت إليه لأرى هل هناك جدوى او امل يرجى من متابعة التوسل إليه ، لكنه كان رجلا ذا قلب حجرى ، فدنوت منه ، وقلت بصوت خافت :

— حسنا ! .. إذن دعنى اخبرك بشيء واحد : إنى سوف اقتلك ، وإننى منذ هذه اللحظة اعلن الثار ضدك ، فحاول حماية نفسك بكل وسيلة .. فحين نلتقى فى المرة القادمة تكون ساعتك قد حانت !..

وقبل ان يفيق الرجل من ذهوله فتحت الباب وغادرت الحجرة !

ولبثت بعد ذلك ثلاثة أشهر وانا اراقب مسيو «دى فيلفور» عن كثب حتى اكتشفت انه يذهب خلسة إلى (اوتوى) . فتبعته حتى رايته يدخل هذا البيت الذى نحن فيه الآن !.. وفى ذات مساء ، بينما انا متربص له وراء هذا السور رأيت امرأة حسناء فى نحو التاسعة عشرة من عمرها تتمشى فى الحديقة وحدها ، وقد ارتدت ثوبا فضفاضا من الموسلين يشى بأنها تنتظر مولودا فى القريب .. وادركت انها تنتظر قدوم

« دى فيلفور » وبعد لحظات فتح الباب الصغير ودخل منه رجل تلقته المراة معانقة فى لهفة ، ثم ابتعدا نحو نهاية الحديقة .. ولم يكن الرجل سوى مسيو « دى فيلفور » .

وعمدت بعد ذلك إلى استئجار غرفة تطل على الشارع الذى يقع فيه باب الحديقة .. وبعد ثلاثة ايام ، حوالى الساعة السابعة مساء ، رأيت « دى فيلفور » مقبلا وقد تدثر بعباءة ، ثم فتح الباب الصغير المفضى إلى الحديقة ودخل منه ثم اغلقه وراءه .. فهبطت من غرفتى اعدو إلى حيث اختبأت فى أجمة مشرفة على الممر الذى لا بد ان يجتازه غريمى عند انصرافه .. ولم البث قليلا حتى سمعت تأوهات وصيحات مكتومة ، وحين دقت الساعة معلنة انتصاف الليل . فتح باب الحديقة الصغير وخرج منه « دى فيللفور » ، ثم اقترب من الأجمة التى كمنت وراءها ، وحين اطمأن إلى ان احدا لا يراه انحنى على الأرض فوضع صندوقا صغيرا كان يخفيه فى عباءته ، ثم بدا يحفر حفرة تتسع له .. وحين اتمها وبدا يسوى الأرض كما كانت ، انقضضت انا عليه واغمدت سكينى فى صدره وانا اهمس له : « انا جيوفانى برتوشيو !» .. اقتلك اخذا بثار اخى ، وآخذ كنزك لأرملته » .. وهكذا ترى ان انتقامى جاء اوفى مما كنت أؤمل ! .. ولست ادرى إذا كان قد سمع ووعى هذه الكلمات أم لا ، فقد سقط دون ان يطلق صرخة واحدة ، وبعد لحظة كنت قد اخرجت الصندوق من مخبئه ثم هرعت إلى ضفة النهر حيث فتحته بسكينى عنوة . فإذا فى داخله طفل حديث العهد بالولادة ،

مدثر بثوب من التيل الفاخرة ، يطلق صيحات ضعيفة واهنة ! .. وكنت أعلم أن فى باريس ملجأ لأمثال هذا اللقيط ، فمزقت ثوب الطفل — وكان يحمل حرفين يرمزان لاسم ما — إلى قسمين ، كل قسم يحمل حرفا منهما ، وتركت أحد القسمين حول جسم الطفل وأخذت القسم الثانى معى .. ثم ضغطت جرس باب الملجأ وأسرعت بالفرار .. وحين وصلت فى اليوم التالى إلى (رجليانو) حيث تقطن أرملة أخى « أسانتا » قلت لها : « اطمئنى يا أختاه ، فلقد انتقمت لأخى » .. ثم سردت عليها تفصيلات القصة ، فلما انتهيت منها قالت لى « كان ينبغى أن تحضر معك ذلك الطفل ، كى نكون له بدلا من والديه اللذين حرم منهما ، ونطلق عليه اسم « ابنديتو » ولعل الله كان يباركنا لهذا ، فأعطيتها نصف ثوب الطفل ، كى تسترده إذا صرنا فى حال من اليسر تسمح لنا بتربيته ! » .

وهنا قاطعه الكونت « دى مونت كريستو » قائلا :

— ما هما الحرفان اللذان كانا على الثوب ؟

— هما حرفا الهاء ، والنون ، تعلوهما شارة لقب البارون !.. وعلى أثر ذلك عدت إلى تجارة التهريب ، مدفوعا بدافعين ، الإنفاق على الأرملة المسكينة ، وإغراق ذكريات الماضى التى تطاردنى !.. وحين راجت أحوالنا يوما من إحدى مغامراتى ، عدت لأجد الأرملة قد استردت الطفل ، وكان قد بلغ الشهر السابع أو الثامن من عمره !

وكان « بنديتو » طفلا جميلا ، ذا عينين واسعتين زرقاوين وشعر ذهبى خفيف ، وابتسامة تنم عن شىء من الخبث

والدهاء .. وحين كبر صدقت فراستى فى خلقه ، وطبيعته الشريرة . فلم يبلغ الحادية عشرة حتى صار يعاشر الفتيان الأغرار الذين فى الثامنة عشرة أو العشرين . والذين اشتهروا فى (كورسيكا) بشرورهم وفساد خلقهم . حتى لقد صاروا مطاردين من البوليس ! « واستجابة لنصيحتى أبت الأرملة المسكينة أن تذعن لمطالب « بنديتو » الذى كان يرهقها بطلب النقود كل حين لإشباع ميوله الشريرة .. وذات ليلة أحضر معه إلى البيت اثنين من رفاقه الأنذال وهددوا المرأة بالتعذيب إذا لم تسلمهم ما تملك من نقود ، فلما رفضت ساقوها إلى قرب الموقد كى يجبروها على الاعتراف بمكان النقود .. وخلال الصراع امتدت النار إلى ثوبها فاضطروا إلى تركها خوفا على أنفسهم من الاحتراق ..

« وفى الصباح التالى استبطأت جارتها ، زوجة « فاسيليو » ظهورها خارج غرفتها ، فاستنجدت بالسلطات التى حطمت الباب .. ووجدت « أسانتا » التعسة مازالت على قيد الحياة ، برغم الحروق الفظيعة التى أصابتها .. فروت لهم قبل موتها حقيقة ما حدث ، ووجدت أدراج البيت كلها محطمة ، ومحتوياتها مبعثرة ، والنقود كلها مسروقة !

ومنذ ذلك اليوم لم يظهر « بنديتو » مرة أخرى فى (رجليانو) .. ولا سمعت أنا بدورى شيئا عن مصيره أو أحواله ! »

وهنا أخفى « برتوشيو » وجهه بين يديه فى حين رمقه الكونت بنظرة غامضة !

ـ ١١ ـ

جوادان أصيلان

فى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالى لوصول الكونت « دى مونت كريستو » إلى باريس ، وقفت بباب منزله عربة فاخرة يجرها جوادان إنجليزيان مطهمان ، واطل منها شخص يرتدى سترة زرقاء ، وصدارا ابيض تتدلى من أحد جيوبه سلسلة ذهبية ثمينة ، وبنطلونا بنى اللون .. وكان شعره الأسود يتدلى على جبهته حتى كاد يصل إلى حاجبيه .. وكان الرجل فى حوالى الخمسين من عمره وإن حرص هو على أن يبدو فى الأربعين !.. وانحنى الرجل على حاجز العربة الذى رسمت عليه شارة البارونية ، ثم طلب من تابعه أن يسأل : هل الكونت « دى مونت كريستو » فى الداخل أم لا .. فقيل للتابع : « إن صاحب الفخامة لا يستقبل زوارا اليوم ! » . وعندئذ قال هذا لمحدثه : « إذن إليك بطاقة سيدى البارون « دانجلر » فلتحملها إلى الكونت وتخبره أن سيدى برغم عجلته لحضور اجتماع المجلس ابى إلا أن يعرج فى طريقه لزيارة الكونت ! » .

وعندئذ اضطجع البارون « دانجلر » فى عربته إلى الخلف وقال لحوذيه بصوت يمكن سماعه من الشارع : « إلى مجلس النواب » .

أما الكونت ـ الذى علم بالزيارة فى حينها ـ فقد راح من

وراء خصاص نافذته يرقب البارون بدقة بوساطة منظار مكبر .. ثم دعا إليه وكيله « برتوشيو » وابتدره ، قائلا :

ـ إنك ولا شك قد رأيت الجياد التى وقفت أمام الباب بضع دقائق .. فهل لك أن توضح لى كيف غاب عنك هذان الجوادان اللذان هما فى روعة جيادى ، حين أوصيتك أن تبتاع لى أحسن جياد باريس ؟

فاجاب « برتوشيو » :

ـ أؤكد لفخامتك أن الجوادين اللذين تتحدث عنهما لم يكونا معروضين للبيع حين اشتريت لك جيادك !

فهز الكونت « دى مونت كريستو » كتفيه ، وقال :

ـ حسنا !.. إذن فلنعرض على البارون « دانجلر » ضعف ثمنهما ، فإن الرجل المالى لا يضيع أبدا فرصة مضاعفة رأس ماله !

وما كادت عقارب الساعة تشير إلى الساعة الخامسة حتى دق الكونت الجرس ثلاث مرات ، ثم هبط السلم إلى باب قصره ، فراى عربته وقد أسرج إليها الجوادان بعينهما اللذان ابدى إعجابه بهما منذ ساعات وهما يجران عربة البارون « دانجلر » !

وقال الكونت لحوذيه :

ـ إلى دار البارون « دانجلر » ، شارع (لاشوسيه دانتان) .



وقال البارون وهو ينحنى ترحيبا بزائره :

— اسمح لى ان اخبرك يا كونت بانى قد تلقيت خطاب نصح من بنك (تومسون وفرنش) فى روما .. لكنى اعترف بأنى لم أفهم مدلوله بالضبط ، فهو يعطى الكونت « دى مونت كريستو » حسابا جاريا غير محدد على مؤسستنا !

فسأله الكونت فى هدوء :

— ماذا يتعذر عليك فهمه فى ذلك ؟

فأجاب « دانجلر » بابتسامة شبه ساخرة :

— إن بنك « تومسون وفرنش » مقتدر ماليا ، فى حين ان (حساب غير محدد) تدل فى الأمور المالية على معنى غامض !

— اتعنى أن « تومسون وفرنش » لا يجعلان حدودا لالتزاماتهما ، بينما التزامات مسيو « دانجلر » لها حدودها؟!

فقال المالى الكبير وهو ينفخ أوداجه زهوا :

— سيدى ، إن حدود مواردى لم تكن يوما موضع شك او تساؤل :

فقال الكونت فى برود :

— يبدو لى انى أول من سيضعها هذا الموضع !

وعندئذ القى « دانجلر » بنفسه فى مقعده إلى الوراء ، وقال بلهجة الغرور والاعتداد بالثراء :

— أرجو منك الا تتردد فى الإعراب عن رغباتك .. فعندئذ ستقتنع أن موارد بنك « دانجلر » — مهما تكن محدودة —

ما تزال قديرة على ان تواجه اجسم المطالب .. ولو أردت مليون فرنك !

فقال الكونت فى هدوء :

— ما اظننى يا سيدى استطيع أن اكتفى بمليون فرنك ! ولو أن مبلغا تافها كهذا يكفينى لما كلفت نفسى عناء فتح حساب جار !

ثم أخرج الكونت حافظته وسحب منها شيكين على الخزانة قيمة كل منهما نصف مليون فرنك ، يدفعان لحاملهما .. ففغر « دانجلر » فاه ولم يحر جوابا ، فى حين استطرد الكونت :

— كن صريحا إذن واعترف بأنك لا تولى مؤسسة « تومسون وفرنش » ثقتك الكاملة ، وإنى قد افهم هذا .. واحتياطا لمثل هذا الاحتمال رايت — برغم جهلى بالأمور المالية — ان اتخذ بعض الضمانات .. فهذان مثلا خطابان مشابهان تماما لذلك الذى تلقيته ، احدهما من بنك «ارشتاين واسكيلس» فى فينا ، إلى البارون « روتشيلد » .. والآخر من بنك (بارنج) فى لندن إلى مسيو « لافاييت » .. والآن ما عليك يا سيدى إلا ان تنطق بكلمة فاجنبك كل مشقة وحرج بتقديم خطاب ضمان إلى إحدى هاتين المؤسستين ..!

ونهض « دانجلر » بعد ان استوثق من صحة الوثائق التى يحملها الكونت ، وانحنى أمام الكونت كانما يحيى قوة الذهب المتمثلة فى شخصه .

فقال الكونت بلهجة ودية لطيفة :

ــ على كل حال أعتقد أن مؤسستك لا يمكن أن يثقل عليها مثل هذه المبالغ التافهة .. وإذن ففى وسعك أن تعطينى بعض المال ، أليس كذلك ؟.. ويمكننا أن نحدد مبلغا يكفى النفقات التقريبية للعام الأول .. وليكن مثلا ستة ملايين من الفرنكات !

فقال « دانجلر » وهو يشهق فزعا :

ــ ستة ملايين ؟!

واستطرد الكونت فقال فى لهجة تدل على عدم المبالاة :

ــ إذا أحوجنى الأمر إلى أكثر من هذا المبلغ ففى وسعى ان اسحب شيكات عليك .. لكن نيتى حاليا تنصرف إلى عدم البقاء فى فرنسا أكثر من عام .. وارجو أن تتكرم فترسل إلى غدا صباحا نصف مليون فرنك ، وسوف أكون فى دارى حتى الظهر .. وفى حالة خروجى ساترك إيصالا بالمبلغ مع وكيلى !

فقال « دانجلر » :

ــ سيكون المبلغ الذى تطلبه عند وكيلك فى الساعة العاشرة من صباح غد يا عزيزى الكونت .. والآن هل تسمح لى بأن اقدمك للبارونة « دانجلر » زوجتى ؟ اغفر لى لهفتى يا عزيزى الكونت ، فإن عميلا مثلك هو فى مركز فرد من أفراد الأسرة !

فأومأ الكونت موافقا ، ثم مشى خلف البارون عبر عدد من الحجرات والأجنحة المفروشة بأفخر الأثاث الذى يوحى بالثراء الفاحش .. حتى بلغا مخدع البارونة ، وكانت هذه ما تزال تحتفظ بجمالها الصارخ ، برغم تجاوزها ريعان الشباب ، وقد جلست إلى البيانو ، فى حين وقف « لوسيان دوبراى » أمام منضدة صغيرة يقلب صفحات « البوم » صور .

فقال البارون لزوجته :

ــ اسمحى لى بأن اقدم لك الكونت «دى مونت كريستو» ، لقد اوصانى به توصية حارة وكلائى فى (روما) جميعا . وساكتفى بذكر حقيقة واحدة من شانها أن تجعل نساء باريس بلا استثناء ينشدن التفاته .. وهذه الحقيقة هى أنه قد جاء ليقضى فى باريس عاما ، وسينفق خلاله ستة ملايين من الفرنكات ، وهذا يعنى سلسلة من الحفلات والمراقص والمآدب لا نهاية لها ، وارجو الا ينسانا الكونت فيها ، كما نعتزم نحن ان نذكره فى حفلاتنا المتواضعة !

فقالت البارونة تخاطب الكونت :

ــ لقد تخيرت لزيارتك لباريس أسوأ وقت ، فهى فى الصيف لا تطاق .. والملاهى التى بقيت لنا فيها تنحصر فى حفلات السباق .. فى حلبتى (شون دى مارس) و (شاتورى) .. فهل تعتزم إشراك بعض جيادك فى السباق ياكونت ؟

ــ سأفعل ما يفعله غيرى فى باريس يا سيدتى ، إذا لسعدنى الحظ فوجدت من يرشدنى إلى ضروب اللهو المختلفة !

وفى هذه اللحظة دخلت المخدع وصيفة البارونة المفضلة ، واقتربت من سيدتها وهمست فى اذنها ببضع عبارات ، شحب على أثرها وجه البارونة ، فاستدارت نحو زوجها متسائلة فى لهفة :

ـ أهذا صحيح ؟.. إن وصيفتى أبلغتنى أن سائق عربتى فوجىء وهو يهم بإعدادها الآن بان جواديها أبدلا بدون علمه .. فكيف كان ذلك ؟!

فأجابها زوجها :

ـ كونى لطيفة يا سيدتى واصغى إلى :

لكنها انفجرت فيه صائحة :

ـ أوه نعم ، سوف أصغى إليك يا سيدى ، فإنى لفى فضول شديد إلى سماع الإيضاح الذى ستتكرم به على .. إن بين الجياد العشرة التى تحتويها حظائرك جوادين يخصانى ، وهما من أحسن الجياد الموجودة فى باريس كلها .. وقد وعدت مدام « دى فيلفور » بان أعيرها عربتى كى تتنزه بها غدا فى غابة بولونيا ، فلما ذهب الحوذى ليعد العربة اكتشف الأمر .. ولا شك انك ضحيت بالجوادين بغية الحصول على بضعة آلاف أخرى من الفرنكات الحقيرة . أوه ، يا لها من فئة بغيضة ، فئة هؤلاء المضاربين المحترفين !

فقال لها «دانجلر» :

ـ سيدتى . إن الجوادين لم يكونا بالهدوء الذى يناسبك واقسم بشرفى أمام الكونت أننى لو لم اتصرف فيهما منذ ساعات

لسرنى أن أهديهما إليه .. فهما لا يصلحان إلا لشاب فى مقتبل العمر ، وقد كنت متلهفا إلى الخلاص منهما !

فقال الكونت :

ـ شكرا لك يا عزيزى البارون ، لكنى فى الواقع قد ابتعت لعربتى اليوم جوادين رائعين بثمن لا أذكر أنه كبير .. فهل للمسيو « دبراى » أن يصارحنى برأيه فيهما ، إنه خبير فى مثل هذه الأمور كما سمعت !

وهنا اقترب « دبراى » من النافذة ليطل منها على الجوادين ، فى حين اقترب « دانجلر » من زوجته وهمس لها :

ـ لم استطع أن أصارحك أمام هؤلاء السادة بسبب تصرفى فى الجوادين . لقد أرسل شخص مجنون او احمق وكيله ليشتريهما بأى ثمن .. فربحت فيهما ستة عشر الف فرنك!.. لا تغضبى فسوف اعطيك ربع هذا الربح تفعلين به ما تشائين، كما إنى ساعطى « أوجينى » الفى فرنك .. ألم أكن محقا بعد هذا فى بيع الجوادين ؟

وحدجت البارونة زوجها بنظرة احتقار بالغة .. فى حين صاح « دبراى » فجاة :

ـ يا إلهى !.. لا يمكن ان اكون مخطئا . إن الجوادين اللذين تتحدث عنهما ، مسرجان إلى عربة الكونت !

فهتفت البارونة وهى تهرع نحو النافذة :

ـ أتعنى جوادى العزيزين ؟

ثم أردفت بعد أن رأتهما :

— حقا إنهما جواداى !

فصاح الكونت متكلفا الدهشة بدوره :

— عجبا !.. يا للمصادفة !

وشرد البارون وهو يهيىء نفسه للمشادة المقبلة بينه وبين زوجته ، التى نم حاجباها عن اقتراب العاصفة .. وإذ ذاك تذكر فجأة أنه مرتبط بموعد سابق !.. كما انحنى الكونت « دى مونت كريستو » مستأذنا فى الانصراف ، وخرج تاركا « دانجلر » يواجه تأنيب زوجته .. !

وبعد ساعتين تلقت البارونة رسالة رقيقة من الكونت يرجو منها أن تقبل جواديها العزيزين هدية منه ، قائلا :

— لست استطيع ان اتحمل فكرة اندماجى فى المجتمع البارىسى الرفيع إذا اشتريت ابهة موكبى بدموع سيدة حسناء!

* * *

.. وفى اليوم التالى ، حوالى الساعة الثالثة ، استدعى الكونت خادمه النوبى « على » بدقة واحدة للجرس ، فلما مثل فى حضرته ، ابتدره بقوله :

— لقد طالما حدثتنى عن براعتك الخارقة فى رمى الأنشوطة. وبعد قليل سوف تمر أمام البيت بأقصى سرعة عربة يجرها الجوادان اللذان رايتهما فى عربتى أمس .. والآن اريد منك ان توقف هذين الجوادين امام بابى ولو كلفك ذلك تعريض حياتك ذاتها للخطر !

— فهبط « على » إلى الطريق ، ورسم خطا مستقيما على الرصيف عند مدخل البيت تماما، ثم أشار عليه الكونت، فعاد هذا إلى الطابق الثانى من المنزل واثقا من نجاح خطته !

وحين اقتربت الساعة الخامسة سمع صوت عجلات عربة تقترب مسرعة ، ثم ظهرت العربة على الفور يجرها جوادان جامحان حاول الحوذى المذعور أن يحد من سرعتهما المخيفة ، ولكن دون جدوى !.. وكانت فى داخل العربة امرأة حسناء وطفل فى السابعة او الثامنة ، وقد تعانقا بقوة وأعجزهما الرعب حتى عن إطلاق اية صرخة !..

وفجأة أخرج « على » الأنشوطة من جيبه ، وألقاها بحيث اقتنصت الساقين الأماميتين للجواد القريب ، ثم جذبه وراءه فى عنف بالغ عدة خطوات قبل ان يسقط الجواد على « العريش » فيقصمه ، وبذلك يعوق الجواد الآخر عن متابعة عدوه !

وانتهز الحوذى هذه الفرصة الفريدة فقفز من فوق مقعده لينجو بنفسه ، على حين أمسك « على » بخياشيم الجواد الثانى وضغطها بقبضته الحديدية حتى خر الجواد بجانب زميله وهو يتلوى من الألم !.. وقد حدث ذلك كله فى ثوان معدودات ، لكنها كانت كافية لأن يخرج أصحاب الدور القريبة وخدمهم ليروا ما هناك ، وسرعان ما فتح الحوذى باب العربة وأخرج راكبتها التى كانت إحدى يديها متقلصة على الوسائد فى حين أن يدها الأخرى تضم إلى صدرها ولدها الذى فقد رشده !

وتقدم الكونت « دى مونت كريستو » فحمل المرأة وابنها إلى صالونه حيث ارقدها فوق إحدى الأرائك المريحة ، وهو يقول :

— استريحى يا سيدتى ، فقد زال كل خطر !

فرفعت المرأة عينيها لدى سماعها هذه الكلمات ورمقته بنظرة ابلغ تعبيرا من اى رجاء ، وهى تشير إلى ابنها الذى ما زال غائبا عن الوعى !

فقال الكونت وهو يفحص الصبى بعناية :

— إنى اقدر سبب انزعاجك يا سيدتى ، لكنى أؤكد لك ان ليس ثمة داع للقلق ، فما إغماؤه إلا نتيجة طبيعية للرعب ، وسوف يفيق بعد قليل !

فسألته : « هل انت واثق من انك لا تقول ذلك كى تسكن روعى وتهدىء مخاوفى ؟! » .

ثم انحنت على ولدها وهتفت به :

— يا حبيبى « إدوار » تكلم .. تحدث إلى أمك ، افتح عينيك الغاليتين وانظر إلى مرة أخرى !

وعادت فالتفتت إلى الكونت وقالت :

— سيدى .. ارجو ان ترسل فى طلب طبيب .. إنى لأبذل كل ثروتى فى سبيل إنقاذ حياة ولدى !

فاجابها الكونت بابتسامة هادئة وحركة لطيفة من يده ، ثم أشار عليها بأن تنحى مخاوفها جانبا .. وفتح صندوقا صغيرا

كان على قيد خطوة منه ، واخرج منه قنينة صغيرة من الزجاج المغلف بالذهب تحوى سائلا احمر فى لون الدم ، وسكب قطرة واحدة منه على شفتى الصبى الذى كان جامدا كالتمثال ، فسرعان ما فتح عينيه ونظر محملقا فيما حوله .. فكادت الأم تجن فرحا ، وقالت تلوم نفسها وقد هدأت مخاوفها !

— إن فضولى التعس هو المسئول عن ذلك كله .. لقد سمعت باريس باسرها تطنب فى امتداح جمال جوادى البارونة « دانجلر » فخطر لى ان أرى بنفسى هل يستحقان كل ذلك الإطراء .. هل سيدى يعرف البارونة « دانجلر » ؟

فقال الكونت :

— نعم يا سيدتى ، وإن مما يزيد فى سعادتى بنجاتك من الخطر الذى كان يتهددك انى كنت بلا قصد منى سبب هذا الخطر الذى تعرضت له ، فقد ابتعت أمس هذين الجوادين من البارون ، ولكنى حين تبينت مبلغ أسف البارونة عليهما ، اعدتهما إليها راجيا ان تتكرم بقبولهما هدية منى !

فقالت له : إذن فانت الكونت « دى مونت كريستو » ، الذى حدثتنى عنه « هرمين » كثيرا ؟ »

فقال : « لقد صدقت فراستك يا سيدتى ! » .

فقالت : وانا مدام «هيلويز دى فيلفور» .. سيكون زوجى شاكرا لك حين يقف على نبأ إنقاذك لزوجته وابنه !.. إنه سيظل مدينا لك بحياتنا ، فلولا شهامة خادمك الباسل لكان كل منا الآن فى عداد الأموات ! » .

وكان « فيلفور » قد شفى من إصابته بسكين « برتوشيو » الذى ظن أنه قتله !.. وفى تلك الليلة سهرت باريس بأسرها تتحدث عن هذه المغامرة ، فقد رواها « البرت » لأمه ، وقص « شاتو رينو » نبأها فى نادى الجوكى ، وسرد « دبراى » تفصيلاتها الكاملة فى صالون الوزير .. كما خصص «بوشان» عشرين سطرا من صحيفته للإشادة بشجاعة الكونت وشهامته، واعتباره بطل الساعة فى أنظار نساء الطبقة الأرستقراطية فى باريس !!

- ١٢ -

المنقذ المجهول

استقل الكونت « دى مونت كريستو » عربته فى اليوم التالى إلى بيت جميل يقع فى شارع ميلاى ، رقم ٧ ، حيث دعى إلى زيارة « مكسمليان موريل » ابن ولى نعمته القديم صاحب السفينة (فرعون) ..

ولم يكد يدخل البيت حتى مد الضابط الشاب يده يصافح بها الكونت فى حرارة ، قائلا :

ــ هيا بنا .. سأكون لك بمثابة الدليل .. إن أختى فى الحديقة تقطع الورود الذابلة ، وزوجها يقرأ الصحف على بعد ست خطوات منها ، فحيثما تكون مدام « هربول » يوجد مسيو « إيمانويل » دائما ، داخل دائرة لا يزيد قطرها عن أربعة أمتار !

ولما دخلا الحديقة رأى الكونت هناك شابة فى نحو العشرين أو الخامسة والعشرين من عمرها ، ترتدى ثوبا حريريا من ثياب الصباح، وما سمعت وقع خطاهما حتى رفعت رأسها عن ورودها متطلعة إلى القادمين ، وكانت هى «جولى» التى أضحت تدعى بعد زواجها « مدام إيمانويل هربول » .. وقالت للضيف الكبير :

ــ آه يا سيدى !.. إنها لخيانة من أخى أن يحضرك على هذا النحو ، بلا إخطار سابق .. لكنه لم يقم يوما أى حساب

لأخته المسكينة . ارجو ان تسمح لى بأن اتركك لبضع دقائق !

وقبل أن تنتظر جوابا اختفت وراء اجمة من الأشجار ، ثم اسرعت إلى البيت عن طريق ممر جانبى .: على حين قال « مونت كريستو » لأخيها :

— إننى لشديد الأسف إذ ارى انى اسبب لأفراد المنزل انزعاجا كبيرا !

فقال « مكسمليان » ضاحكا :

— انظر هناك ، هذا زوجها يبدل سترته باخرى . أؤكد لك انك معروف جيدا فى شارع ميلاى !

فقال الكونت ، كأنما يحدث نفسه :

— يبدو ان اسرتك من الأسر السعيدة !

فقال الضابط :

— بلا شك ، إذ لا ينقصها شىء من مقومات السعادة ، فأفرادها يستمتعون بالشباب والمرح ، وكل منهم شديد التعلق بالآخر ، وبفضل إيرادهم البالغ خمسة وعشرين الف فرنك فى السنة يحسون انهم فى غنى « روتشيلد ! »

فقال الكونت « دى مونت كريستو » بلهجة عذبة رقيقة وقعت من سمع « مكسمليان » موقع صوت الأب البار :

— مع ذلك فإن المبلغ ليس كبيرا ، وهم لن يقنعوا به .. هل زوج اختك محام ، او طبيب ؟

— كان تاجرا ، وقد خلف ابى المسكين فى تجارته .. ذلك ان مسيو موريل عند وفاته ترك نصف مليون فرنك ، قسمت

بالتساوى بين اختى وبينى ، فقد كنا ولديه الوحيدين ، أما زوج اختى — الذى لم يكن يملك عند زواجه منها غير ميراثه النبيل من نزاهة اليد وكفاءة الذهن والسمعة النظيفة — فقد أراد أن يكون له مال لا يقل عن إرث زوجته ، فراح يكد ويجتهد حتى جمع فى خلال ست سنوات ربع مليون فرنك ، بمعاونة زوجته التى شاركته كفاحه وتعبه . وقد ضجت مارسيليا باسرها بالثناء على جهادهما المشترك .. واخيرا جاء « إمانويل » ذات يوم يقول لزوجته وقد فرغت من مراجعة الحسابات :

— لقد سلمنى الوكيل منذ برهة المائة فرنك الأخيرة التى يكتمل لنا بها مبلغ الربع مليون فرنك الذى حددناه ثروة لنا ! فهل تتمتعين بهذه الثروة الصغيرة التى ستكون عمادنا للمستقبل ؟ اصغى إلى ، إن مؤسستنا تتداول اعمالا تبلغ المليون فرنك سنويا ، يصيبنا منها دخل قدره اربعون الفا .. وفى استطاعتنا — إذا اردنا — ان نبيع تجارتنا فى اية ساعة .. فقد تلقيت خطابا من مسيو « ديلوناى » يعرض فيه أن يشتريها بثلاثمائة الف فرنك . فماذا ترين ؟

فأجابت اختى مؤكدة له ان (مؤسسة موريل) لا ينبغى ان يتولاها غير فرد من (اسرة موريل) .. وان ثلاثمائة الف فرنك لا تساوى احتفاظها باسم أبيها ، وحمايته من شرور الثروة الحرام او الإفلاس .

فقال لها « إمانويل » : (هذا ما رايته ، لكنى اردت ان اعرف رايك أنت .. على انى اقترح أن نصفى مؤسستنا ونكتفى بالإيراد الذى يجلبه لنا راس المال)

وقد اتفقا على هذا ، وكانت الساعة وقتئذ الثالثة ، وبعد ربع ساعة دخل تاجر ليؤمن على سفينتين له لدى المؤسسة ، الأمر الذى كان يدر عليهما ربحا قدره خمسة عشر الف فرنك ، فقال له « إمانويل » : « لقد اغلقنا مكاتبنا وصفينا اعمالنا منذ ربع ساعة فقط ! » .

« ومنذ ذلك التاريخ قنعت اختى وزوجها بإيرادهما البالغ خمسة وعشرين الف فرنك فى السنة ! » .

ولم يكد « مكسمليان موريل » يفرغ من قصته ، التى أرهفت مشاعر الكونت « دى مونت كريستو » من فرط ما نمت عن نبل وقناعة ، حتى اقبلت « جولى وإمانويل » ، فقال الكونت يخاطب الزوجة :

ـ اغفرى لى الانفعال الذى يبدو على يا سيدتى ، وقد يدهشك هذا ، انت التى الفت السعادة التى ترفرف على هذا البيت ، لكن منظر البشر والقناعة على محيا إنسان لا شك انه منظر جديد بالنسبة إلى ، بحيث لن امل النظر إليه ، على وجهك ووجه زوجك !

فاجابت « جولى » : « نحن سعداء حقا يا سيدى ، لكننا عرفنا ايضا التعاسة فترة من الزمن ، بل قل بين الناس من ذاقوا مثل الآلام المريرة التى ذقناها ! » .

وهنا بدت على وجه الكونت علائم الفضول ، فى حين اردف « مكسمليان » :

« إن هذا يفضى بنا إلى صورة متواضعة من تاريخ الأسرة قد لا تعنيك كثيرا ، أنت الذى الفت الا ترى غير مباهج الأثرياء والبارزين وحدهم .. لكن الواقع اننا قاسينا الكثير من الأحزان المرة ! » .

فقال الكونت « دى مونت كريستو » فى لهجة تساؤل : « عسى ان يكون الله قد انهى احزانكم بفضله ورحمته كما يصنع لجميع المعذبين الصابرين ! » .

فأجابت « جولى » : « نعم يا سيدى الكونت ، ليس يسعنا إلا ان نعترف بذلك ، فلقد صنع الله من اجلنا ما لا يصنعه إلا لخاصته المختارين ، فأرسل إلينا احد ملائكة الرحمة لإنقاذنا مما كنا نعانيه ! » .

وهنا تورد خدا الكونت فصارا فى لون القرمز ، ثم سعل كى يجد مبررا لوضع منديله على فمه .. على حين أردف « إمانويل » قائلا :

ـ ان أولئك الذين يولدون فى الثراء ويملكون وسائل إشباع جميع رغباتهم لايعرفون كيف تكون السعادة الحقيقية فى الحياة ، أما الذين عاشوا وسط امواج الحياة واعاصيرها فهؤلاء وحدهم يقدرون قيمة الجو الذى يسوده الصفاء والهدوء !

ونهض الكونت دون أن يجيب بكلمة ، خشية أن يفضح صوته مدى انفعاله ، ثم راح يذرع الحجرة ذاهبا آيبا فى خطوات بطيئة ، فقال له « مكسمليان » وهو يتبعه بعينيه :

ـ إن اقوالنا تدهشك ، اليس كذلك ؟

فوضع الكونت إحدى يديه على قلبه ، ليهدىء من ثائرته ، واشار باليد الاخرى إلى غطاء من البلور تحته كيس من الحرير موضوع فوق وسادة من القطيفة السوداء ، وقال :

— كلا يا سيدى !.. وإنما كنت اتامل هذا الكيس الذى يحوى ورقة فى احد طرفيه ، وماسة كبيرة فى طرفه الآخر :

فقال مكسمليان وقد ارتسمت على وجهه علائم الجد :

— سيدى الكونت .. هذه هى اثمن كنوزنا العائلية !

فقال الكونت : « حقا ؟.. إن هذه الماسة تبدو ثمينة جدا .. ! » .

وهنا تدخلت « جولى » فى الحديث قائلة : « إن اخى لا يعنى قيمة هذه الماسة — برغم انها قدرت بمائة الف ريال ولكنه يعنى أن الأشياء التى يحتويها هذا الكيس هى تذكار «الملاك» الذى حدثتك عنه الآن ! » .

فقال الكونت وهو ينحنى لها : « عفوا يا سيدتى .. إننى لا افهم شيئا من هذا ، ولست اطلب الوقوف على خفايا أمره، فليس من عادتى ان اتطفل على اسرار عائلية لا تخصنى ! »

فقالت « جولى » متحمسة : « ليس هذا تطفلا يا سيدى .. كلا بل إنه ليسعدنا أن تعطينا الفرصة كى نفيض فى هذا الموضوع، ولو كنا نبغى إخفاء الصنيع النبيل الذى يرمز إليه هذا الكيس لما عرضناه للعيان هكذا ! اوه !.. ليتنا نستطيع أن نروى القصة لكل إنسان وفى كل مكان ، لعل هذا يوصلنا إلى معرفة ذلك المحسن المجهول ! » .

فتساءل الكونت فى صوت اشبه بالمختنق : « حقا ؟ » .

وسارع « مكسمليان » إلى رفع الغطاء البلورى عن الكيس الحريرى ، ثم لثمه فى احترام وتوقير وقال للكونت : « سيدى .. إن هذا الكيس قد لمس يد الرجل الذى انقذ ابى من الانتحار ، وانقذنا نحن من الدمار ، بل انقذنا من العار والفضيحة !.. نعم إن ذلك الملاك الكريم الذى لا يبارى جعلنا ننجو من مصير كله فاقة وعوز ، ونصبح فى حال يحسدنا عليها الناس ويغبطوننا على سعادتنا !.. وإليك الخطاب الذى كتبه ذلك الملاك الكريم فى اليوم الذى انتهى فيه ابى إلى اتخاذ قرار الانتحار !.. اما هذه فهى الماسة التى وهبها المحسن المجهول لاختى لمناسبة زواجها ! » .

ونشر الكونت الخطاب وقراه فى غبطة ظاهرة . وكان الخطاب موجها إلى « جولى » ، وموقعا عليه باسم « السندباد البحرى ! » .

فتساءل الكونت :

— هل الرجل الذى أدى لكم هذه الخدمة مجهول لديكم تماما حتى الآن ؟

فأجاب « مكسمليان » :

— نعم يا سيدى ، إذ لم يسعدنا الحظ يوما بان نصافحه ، برغم اننا طالما التمسنا من السماء أن تمنحنا هذه المنة .. لكن الأمر كله قد اتخذ اتجاها غامضا عجزنا عن فهمه ، وقادته من بدايته إلى نهايته ، يد خفية — وإن تكن قوية — اشبه بان تكون يد ساحر !

فهتفت » جولى « :

ـــ إنى لم افقد الأمل بعد فى أن استطيع يوما تقبيـل تلك اليد ، كما اقبل الآن هذا الكيس الذى لمسته !.. وقــد كاد يتم لى ذلك ، فمنذ اربعة اعوام كان « بنيلون » البستانى الذى يعمل فى حديقة الدار ـــ وقد كان فيما مضى بحارا ـــ يجـول على رصيف ميناء (تريستا) حين رأى ثريا إنجليزيا يتأهب للإبحار فى يخته الخاص ، فعرف فيه الشخص الذى زار ابى فى الخامس من يونية سنة ١٨٢٩ ، والـــذى كتب لى هـــذا الخطاب فى الخامس من سبتمبر . وقد اســـتوثق « بنيلون » من شخصه لكنه لم يجرؤ على مخاطبته .. !

فقال الكونت « دى مونت كريستو » وقد اقلقته النظـــرة الفاحصة التى رمقته بها « جولى » : « إنجليزى ؟ .. اهو ثرى إنجليزى ؟ »

فأجاب « مكسمليان » : نعم ، إنجليـــزى تقدم إلى ابى باعتباره المندوب الخاص لبنك « تومسون وفرنش » فى روما . وهذا ما جعلنى اجفل حين سمعتك تذكـــر فى منزل مـــسيو « دى مورسيرف » ان البنك الذى تتعـــامل معه هو بنـــك « تومســـون وفرنش » .. فقل لى بربك : هل تعرف ذلك الثرى الإنجليزى ؟ » .

فقال الكونت وهو يتكلف الهدوء : « لكنك ذكرت لى ان بنك « تومسون وفرنش » أنكر جازما انه ادى لكم تلك الخدمة ؟ » .

فأومأ « مكسمليان » موافقا ، فى حين واصل الكونت كلامه فقال :

ـــ إذن .. الا يحتمل ان يكون ذلك الإنجليزى شخصا ادى له والدك صنيعا يوما ما ، نسيه بعد ذلك ، ففكر هو ان يرده له بهذه الطريقة الغامضة ؟

ـــ كل شىء جائز فى هذا الشأن !

ـــ وما اسم هذا الإنجليزى ؟

ـــ إننا لا نعرف له اسما غير اسم (السندباد البحرى) الذى وقع به على خطابه !

ـــ الم تكن له قامتى ، أو اطول قليلا ، وكان يرتدى رباط رقبة يصل إلى ذقنه ، وسترة ملتصقة بجسمه .. ومن عادته أن يخرج قلمه من جيبه كل حين ؟

فهتفت « جولى » وقد لمعت عيناها غبطة : « نعم .. نعم إنك إذن تعرفه يا سيدى .. وافرحتاه ! » .

فقال الكونت : « كلا !.. وإنما انا استنتج فقط . فقـد عرفت شخصا اسمه اللورد « ويلمور » اعتاد أن يقوم بتصرفات من هذا النوع ! » .

فسألته : « هل كان لا يفصح عن شخصيته أيضا ؟ » .

فأجاب : « إنه كان مخلوقا شاذا ، لا يؤمن بأن لعرفان الجميل وجودا ! » .

فهتفت متعجبة : « رباه !.. وبم كان يؤمن إذن ؟! » .

فأجاب الكونت وقد لمست شـــغاف قلبه لهجـــة « جولى » الفياضة بالامتنان : « إنه لم يكن يؤمن بذلك فى الفتـ[illegible]ـرة التى

عرفته فيها .. ولعله تبين بعد ذلك أن الاعتراف بالجميل ما زال موجودا على الأرض ! » .

فقالت له متوسلة ! « إذا كنت تعرف هذا الشخص ، فإنى ارجو ملحة فى الرجاء ان ترشدنا إلى مكانه .. آه لو عثرنا عليه !.. إذن لأقنعناه بوجود الاعتراف بالجميل ، والاعتراف الصادر من القلب ! » .

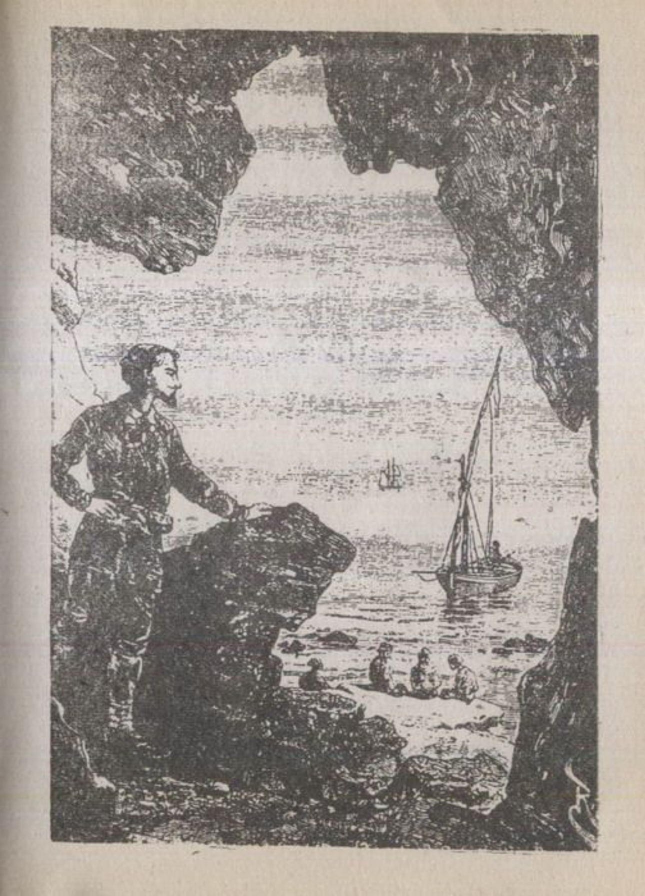
واحس الكونت أن الدموع تكاد تطفر من عينيه ، فنهض وراح يذرع الحجرة مرة اخرى بخطوات سريعة .. فى حين ناشده » مكسمليان ، قائلا : بحق السماء ، أذكر لنا ما تعرفه عن ذلك الشخص » .

فهتف الكونت « دى مونت كريستو » وهو يجاهد ليقمع انفعاله :

ــ إذا كان لورد « ويلمور » هو ولى نعمتكم المجهول فأخشى أنكم لن تروه ثانية ، لقد افترقت عنه منذ عامين فى (باليرمو) .. وكان يتأهب للإبحار إلى اقصى أطراف الأرض، بحيث أعتقد انه لن يعود مرة أخرى !

فقالت « جولى » وقد طافت الدموع بمآقيها : « تعنى انى لن اراه يا سيدى ؟.. هذه قسوة منك ! »

فأجابها الكونت فى لهجة جادة وهو ينظر بشغف إلى اللؤلؤتين المنحدرتين على خديها : « لو كان لورد « ويلمور » قد راى ما اراه الآن ، لأحب الحياة ، فإن الدموع التى تذرفينها كانت كفيلة بأن تعيد إليه حسن ظنه بالبشر ! » .. ثم مد



الكونت يده إلى « جولى » مصافحا ، فقالت وهى تضع يدها فى يده : « ولكن .. اليس للورد « ويلمور » أسرة أو أصدقاء نستطيع أن ... ؟ »

فقطع الكونت كلامها قائلا فى لطف :

ـ لا تتعبى نفسك فى الاستقصاء ، فلعله لا يكون الشخص الذى ادى لكم ذلك الصنيع .. لقد كان اللورد صديقى الحميم، ولم يكن يخفى على اى سر خاص به ، فلو انه كان صاحب ذلك الصنيع لأفضى إلى بما فعل !

وعندئذ خف « مكسمليان » إلى نجدة الكونت ، وقال لأخته :

ـ إن السيد على حق يا أختاه .. تذكرى ما طالما قاله لنا ابونا البار : « ليس الرجل الإنجليزى هو الذى انقذنا » .

وهنا سأله الكونت فى لهفة : « ماذا قال لك والدك مسيو « موريل ؟ »

فأجاب : « كان من رأى والدى ان ذلك الصنيع من قبيل المعجزات ، وأن صانعه قد بعث من القبر لينقذنا . أوه . إنها كانت خرافة مؤثرة يا سيدى ، وبرغم أننى شخصيا لم أصدقها فإنى لم أشأ ان أحطم إيمان ابى بها .. وكم من مرة حام حولها وذكر اسم الصديق العزيز الذى فقده للابد ، والذى عزا إليه ذلك الصنيع ، بل إنه حين حضرته الوفاة ، وأضاءت ساعة الاحتضار ذهنه بنور خارق للطبيعة ، تحولت عنده هذه الفكرة إلى يقين قاطع .. فكانت كلماته الأخيرة لى : « مكسمليان » .. إنه « إدمون دانتيس » الذى انقذنا ! » .

وهنا بلغ شحوب وجه الكونت درجة مزعجة ، فلم يقو على الكلام ، ونظر إلى ساعته كمن نسى موعدا هاما ، ثم نطق على عجل ببضع عبارات موجهة إلى مدام « هربول » وصافح كلا من « مكسمليان » و « إيمانويل » وهو يقول لهما : « سيدتى، إنى لأطمع فى أن تسمحى لى بزيارتكم بين حين وآخر ، فأنا اقدر صداقتكم واشكركم على حفاوتكم ، فهذه هى المرة الأولى التى أطلق فيها العنان لمشاعرى منذ سنوات ! » .

ثم غادر البيت مسرعا !

وقال « إيمانويل » على اثر خروج الكونت :

ـ إن الكونت « دى مونت كريستو » رجل غريب الأطوار!

فقال « مكسمليان » : « نعم .. لكنى أحس عن يقين ان له قلبا نبيلا ، وأنه يحبنا ! » .

وقالت « جولى » : « لقد تغلغل صوته إلى أعماقى ، وخيل إلى مرتين أو ثلاثا أننى سمعته من قبل ! » .

— ١٣ —

دروس فى السموم !

لم يبطىء الكونت « دى مونت كريستو » فى العودة إلى زيارة مدام « دى فيللفور » .. ولم يكد الخادم يعلن اسمه حتى عم الهرج والمرج انحاء البيت ، وطلبت مدام «دى فيللفور» — التى كانت فى الصالون وحدها وقتئذ أن تحضر المربية ولدها كى يجدد شكره وامتنانه للكونت ..

وكان الصبى — واسمه « إدوارد » — قد سمع اهله يتحدثون عن هذه الشخصية العظيمة طيلة اليومين السابقين، فبذل جهده كى يخف إليه سريعا ، لا طاعة لأمه أو تقديرا لفضل الكونت عليه ، بل بدافع الفضول المحض .. ورغبة فى ان يجد فى شخصه ما يصلح لأن يتخذه فيما بعد مادة لتعليقاته السليطة التى تطلق لسان أمه بلومه وتأنيبه من حين لآخر ، وإن كانت معجبة بذكائه !

وبعد تبادل التحيات المألوفة التفتت إلى ابنها « إدوارد » قائلة : ماذا تفعل اختك « فالنتين ؟ » .. دع احدا يبلغها انى اريدها لأتشرف بتقديمها للكونت » .

فسالها الكونت : « الك ابنة ايضا يا سيدتى ؟. لا بد انها صغيرة السن ؟ » .

فأجابته الزوجة الشابة : « إنها ابنة مسيو دى « فيللفور » من زوجته الأولى .. وهى فتاة رائعة » .

فقاطعها الصبى « إدوارد » وهو ينتزع بضع ريشات من ذيل ببغاء كانت تتصايح فوق قفصها الذهبى : « لكنها متهوسة ! » .

فصاحت به أمه : « صه يا « إدوارد » ! » ثم اضافت تحدث ضيفها :

— هذا الولد الشقى اللعين مصيب مع ذلك إلى حد ما ، وهو يردد ما سمعنى أقوله متألمة مائة مرة ، ذلك أن الآنسة « دى فيللفور » — برغم كل ما نبذله من اجلها — ذات طبيعة سوداوية وميل إلى الصمت والانزواء ، الأمر الذى يغض من جمالها . ولكن ما الذى يعوقها ؟.. اذهب يا « إدوارد » وادعها ..

فقال « إدوارد » : « إنهم يبحثون عنها فى المكان الذى لن يجدوها فيه ، كما هو شأنها دائما ! » .

فسألته : « اين يبحثون عنها ؟ » .

فأجاب : (عند جدى « نوارتييه »).. وانا على يقين من انها ليست هناك !) .

فسألته : « واين هى إذن ؟.. إذا كنت تعرف مكانها فلم لا تقول ؟ » .

فأجاب : « إنها تحت شجرة الكستناء الكبيرة ! » .

فمدت الأم يدها إلى الجرس كى ترشد الخدم إلى مكان الفتاة . ولكن هذه سرعان ما ظهرت مقبلة ، وقد بدت عليها

الكآبة ، بحيث كان الفاحص المدقق يستطيع ان يلمح فى عينيها آثار دموع قد جففت !

كانت « فالنتين » فتاة طويلة القامة رشيقة القد ، فى التاسعة عشرة من عمرها . ذات شعر كستنائى . وعينين زرقاوين عميقتين ، ومظهر وقور يوحى بالارستقراطية الهادئة التى كانت تميز أمها . وكانت أصابعها البيضاء الدقيقة ، وعنقها العاجى ، وخداها المصطبغان بألوان وظلال شتى ، تذكر الناظر إليها بالحسان الانجليزيات اللواتى قارنهن الشعراء بالبجعات ذوات الجلال !

وحينما دخلت الفتاة الحجرة ، ورأت إلى جوار زوجة أبيها الرجل الذى سمعت كثيرا من الأحاديث عنه ، عمدت إلى تحيته دون أى ارتباك صبيانى ، بل دون ان تغض من بصرها ، وبرشاقة ضاعفت انتباه الكونت إليها ، فنهض ليرد لها التحية !

وحين قدمتها له زوجة ابيها باسمها، اردف«إدوارد» اخوها يكمل التعريف ، وهو يرمقها بنظرة ماكرة : « وهذا مسيو « دى مونت كريستو » ملك الصين وإمبراطور الهند الصينية ..! » .

وهنا شحب وجه أمه واستبد بها الغضب على الغلام الشقى ، لكن الكونت ابتسم فى غير غضاضة ونظر إلى « إدوارد » فى تسامح جعل قلب الأم يسترد فرحته وتحمسه .. ثم واصل حديثه فقال وهو ينقل بصره بين مدام «دى فيللفور» و « فالنتين » : « ألم أتشرف من قبل بلقائكما ؟ . لقد دار هذا

بخاطرى منذ البداية ، وحين دخلت الآنسة أضاف مرآها شعاعا جديدا من الضوء على ذكرى مشوشة فى ذهنى ! » .

فأجابت السيدة « دى فيللفور » : « لست أعتقد ذلك يا سيدى ، فان الآنسة « دى فيللفور » ليست شغوفة بالمجتمعات . ونحن لا نخرج إلا نادرا ! » .

فقال : « إذن .. لم يكن المجتمع موضع لقائى بالآنسة ، أو بك يا سيدتى ، أو بهذا الغلام المرح الجذاب .. ثم أن مجتمعات باريس غريبة على تماما فانى لم أحضر إلا منذ أيام .. ولكن ربما كان ذلك اللقاء فى إيطاليا .. كانت الآنسة تسير فى الحديقة ، وذهب ابنك يطارد طاووسا ! »

وهنا تدخل الغلام « إدوارد » فقال بعد أن أومأ موافقا : « نعم .. نعم يا ماما . وقد امسكت بذلك الطاووس وانتزعت ثلاث ريشات من ذيله .. الا تذكرين ؟ » .

واستطرد الكونت : « أما أنت يا سيدتى فبقيت فى ظل الكرمة .. الا تذكرين أنك وأنت جالسة على مقعد حجرى ، فى غيبة الآنسة « دى فيللفور » وابنك ، تحدثت فترة من الوقت إلى شخص ما ؟ » .

فأجابت الزوجة الحسناء وقد صعد الدم إلى وجهها : « نعم .. هذا صحيح .. اذكر انى تحدثت إلى رجل يرتدى عباءة طويلة من الصوف . كان طبيبا على ما أذكر ! » .

فقال الكونت :

ـــ تماما يا سيدتى ، وذلك الرجل أو الطبيب لم يكن

سواى !.. كانت قد انقضت مدة على وجودى فى الفندق ، وقد استطعت خلالها أن أشفى خادمى من حمى أصابته ، وأشفى صاحب الفندق من داء اليرقان ، فاكتسبت بذلك صيتا ذائعا هناك .. وقد تحدثنا يومئذ يا سيدتى فترة طويلة من الوقت ، فى موضوعات شتى مثل « بيروجنتو » ، و «رافاييل» ، والعادات والأزياء .. كما تحدثنا عن علم مزج السوائل ، وذكرت لى ان اشخاصا معينين فى (بيروجيا) يحتفظون بسره » .

فقالت المرأة متعجلة ، فى شىء من القلق :

ــ نعم ، هذا صحيح .. اذكر ذلك الآن !

واستطرد الكونت فقال فى هدوء تام :

ــ لست اذكر جميع الموضوعات التى تكلمنا فيها يومئذ يا سيدتى ، لكنى أذكر بوضوح أنك وقعت فى الخطأ الذى وقع فيه غيرك بصدد براعتى فى الطب ، فاستشرتنى بشأن صحة الآنسة « دى فيللفور ! » .

وفى تلك اللحظة دقت الساعة السادسة ، فالتفتت مدام « دى فيللفور » إلى « فالنتين » وقالت لها فى انفعال :

ــ الساعة السادسة الآن .. هل لك ان تذهبى لترى هل جدك يريد تناول عشائه ؟

فنهضت « فالنتين » وغادرت الغرفة ، بعد أن حيت الكونت دون أن تجيب بكلمة .. فقال الكونت :

ــ أواه يا سيدتى ، هل بسببى أبعدت الآنسة «دى فيللفور» عن الغرفة ؟

ــ كلا !.. إنها الساعة السادسة ، وهى الموعد المحدد لإعطاء المسيو « نوارتييه » الوجبة الإجبارية التى تعينه على الاحتفاظ بما بقى من قواه .. إنك على علم يا سيدى بحالة الانحلال التى اصيب بها والد زوجى ، اليس كذلك ؟

ــ نعم ، لقد حدثنى مسيو « فيللفور » عنها مرة ، إنها حالة شلل على ما اذكر !

فقالت : « نعم ، إن الكهل المسكين لا يقوى على أية حركة .. ولم يبق محتفظا بنشاطه فى جسمه غير عقله . ولو انه بدا يضعف ويختلج ، كنور المصباح الذى يوشك أن ينطفىء ... ولكن اغفر لى يا سيدى كلامى فى متاعبنا البيتية . لقد قاطعتك فى اللحظة التى كنت فيها تحدثنى عن براعتك فى الكيمياء ! » .

فقال : « كلا يا سيدتى !.. لم اقل ذلك تماما . وما درست الكيمياء إلا على اثر اعتزامى العيش فى الأجواء الشرقية ، كى انهج نهج الملك « ميتريداتس » الذى .. » .

وهنا قطع الصبى كلامه وقال وهو ينتزع بعض الصور الجميلة من « البوم » ثمين :

ــ أهو الملك « ميتريداتس » الذى كان يفطر كل صباح بكأس من السم الممزوج بالكريمة ؟!

فهتفت به أمه وهى تنتزع « البوم » الصور من قبضته :

— اسكت ايها الشقى ! .. لقد صرت لا تحتمل . إنك تزعجنا وتقطع حديثنا ، فاتركنا والحق باختك « فالنتين » فى غرفة جدك !

ثم نهضت فقادت الغلام من يديه حتى الباب . وتبعها الكونت بعينيه وهو يحدث نفسه : «ترى .. هل تغلق الباب خلفها ؟ ».

واغلقت مدام « دى فيللفور » الباب بإحكام بعد خروج الصبى ، فتظاهر الكونت بانه لا يلحظ حركتها ، ولما عادت إلى مقعدها اخذت تلقى على ما حولها نظرة فاحصة . فاستطرد الكونت ، قائلا :

— لقد قاطعت الغلام وهو يذكر فذلكة تاريخية تثبت مدى اهتمام معلمه بتثقيفه .. !

فقالت الأم فى شىء من الزهو :

— إنه ذو قابلية للعلم ، وهو لا ينسى اى درس يلقى عليه .. لكن عيبه الوحيد انه شديد العناد . ولمناسبة هذا الذى قاله ، هل تصدق حقا أن « ميتريداتس » كان يستعمل تلك الوسائل ، وانها كانت ذات اثر حقيقى ؟

فقال الكونت : « نعم اعتقد ذلك يا سيدتى ، لأنى انا نفسى قد جربتها ، كى آمن شر الموت بالسم فى رحلاتى المتعددة فى نابولى ، وباليرمو ، وازمير .. اعنى فى مناسبات ثلاث كنت فيها سأفقد حياتى لولا تلك الوسائل الاحتياطية ! »

فقالت : « إننى اذكر الآن انك اشرت إلى شىء من هذا القبيل خلال حديثنا فى بيروجيا .. اليس كذلك ؟ كما اذكر انى

سالتك يومها : هل السموم تحدث اثرها فى اهل الشمال واهل الجنوب على حد سواء ، فاجبت بأن الشماليين بطبعهم اميل إلى البرود والكسل ، وهذا يجعل قابليتهم للتسمم أخف من قابلية اهل الجنوب ذوى الطبائع النشطة والحيوية » .

فقال الكونت : « هذا صحيح ، ولقد رايت بعينى افرادا من الروس يتناولون أعشابا خاصة ، لو تناولها إنسان من العرب او سكان الشرق الأوسط لقتلته فورا ! » .

فسالته فى اهتمام : « اتعتقد هذا حقا ؟ .. اعنى هل خطر هذه الأعشاب اشد على من يعيشون فى جو لا تكثر فيه الأمطار والغيوم ، لأن هذه تجعل الأجسام اقل قابلية لامتصاص السموم ؟ » .

فأومأ الكونت موافقا ، وقال :

— نعم ، لا ريب فى ذلك يا سيدتى . لذلك ينبغى أن يحصن ضد السم من لم يألفه من قبل ، لكى يتعوده جسمه !

فقالت : « استطيع أن افهم ذلك .. ولكن كيف تعود نفسك السم ، اعنى كيف عودت نفسك فى المرات السالفة ؟ » .

فقال : « هذا سهل جدا .. فلو فرضنا انك عرفت سلفا نوع السم الذى سوف يدس لك .. وليكن هو (البروسين) مثلا .. ثم تناولت فى اليوم الأول مقدارا منه ، وفى اليوم الثانى ضعف هذا المقدار .. وهكذا لمدة عشرة أيام ، فإنك تصيرين قادرة على أن تتعاطى مقدارا كبيرا منه دون ان يصيبك ضرر يذكر .. بينما لو اعطيت هذا المقدار نفسه لإنسان لم يتناول

المقادير الصغيرة السابقة ، فانه يقتله !.. وهكذا يمكنك فى نهاية الشهر أن تشربى الماء من إناء واحد مع شخص آخر ، فيموت هو .. فى حين لا تشعرين أنت بغير مضايقة بسيطة .. ! » .

فقالت « مدام دى فيلفور » فى لهجة من تمعن الفكر ! « لقد طالما قرأت تاريخ « ميتريداتس » وأعدت قراءته ، لكنى كنت اعتبره بمثابة أسطورة خرافية ! » .

فقال الكونت : « كلا يا سيدتى !.. إنه — بعكس اكثر ما يرويه التاريخ — صحيح تماما !.. لكن ما تستفسرين عنه ليس فيما يبدو ثمرة فضول طارىء ، فمنذ عامين سألتنى هذه الاسئلة نفسها ، وقلت لى يومئذ إن تاريخ « ميتريداتس » قد شغل فكرك زمنا ؟ » .

قالت : « هذا صحيح ، فقد كان علم النبات والجيولوجيا احب العلوم إلى فى زمن الدراسة .. وانا اميل بطبعى إلى العلوم التى تخاطب الخيال كالشعر ، والعلوم التى تخضع للارقام مثل الجبر .. ولكن استمر ، فحديثك يلذ لى جدا ! » .

فقال الكونت : « الأغرب من ذلك يا سيدتى ان الشرقيين لا يستخدمون السم كدرع للوقاية — كما فعل « ميتريداتس » — بل كخنجر للعدوان !.. فالعلم فى أيديهم لا يكون سلاحا دفاعيا فقط ، بل للهجوم أيضا ، وهكذا يحميهم من خصومهم ويخلصهم منهم فى الوقت نفسه .. فهم بوساطة الافيون وست الحسن (البلادونا) وغيرها من العقاقير ينيمون إلى الأبد كل

من يخشون أن يبقوا ساهرين !.. وما من امرأة من نساء المصريين والأتراك واليونان اللواتى نسميهن هنا (النساء الفاضلات) لا تعرف كيف تستعين بالكيمياء على قضاء أغراضها، بحيث تدهش الطبيب المحترف ، وتذهل العالم النفسانى الذى يتلقى اعترافات الناس ! » .

فتساءلت مدام « دى فيلفور » وقد لمعت عيناها بوهج غريب : « حقا ؟! » .. على حين استطرد الكونت فقال :

— اما عندنا نحن فإن اى ساذج تملكه شيطان الحقد أو الطمع ورغب فى التخلص من عدو أو قريب ، يذهب عادة إلى حانوت البقال أو الصيدلى منتحلا لنفسه اسما زائفا — يؤدى إلى افتضاحه فى الواقع أكثر مما لو ذكر اسمه الحقيقى ! — ثم يبتاع خمسة جرامات أو ستة من الزرنيخ ، بحجة أن الفيران تزعج نومه !.. وإذا كان الشخص ماكرا فإنه يحصل على هذه الكمية من حوانيت مختلفة ، يكرر فى كل منها القصة ذاتها، فيضع نفسه تحت رحمة شهود عديدين متفقى الشهادة .. ثم يسقى خصمه جرعة من السم تكفى لقتل أضخم (فيل) ، أو (حوت) ، وتجعله يصرخ مستغيثا فيجمع حوله الجيران وسكان المنطقة .. ثم لا يلبث أن يصل رجال البوليس والمباحث، وفى اثرهم الطبيب الشرعى الذى يشرح الجثة فيجد فى امعائها من بقايا الزرنيخ ما يملأ ملعقة !.. وفى اليوم التالى تصدر الصحف جميعا ، وفى صدرها كل البيانات ، واسم القتيل ، والقاتل ، فيهرع البقالون والصيادلة ليشهدوا ضد المتهم الذى يساق إلى المحكمة كما يساق الكبش إلى الذبح ، ثم تصدر

ضده الحكم وينفذ فيه الإعدام .. او ـ إذا كانت امـرأة ـ تسجن مدى الحياة !.. وهذه هى الطريقة التى تفهمون بهـا انتم أهل الشمال علم الكيمياء .. لكن « ديرو » كان فى الواقع أبرع من ذلك !

فقالت المراة ضاحكة :

ـ ماذا تنتظر منا يا سيدى ؟.. نحن نفعل ما فى مقدورنا .. وليس جميع الناس على علم بأسرار وسائل أسرة «بورجيا» وأسرة « مديتشى » ! » .

فأجاب الكونت وهو يهز كتفيه :

ـ هل تبغين ان اذكر لك سبب هذه الحماقات ؟.. إنهـا مسارحكم التى الف النظارة فيها أن يروا الممثل يجرع محتويات قارورة بأكملها ، فيسقط ميتا على الفور .. وبعد خمس دقائق يسدل الستار ويتفرق المتفرجون دون أن يفكروا فيما يحدث عادة فى مثـل ذلك الحـادث من حضـور مفتشى المبـاحث واستجوابهم المتهم ، ثم الاقتصاص منه .. وهـذه الروايات غير المتقنة تؤثر فى ذوى العقليات الضعيفة فيتوهمون أن الأمور تجرى على هذا المنوال .. ولكن ابتعدى عن فرنسا وتوغلى جنوبا إلى صقلية او كورسيكا ، او حتى إلى نابولى وروما .. فلسوف تجدين هناك اناسا يمرون بجـانبك فى الطـريق ، منتصبى القامة ، باسمى الثغور ، متوردى الوجوه .. ولكن لو رآهم « أسموديوس » لقال على الفور : « هذا الرجل قد دس له السم منذ ثلاثة أسابيع ، وسوف يموت بعد شهر ! » .

وهنا سألته مدام « دى فيلفور » :

ـ إذن فقد اكتشفوا مرة اخرى اسرار علم السـوائل والسموم ، الذى قيل إنه فقد فى « بيروجيا » ؟

فقال : « نعم يا سيدتى .. وهل تفقد البشرية يوما شيئا ؟ .. إن السموم تحدث اثرها بصفة خاصة فى عضو من الجسم دون آخر .. فهناك سم يسبب سعالا مثلا ، والسعال يحدث التهابا فى الرئتين ، أو شيئا من هذه الأمراض المميتة المنصوص عليها فى كتب الطب ، وهى وإن لم تكن مميتة بطبيعتهـا فإن الأطباء الأغبياء ـ الذين هم عادة جهلة بالكيمياء ـ كفيلون بان يزيدوا الداء استفحالا .. ثم يموت المريض الذى قتل ببراعة وفن ، دون أن يصل إلى علم العدالة شيء عن الجريمة ! » .

فقالت الزوجة الشابة وقد اجلسها الانتباه جامدة فى مكانها بلا حراك :

ـ هذا أمر مخيف جدا ، لكنه شـائق فى الوقت ذاته ... واعترف بأنى كنت أحسب هذه الأقاصيص من ابتداع القرون الوسطى !

فقال الكونت :

ـ إنها لكذلك حقا ، ولكن تحسينات كثيرة ادخلت عليهـا فى عصرنا الحاضر .. فما جدوى الزمن بل ما جدوى مكافآت التفوق والأوسمة والنياشين والجرائد العلمية إذا هى لم تأخذ بيد المجتمع نحو كمال أوفى ؟.. على أن الإنسان لن يبلغ درجة الكمال المطلق حتى يتعلم كيف يخلق ويهلك ، وهو يعرف كيف يهلك .. وهذه نصف المعركة ! »

وهنا بدا على مدام « دى فيلفور » الانهماك فى التفكير ، ثم قالت :

ــ إنه لمن حسن الحظ أن تلك المواد لا توجد وتركب إلا عند الكيميائيين وإلا لقتل الناس جميعا بعضهم بعضا بالسم !

فقال الكونت فى غير مبالاة : « عند الكيميائيين والمولعين بالكيمياء ! » .

واستطردت المراة وهى تحاول جاهدة التخلص من أفكارها الملحة :

ــ ثم إن الجريمة مهما يتم تدبيرها ببراعة فانها تبقى آخر الأمر جريمة يعاقب عليها القانون ، وحتى إن أفلت مرتكبها من حكم القانون فلن تغفل عنها عين الله الساهرة .. إن الشرقيين اقوى جنانا منا فى مسائل الضمير ، ولا جحيم عندهم .. هذا هو الفرق ! » .

فقال : « الواقع يا سيدتى أن هذا شك خليق بأن يراود ذهنا طاهرا مثل ذهنك ، لكنه لا يلبث أن يتبدد أمام المنطق السليم .. فهناك أشخاص قليلون يعمد الواحد منهم إلى إغماد سكينه فى قلب مخلوق بشرى مثله ، أو يدس له مثل تلك الكمية التى تحدثنا عنها من الزرنيخ ، كى يزيله من الوجود ويمحوه محوا .. ومثل هذا القاتل المتوحش يكون شاذا أو غبيا وخارجا على المألوف ، ولكى يبلغ هذه الدرجة من التوحش

يجب أن يغلى دمه فى عروقه ويرتفع نبضه ، وتستثار مشاعره إلى أقصى حد .. ولكن لو فرضنا أنه استعاض عن الكلمة الخشنة بمرادفها الأكثر نعومة ، وبدلا من أن يرتكب جريمة القتل الفظيعة يكتفى بإبعاد خصمه عن طريقه ببساطة دون عنف أو خشونة ، ودون لجوء إلى الآلام التى تجعل من الضحية شهيدا ومن المعتدى جزارا .. بل دون دم .. أو تأوهات ، أو هزات عنيفة .. ودون إحساس بوطأة اللحظة المروعة الحاسمة ، لحظة ارتكاب الجريمة الفاصلة بين الحياة والموت .. عندئذ يصبح فى إمكان الشخص أن ينجو من قبضة القانون البشرى الذى يقول : « لا تزعج المجتمع » .. وتلك هى الطريقة التى يدبر بها الشرقيون هذه الأمور وينجحون فيها ، حيث لا يقيم الناس اعتبارا للزمن ولا يستعجلون النتائج ! » .

فقالت مدام « دى فيلفور » بصوت منفعل وتنهدة مختنقة : « لكن .. يبقى هناك عقاب الضمير ! » .

فأجاب « مونت كريستو » :

ــ نعم ، من حسن الحظ أن عقاب الضمير يبقى . ولولا ذلك لكانت الحياة تعسة شقية لا تطاق .. فعلى أثر كل فعل يتطلب إجهاد النفس فى التبرير والتخريج ، يتولى الضمير وحده إنقاذنا ، فهو يزودنا بألف عذر وعذر ، يكون قبوله فى يدنا وحدنا .. على أن هذه الأعذار التى تفعل فعل السحر فى جلب النعاس إلى أجفاننا ، لا تكاد تجدينا نفعا حين نمثل أمام المحكمة كى نحاكم عن جريمتنا ! .. من قبيل ذلك مثلا أن

ضمير «ريتشارد الثالث» خدمه اجل خدمة بعد ان قتل ولدى « إدوارد الرابع » ، فقد راح يلقى فى روعه ان هذين الولدين اللذين ورثاعن أبيهما القاسى المستبدمساوئه وصفاته البغيضة، يقفان حجر عثرة فى سبيل ارتقائه العرش وإنقاذ الشعب الإنجليزى من مظالمهما ! وكذلك كان ضمير « ليدى ماكبث » — فى رواية « شكسبير » — خير شفيع لها حين ارادت ان تمنح ابنها — وليس زوجها — عرش البلاد !.. إن الحب الأموى فضيلة عظيمة وحافز قوى ، بل إنه من القوة بحيث يبرر اشياء كثيرة .. !

وبقيت مدام دى « فيلفور » تصغى صامتة إلى هذه المبادىء والآراء الرهيبة ، ثم قالت له :

— هل تعلم يا عزيزى الكونت ان لك منطقا مقنعا شديد الخطر . وانك كيميائى بارع ؟ فان الدواء الذى اعطيته لابنى فى ذلك اليوم قد أعاده فورا إلى وعيه !

فقال لها : « الواقع أن قطرة واحدة من ذلك الإكسير أعادت الطفل المغمى عليه إلى وعيه ، ولكن ثلاث قطرات كانت كفيلة بأن تقذف الدم إلى رئتيه بعنف يحدث سرعة هائلة فى نبضه .. وكانت ست قطرات كافية لأن توقف تنفسه وتحدث له إغماء اخطر من الذى اصيب به يومئذ .. اما لو اعطيته عشر قطرات فإنها تقتله !.. او لا تذكرين يا سيدتى كيف اختطفت القارورة من جواره حين لمسها بيده ؟ » .

فقالت : « هل كان السائل الذى تحويه سما فظيعا إلى هذا الحد ؟ » .

فقال « كلا يا سيدتى ! .. ولنبدأ اولا بالتفاهم على ان كلمة سم لا وجود لها ، لأن الطب يستخدم أعنف السموم فيجعل منها وفقا لطريقة استعمالها أحسن الأدوية وافضلها للعلاج ! » .

فسألته : « إذن ماذا كان السائل الذى بها ؟ » .

فأجاب : « لم يكن سوى مستحضر ناجع الأثر من تركيب صديقى البارع الراهب « أديلمونت » الذى علمنى طريقة استعماله » .

فقالت : « إذن فهو مفيد فى معالجة التشنجات العصبية ؟ » .

فقال : « نعم يا سيدتى ، كما رأيت بنفسك .. وانا استعمله كثيرا فى العلاج ، مع مراعاة منتهى الحذر طبعا » .

فقالت : « الواقع اننى فى حاجة إلى استشارة مثل الدكتور « أديلمونت » كى يبتدع لى دواء لنوبات الإغماء العصبى التى تنتابنى ، فيجعلنى اتنفس بسهولة ويهدىء ثائرتى وانزعاجى الذى مبعثه الخوف من ان أموت يوما مختنقة خلال نوبة من تلك النوبات . وحتى يتيسر لى ذلك العلاج ، ونظرا إلى ان صديقك الراهب قد لا يكون مستعدا للحضور إلى باريس خصيصا من أجلى ، فانى مضطرة لأن أستمر فى استعمال دواء مسيو « بلانشين » المضاد للتشنجات ، فضلا عن قطرات « هوفمان » واقراص النعناع .. وإليك بعض الأقراص التى ركبت خصيصا من أجلى .. » .

وفتح الكونت الصندوق الصغير الذى قدمته إليه ، واختبر رائحة الأقراص بمقدرة الهادى الخبير بما تحوى من مركبات .. ثم قال :

— إنها قوية الاثر ، ولكن لما كانت تؤخذ من طريق الفم ، فإن تناولها يتعذر على الإنسان فى أثناء إغمائه ، ولهذا أفضل عليها دوائى !

— بلا شك ، وانا ايضا افضله ، بعد ما رأيت من قوة تأثيره .. لكنك تعتبره سرا بطبيعة الحال . ولست من التطفل بحيث أطلبه منك !

— لكنى من الشهامة بحيث أتطوع لتقديمه لك يا سيدتى !

وبدأ السرور والاغتباط فى وجه مدام « دى فيلفور » فى حين واصل الكونت كلامه ، فقال :

— إن جرعة صغيرة منه علاج نافع ، اما الجرعة الكبيرة فسم قاتل .. القطرة الواحدة تكفى لرد الحياة إلى الجسم كما رأيت ، اما خمس قطرات فانها تقتل .. ويزيد فى خطورتها انها لو وضعت فى كاس من النبيذ مثلا لا تبين لها رائحة مطلقا !

* * *

.. وهنا دقت الساعة السادسة والنصف ، واعلن الخادم وصول سيدة من صديقات مدام « فيلفور » جاءت لتتناول العشاء معها .. فقالت ربة البيت لضيفها الكبير :

— لو كانت هذه هى زيارتك الثالثة أو الرابعة يا سيدى الكونت .. ولو كان لى شرف الحظوة بصداقتك ، بدلا من ان تكون لى سعادة العرفان بجميلك فقط .. لأصررت على دعوتك للبقاء وتناول العشاء معنا ، لكنى أخشى أن يشوب رفضك الدعوة الآن صداقتنا فى بدايتها !

— اشكرك الف شكر يا سيدتى .. لكنى فى الواقع مرتبط بموعد لا استطيع ان اتحلل منه !

— إذن فإلى اللقاء ، ولا تنس الدواء .. !

— لن انساه يا سيدتى ، لانى لكى انساه يجب ان انسى الحديث الطلى الذى كان بيننا ساعة كاملة ، وهذا أمر مستحيل فى نظرى !

ثم نهض محييا وانصرف ، فى حين بقيت مدام «دى فيلفور» شاردة الفكر لحظة ، تحدث نفسها : « إنه رجل غريب الأطوار ، واعتقد انه هو نفسه الطبيب « ديلمونت » مبتكر طريقة تركيب الدواء ! » .

اما الكونت « دى مونت كريستو » فقد فاقت نتيجة المقابلة كل ما كان يرجوه ، فحدث نفسه وهو منصرف من البيت : « هذا بديع !.. إنها تربة خصبة ، وانا واثق ان البذرة التى بذرتها لن تموت ! » .

وفى صباح اليوم التالى ارسل قنينة الدواء .. وفاء بوعده!



— ١٤ —

أب .. وابن .. زائفان!

نهض الكونت « دى مونت كريستو » لاستقبال ضيفه الغريب ، وابتدره بقوله : « دعنى اتذكر : السيد المركيز « بارتلميو كافالكانتى »، البكباشي بالجيش النمسوى سابقا ؟ لقد أرسلك الأب « بوزونى » .. أليس كذلك ؟ » .

واوما الضيف موافقا، وقال وهو يناول الكونت خطابا مغلقا: « وقد حملنى إلى فخامتك هذا الخطاب ! » .

فتناول منه الكونت الخطاب وقرا فيه : « البكباشي كافالكانتى » ، من نبلاء (لوتشا) وسليل أسرة « كافالكانتى » الشهيرة بفلورنسا .. يملك إيرادا قدره نصف مليون فرنك . وهو شخص لا ينقصه من أسباب السعادة غير ان يسترد ابنه الحبيب الضائع الذى سرق منه فى طفولته ، إما بوساطة عدو له من اسرته النبيلة ، وإما بواساطة الغجر .. وقد جددت أمله حين ذكرت له أن فى مقدورك ان ترد إليه ابنه الذى يبحث عنه دون جدوى منذ خمسة عشر عاما ! » .

ثم أردف الكونت قائلا : « إن فى مقدورى حقا ان اصنع لك ذلك : ارد إليك ابنك أندريا ! » .

فقال الضابط ، فى برود تام : « لقد حسبت ذلك .. ولعله هنا ؟ » .

فقال الكونت : « نعم .. ولكن ينبغى ان تتمالك عواطفك ريثما أعد الشاب للقائك ! » .

.. ثم مضى الكونت إلى غرفة جانبية ، حيث كان يوجد شاب أنيق المظهر جليل الهيئة ، وصل منذ نصف ساعة .. فخاطبه بقوله :

ـ اعتقد انى اتحدث إلى الكونت « أندريا كافالكانتى ؟ » .

فكرر الشاب الاسم وراءه وهو ينحنى : الكونت « أندريا كافالكانتى ! » .

ـ وانت تحمل خطاب تقديم موجه إلى وموقع عليه بإمضاء « السندباد البحرى » ، أليس كذلك ؟ .. إنه صديق حميم لى .. وهو ثرى إنجليزى ذو شذوذ يبلغ حد الجنون ، واسمه الحقيقى اللورد « ويلمور » .. فهلا تكرمت بأن تعطينى بعض المعلومات عن نفسك وأسرتك ؟

ـ بلا شك ، أنا الكونت « كافالكانتى » ابن البكباشى « بارتلميو كالفالكانتى » سليل أسرة « كافالكانتى » التى ورد ذكرها فى الكتاب الذهبى لمدينة فلورنسا . وأسرتنا ـ برغم انها ما تزال تتمتع بالثراء ، وإيراد أبى يصل إلى نصف المليون ـ فانها عانت كثيرا من المتاعب والأحداث السيئة : فأنا مثلا قد اختطفت فى سن الخامسة بمساعدة معلمى الخائن ، بحيث انقضت على منذ ذلك التاريخ خمسة عشر عاما لم أر فيها الشخص الذى كان السبب المباشر فى وجودى .. ومنذ بلغت رشدى وصرت سيد نفسى ، لم اتوان عن البحث عن والدى

بكل الوسائل ، ولكن بدون جدوى !.. حتى تلقيت أخيرا هذا الخطاب من صديقك المذكور ، وفيه ان ابى موجود فى باريس ، وان على ان اتصل بك كى ترشدنى إلى المعلومات الخاصة به !

— لقد احسنت إذ نفذت تعليمات صديقى (السندباد البحرى) بدقة ، فإن اباك موجود هنا حقا ، وهو يبحث عنك كما تبحث عنه !

— حقا ؟ هل ابى هنا حقا ؟!

— نعم ، أبوك البكباشى « برتلميو كافالكانتى » بعينه !

وعندئذ تبدد تعبير الرعب الذى كسا وجه الشاب لدى سماع النبأ لأول وهلة ، ثم قال :

— آه يا سيدى ، لقد مضت سنوات طويلة منذ افترقنا ، بحيث لم اعد اذكر شكل ابى على الإطلاق !

— سوف تراه الآن .. إنه مليونير ، إيراده السنوى ٥٠٠ الف فرنك ، سوف يمنحك منها خمسين الفا كل سنة طيلة مدة بقائك فى باريس ، على ان تتسلم نصيبك الشهرى منها من بنك « دانجلر » الذى هو من اكبر البيوت المالية الباريسية .

— وهل يعتزم ابى البقاء فى باريس طويلا ؟

— بضعة أيام فقط ، فان خدمته العسكرية لا تسمح له بالتغيب اكثر من أسبوعين أو ثلاثة على اكثر تقدير !

وهنا بدا على « أندريا » السرور بقرب رحيل أبيه .. فى حين قال الكونت .

— إننى لن أعوق لقاءكما المرتقب وقتا آخر ، فهل انت متأهب لمعانقة أبيك ؟ .. ادخل إذن الحجرة المجاورة أيها الصديق ، فترى اباك مشوقا إلى رؤيتك !

وانحنى « أندريا » للكونت محييا شاكرا ، ثم دخل الحجرة .. أما الكونت فقد انتظر حتى أغلق الشاب الباب وراءه ، وإذ ذاك مضى هو إلى صورة كبيرة معلقة على الحائط فازاحها فى رفق حتى انكشفت له وراءها ثغرة خفية تسمح للناظر خلالها برؤية ما يدور فى الغرفة المجاورة .. فرأى الشاب يتقدم نحو الكهل قائلا بصوت عال — تعمد أن يسمعه للكونت فى الحجرة الأخرى .

— آه ، أبى العزيز ! أهذا حقا انت ؟

فقال الضابط فى لهجة الجد : «كيف انت يا بنى العزيز؟!» .

وعندئذ اردف الشاب وهو يأخذ ذراع الضابط فى ذراعه كمن يعرفه منذ زمن :

— أيها العزيز مستر « كافالكانتى » ، كم دفعوا لك كى تمثل دور أبى ؟ .. إنى سأصارحك بسرى كى تصارحنى بسرك ، إنهم يدفعون لى خمسين الف فرنك فى السنة كى اكون ابنك !

— وأنا بدورى يدفعون لى مثل هذا المبلغ لأمثل دور أبيك .

.. واختار الكونت هذه اللحظة كى يدخل الحجرة ، فلما سمعا مقبض الباب يفتح القى كلاهما نفسه فى أحضان الآخر وراحا يتبادلان القبلات .. وفى خلال عناقهما دخل الكونت ، فابتدرهما بقوله :

— والآن أيها السيدان طاب يومكما ، فإنى منصرف !

فتساءل « كافالكانتى » : «متى يكون لنا شرف رؤية فخامتك مرة أخرى ؟ » .

— يوم السبت ، إذا شئتما .. وسوف أتناول العشاء فى منزلى فى (أوتوى) ، شارع النافورة رقم ٢٨ ، وقد دعوت كثيرين ، بينهم مسيو « دانجلر » ، ويسرنى أن أعرفكما إليه فهو الذى سيدفع لك يا « أندريا » مرتبك الشهرى !

وعندئذ انحنى الاثنان للكونت مودعين ، ثم غادرا المنزل !

— ١٥ —

وصية مشلول !

مشى « مكسمليان موريل » إلى حديقة دار مسيو « دى فيلفور » ، وقد سادها السكون وحجبتها أشجار الكستناء العالية المحيطة بها عن الأنظار . ولبث بعض الوقت قلقا يترقب ظهور « فالنتين دى فيلفور » من بين الأشجار ، ويرهف سمعه ليسمع وقع خطاها فوق الممشى المفروش بالحصى .. ولم تمض دقائق حتى أقبلت « فالنتين » القائه ، ووقفت إزاءه ، يفصل بينهما سور الحديقة المرتفع .. ثم ابتدرته قائلة :

— طاب مساؤك « يامكسمليان » ، أعلم أنى تركتك تنتظر ، لكن « أوجينى دانجلر » كانت معى فعاقتنى ، كانت تحدثنى عن نفورها من الزواج من مسيو « دى مورسيرف » ، فصارحتها أنا أيضا بنفورى من فكرة الزواج من مسيو « دبيناى ! » .

— هل الآنسة « دانجلر » تنفر من الزواج بالمسيو « مورسيرف » لأنها تحب شخصا آخر ؟

فأجابت : « كلا ! .. فقد ذكرت لى أنها لا تحب أحدا ، وأنها تعارض الزواج ذاته ، وتفضل أن تعيش حرة بلا قيود .. حتى أنها لتتمنى أحيانا أن يفقد أبوها ثروته كى تحترف الفن مثل صديقتها الآنسة « لويز دارميلى » .. لماذا تبتسم ؟ » .

— دعينا من إضاعة وقتنا فى الحديث عنها ، فإنى أريد أن نتحدث عنك أنت !

— هذا صحيح ، ويجب أن نسرع ، فليس أمامنا غير عشر دقائق نقضيها معا . نعم أنت على حق ، فلست سوى صديقة فقيرة لك . وأية حياة افرضها عليك يا عزيزى المسكين « مكسمليان » ، أنت الذى خلقت للسعادة ؟! إنى لألوم نفسى لوما مريرا !!

— ما هذا الذى تقولين « يا فالنتين ؟ » ، وماذا يهمك من الأمر ما دمت أنا قانعا بهذه الحال . وما دمت شاعرا بأن لقاءك ، ولو لخمس دقائق، وسماع بضع كلمات من فمك العذب ، يعوضانى حتى عن هذا الانتظار الطويل الموجع ؟.. إنى لأعتقد اعتقادا جازما أن السماء ما كانت لتخلق قلبين منسجمين مثل قلبينا ، وتسمح لنا — بمعجزة — بأن ننشأ معا ، لو أنها كانت تريد أن تفرق بيننا آخر الأمر !

— كلماتك رقيقة ومشجعة يا « مكسمليان » .. إنها سوف تمنحنى على الأقل سعادة جزئية !

— ولكن ما الذى يلجئك إلى أن تفارقينى هكذا سريعا ؟

— لست أدرى التفصيلات بالضبط ، وكل ما أعرفه أن مدام « دى فيلفور » قد أرسلت فى طلبى لأمر يتعلق بجزء من ميراثى. ليتهم يأخذون ثروتى، فليست بى حاجة إليها، ولعلهم لو أخذوها يكفون عن إزعاجى ويتركونى فى سلام وسكينة ..

وإنى لعلى يقين من أنك تحبنى حينئذاك مثلما تحبنى اليوم . أليس كذلك يا « مكسمليان ؟ » .

— إنى أحبك دائما ! .. وماذا يهمنى من الغنى أو الفقر ما دامت حبيبتى « فالنتين » بجانبى ؟.. آه ، كنت أوشك أن أذكر لك أننى قابلت مسيو «دى مورسيرف» منذ أيام ، وكان قد تلقى خطابا من صديقه «دابيناى » يخبره فيه بأنه عائد توا .

وهنا شحب وجه « فالنتين » ، واتكأت على سور الحديقة ، قائلة :

— رباه ! .. لو كان الأمر كذلك ؟! .. ولكن لا .. إن المفاوضات قد لا تأتى عن طريق مدام دى « فيلفور » . فقد خيل إلى أنها عارضت ذلك الزواج ، وإن لم تشأ أن تصرح بذلك علانية !

— أظن أنها تعارض زواجك من مسيو « ديبيناى » وحده .. أى أنها سترحب بأى اقتراح آخر ؟

— كلا يا « مكسمليان » . إنها تعارض فكرة الزواج ذاتها .. وكنت قد فكرت منذ عام فى أن أعتزل الدنيا وألجأ إلى أحد الأديرة ، وسعيت خفية إلى تنفيذ هذه الفكرة ، بل لقد أقنعت أبى بقبولها ، ولولا توسلات جدى المسكين لنفذت عزمى يومذاك . إنك لا تستطيع أن تتخيل التعبير الذى يبدو فى عينى الشيخ الفانى حين ينظر إلى ، وأنا المخلوق الوحيد الذى يحبه ويبادله الحب !

— حبيبتى « فالنتين » .. إنك لملاك كريم ، ولست ادرى اى عمل طيب عملته حتى أستحق منك حبك وثقتك ؟!.. ولكن حدثينى بربك ، اية مصلحة لمدام « دى فيلفور » فى ان تبقى انت بغير زواج ؟

— الم اقل لك منذ لحظة إننى غنية وغنية جدا ؟ ..! لقد ورثت عن أمى ما يدر على سنويا نحو خمسين الف ريال ، فضلا عن إيراد مماثل سوف يتركه لى جدى وجدتى — لأمى — المركيز والمركيزة « دى سانت ميران ».. وفضلا عما يعتزمه مسيو « نوارتييه » — جدى لأبى — من جعلى وريثته الوحيدة .. وهكذا يصبح اخى « إدوار » — الذى لن يرث شيئا عن امه — فقيرا بالنسبة لى.. اما لو دخلت الدير فسوف تؤول كل ثروتى هذه إلى ابى ، ثم إلى اخى « إدوارد » ، ابنها !

— ما اغرب ان تكون بهذا الطمع امراة مثل مدام « دى فيلفور ! » .

— إنها لا تحب المال لنفسها بقدر ما تحبه لابنها .. وما تعتبره انت رذيلة يغدو فضيلة من وجهة نظر الحب الأموى .. هل تسمع ؟.. إنهم ينادوننى !

ثم صعدت « فالنتين » فوق مقعد خشبى ومدت يدها إلى حبيبها من خلال السور ، فتلقى « مكسمليان » اليد الممدودة نحوه بغبطة ونشوة فائقتين ، ثم طبع عليها قبلة حارة تذكيها العاطفة .. وإذ ذاك ارتدت اليد إلى داخل السور ، ثم راى الشاب محبوبته تهرع عائدة إلى المنزل .

* * *

فى الوقت الذى جرى فيه ذلك الحديث بين « فالنتين ومكسمليان » ، كان مسيو « دى فيلفور » وزوجته قد دخلا حجرة ابيه مسيو « نوارتييه » .. وبعد ان اومأ بالتحية إلى الشيخ المسن المشلول ، وقفا بجانبه يتحدثان مع «باروا» الذى قضى فى خدمته خمسة وعشرين عاما .

وكان مسيو «نوارتييه» قد انتهت حياته العامة والسياسية بوصفه من حزب « نابليون » منذ انفجر احد الأوعية الدموية فى مخه ، فقضى عليه بأن يظل بقية حياته حبيس مقعده المريح ذى العجلات الذى كان يوضع طيلة النهار فيه ، فى مواجهة مرآة كبيرة يستطيع المريض ان يرى اكثر اجواء المسكن منعكسة على صفحتها ، كما يرى كل شخص يدخل الحجرة وكل شىء يدور حوله !

وبرغم ان مسيو « نوارتييه » كان فى جلسته اشبه بالجثة الهامدة ، فقد القى على الداخلين نظرة سريعة ذكية ، أدرك بها من طريقتهما الحائرة فى تحيته انهما جاءا ليتحدثا إليه فى أمور مالية ذات طابع هام !.. ولم يكن قد بقى للمسكين من حواسه غير حاستى النظر والسمع ، اللذين تركز فيهما كل نشاطه ووحدة ذهنه ، فصارت النظرة منه تغنى عن حركة الذراع ونبرة الصوت ومرونة الجسم ، فى التعبير عما يريد ان يفصح عنه .. ولو ان لغته هذه لم يكن يفهمها بوضوح غير اشخاص ثلاثة : ابنه « دى فيلفور » وحفيدته « فالنتين » ، وخادمه « باروا » ..!

وكان « دى فيلفور » قد ارسل ابنته إلى الحديقة ، ثم أشار

إلى الخادم « باروا » بمغادرة الحجرة ، وجلس بعد ذلك عن يمين ابيه المشلول ، فى حين جلست زوجته إلى يساره .. واستهل حديثه بقوله : « إننا نفكر فى تزويج « فالنتين » يا ابى .. وسوف يتم الزواج فى مدى ثلاثة اشهر » .

.. وهنا أضافت مدام « دى فيلفور » : « لقد كنا واثقين من ان هذا النبأ سوف يفرحك ، ولا سيما انك تخص « فالنتين » بحبك وحنانك .. ولم يبق إلا ان نذكر لك اسم الشخص الذى وقع عليه اختيارنا : إنه شاب يملك الثروة الطائلة ، والمكانة الرفيعة فى المجتمع ، وكل الصفات الكفيلة بإسعاد « فالنتين » .. وهو ليس بالشخص الذى تجهله انت تماما ، إنه « فرانز دى كينيل » ، (بارون ديبيناى !) .

وبدا الغضب فى عينى « نوارتييه » ، واحتبست فى حلقه صيحة حنق وحزن ، على حين استطردت المراة :

ـ هذا الزواج يصادف هوى من نفس مسيو « ديبيناى » نفسه ، واسرته ، واقرب الأحياء من اقربائه هما عمه وعمته ـ فقد ماتت أمه عند ولادته وقتل ابوه سنة ١٨١٥ ، اى بعد سنتين من موت أمه ـ وهكذا يمكن القول بان الفتى نشأ سيد نفسه ، وليس لأحد سلطان على رايه او اختياره لشريكة حياته » .

وأردف « دى فيلفور » قائلا : « إن مصرع أبيه كان مأساة غامضة ، وقد نجا القتلة من العقاب ، وإن حامت الشبهة حول اكثر من واحد ! » .

ثم عادت الزوجة فقالت : « والآن يا سيدى استاذنك فى

الانصراف .. هل تريد منى ان ارسل إليك « إدوارد » ليؤنسك بعض الوقت ؟ » .

فحرك الشيخ المشلول أهداب عينيه مرات ، علامة الرفض .. وعندئذ سالته المراة : (إذن .. هل ارسل إليك « فالنتين » ؟ .. فأغمض عينيه ، علامة القبول !) .

وهنا انحنى له الزوجان وغادرا الغرفة ، بعد ان أوصيا الخدم باستدعاء « فالنتين » تلبية لرغبة جدها ، وكانا يعلمان انها ستجد عناء كبيرا فى تهدئة ثائرته .. !

دخلت « فالنتين » بعد خروج ابيها وزوجته من الحجرة بقليل ، وادركت من اول نظرة إلى جدها انه قلق ، وان فى ذهنه كلاما كثيرا يريد أن يفضى به إليها .. فصاحت جزعة : « جداه ! .. ماذا حدث ؟ .. هل حدثاك عن تزويجى ؟ »

فأجابها الرجل بنظرة غاضبة : « نعم » .

ـ إنك لا تحب مسيو « ديبيناى ؟ »

فأجابتها عيناه : « لا ، لا ، لا ..! » .

وعندئذ ارتمت الفتاة على ركبتيها واحاطت رقبة جدها بذراعيها قائلة : « وأنا أيضا لا أحبه ! » فلمعت فى عينى الشيخ نظرة فرح !.. ثم سالته : « هل تعتقد انك تستطيع مساعدتى يا جدى العزيز ؟ » .

فأغمض عينيه مرات ، يعنى انه يستطيع هذه المساعدة ، ثم رفع بصره إلى السماء إشارة إلى انه يريد شيئا ، فسألته « فالنتين » :

— ماذا تريد يا جدى العزيز ؟

ثم راحت تردد على سمعه الأشياء التى رجحت ان تكون مبتغاه ، لكنه اجابها عن كل منها بإشارة الرفض من عينيه . ففكرت فى تجربة طريقة اخرى ، وبدأت تسرد عليه الحروف الأبجدية بالترتيب ، حتى أبدى حركة الموافقة عند نطقها بحرف « الميم » .. فقالت جذلة :

— إذن فالشىء الذى تريده يبدأ اسمه بحرف الميم .. ترى : هل ميمه مفتوحة ؟ أم مكسورة ؟ أم مضمومة ؟ وإذ ادركت من نظرته انه يريد شيئا يبدأ بحرف الميم المضمومة ، نهضت واحضرت قاموسا وراحت تنقل اصابعها بين كلمات الميم المضمومة فيه ، إلى ان اوما جدها بعينيه موافقا عند كلمة « مسجل عقود » ..

فدقت الفتاة الجرس وطلبت استدعاء احد مسجلى العقود .. !

وبعد ثلاثة ارباع الساعة ، دخل « باروا » وبصحبته مسجل العقود المطلوب .. ثم دخل فى اعقابهما مسيو « دى فيلفور » ، وبعد تبادل التحيات التقليدية قال الابن يحدث المسجل :

— هانت ذا ترى الشخص الذى ارسل فى استدعائك .. إن جميع أعضاء جسمه مصابة بالشلل ، حتى صوته .. ونحن نجد صعوبة كبيرة فى فهم ما يريد أن يقول !

وهنا اوما المريض إلى حفيدته بنظرة آمرة ، فهمت قصده منها ، فقالت للمسجل على الفور : « سيدى ، إنى افهم كل ما يريد جدى ان يقول » .

فاجابها المسجل : « لكى تكون الوصية نافذة ، ينبغى ان استوثق من رغبات موكلى . إن عجز الجسم لا يؤثر فى صحة التصرف ، إذا كان العقل سليما ! » .

فقالت له الفتاة : « سوف ترى يا سيدى أن جدى مالك لجميع قواه العقلية ونشاطه الذهنى .. وفى وسعك أن تتفاهم معه بالطريقة التى اتفاهم بها انا معه ، إنه فى مقام الموافقة يغمض عينيه ، وفى مقام الرفض يحرك أهدابه عدة مرات .. والآن تستطيع أن تتفاهم معه بسهولة !

وهنا نظر الجد إلى حفيدته نظرة شكر وامتنان لم تغب عن فطنة المسجل نفسه ، فقال يسأله :

— لقد سمعت وفهمت ما قالته حفيدتك . فهل توافق على مغزى الإشارتين اللتين تحدثت عنهما ، كوسيلة للتعبير عن آرائك ؟

ولما اغمض الشيخ عينيه علامة الموافقة ، التفت المسجل إلى مسيو « دى فيلفور » قائلا :

— إنها طريقة شاذة فى التفاهم ..!

فقال هذا منتهزا الفرصة : « نعم .. واعتقد انها ستكون شاذة فى تسجيل الوصية ، فلست افهم كيف يمكن ذلك بلا تدخل

من « فالنتين » ولعل لها مصلحة فى الوصية تجعلها لا تصلح مفـرة لائقة للتعبير عن رغبـات جـدها الغامضـة غير الصريحة ! » .

وهنا حرك المشلول اهدابه محتجا ، فسأله « دى فيلفور » :

— ماذا تعنى يا أبى ؟.. أليس « لفالنتين » مصـلحة فى الوصية ؟!

فأومأ الشيخ نافيا أن لها مصلحة فيهـا ، فقال مسـجل العقود لدى « فيلفور » : « سيدى .. إن ما بدا لى مستحيلا منذ ساعة واحدة قد صار الآن ميسورا معقولا ، وسوف تكون الوصية شرعية نافذة إذا قرئت فى حضور سبعة من الشهود، وقراها الموصى وسجلها المسجل امام الشهود ! » .

ثم التفت إلى الشيخ الموصى وسأله : « هل تعرف مقدار ثروتك بالضبط ؟ » . فلما أجاب بإغماض عينيـه دلالة على الموافقة ، واصل المسجل كلامه فقال :

— سأذكر لك عدة أرقـام ، فاذا بلغت الرقم الصحيح فعليك ان تنبهنى بإشارة الموافقة: هل ثروتك .. ٣٠٠ الف فرنك؟ كلا ؟ إذن أهى .. ٤٠٠ ألف ؟ تقول كلا ايضا ؟ .. إذن هى ٦٠٠ الف ؟ .. ٧٠٠ الف ؟ .. ٨٠٠ الف ؟ .. ٩٠٠ الف ؟

وهنا اشار المسيو « نوارتييه » إشارة الموافقة . فكرر المسجل سؤاله :

— هل تملك .. ٩٠٠ الف فرنك ؟ .. حسن ! .. وهل هى عقارات ؟ كلا ؟ إذن أسهم وسندات ؟ . حسن يا سيدى ، وهل الأسهم فى حيازتك ؟

وهنا نظر « نوارتييه » إلى خادمه « باروا » نظرة فهم الأخير معناها فخرج من الحجرة ثم عاد بعد حين يحمل صندوقا صغيرا .. فسأل المسجل الموصى :

— هل تسمح لنا بفتح هذا الصندوق ؟

فأغمض المشلول عينيه علامة الموافقة .. فلمـا فتحـوا الصندوق وجدوا فيه أسهما وأوراقا مالية قيمتهـا .. ٩٠٠ الف فرنك بالضبط . فقال المسجل :

— واضح أن المسيو « نوارتييه » محتفظ بقواه العقليـة ونشاطه الذهنى كاملا !

ثم التفت إلى الموصى يسأله :

— إلى من تريد أن تترك هذه الثروة ؟

.. فقالت مدام « دى فيلفور » مقاطعة : « أوه ! .. ليس ثمة شك كبير فى هذا الصدد ، فإن مسيو « نوارتييه » يحب حفيدته الآنسة « دى فيلفور » !

وهنا التفت المسجل يسأل « نوارتييه » :

— إذن فأنت تترك هذه الثروة لحفيدتك الآنسـة « دى فيلفور ؟ » .

وتأهب المسجل لأن يسجل موافقة الموصى على ذلك .. وكانت « فالنتين » خلال ذلك قد انزوت فى أحد أركان الغرفة واطرقت تبكى !.. فنظر جدها إليها نظرة تفيض رقة وعطفا .. ثم حرك اهدابه مرات علامة الإجابة عن سؤال المسجل بالنفى !

وكانت مفاجاة .. بددها سؤال المسجل للموصى :

ــ إذن هل تبغى ترك ثروتك لحفيدك «إدوار دى فيلفور؟» .

لكن الشيخ حرك اهدابه ايضا بما ينم عن الرفض البات !

فعاد المسجل يسأله : « اترفض ذلك ايضا ؟ .. إذن ربما يكون قصدك الإيصاء بثروتك لابنك مسيو « دى فيلفور » ؟.. ولا هذا ايضا ؟ » .

وهنا انتقلت نظرة المشلول بسرعة من « فيلفور » وزوجته إلى حيث استقرت على يد « فالنتين » .. فسألته فى دهشة :

ــ يدى ؟.. نعم ؟.. ثم صاحت الفتاة : آه فهمت.. انت تقصد زواجى ، اليس كذلك يا جدى العزيز ؟ » .

فكرر الجد إشارة الموافقة ثلاث مرات ، وهو ينظر إلى حفيدته نظرة عرفان بالجميل لكونها فهمت مراده .. فى حين قال « فيلفور » : « حقا إن هذا امر شاذ للغاية » .

فاجابه المسجل : « اسمح لى يا سيدى ان اقول إن الأمر على العكس ، فالمعنى الذى يقصده المسيو « نوارتييه » واضح تماما فى نظرى ، وفى وسعى ان اربط تسلسل الأفكار التى تدور فى ذهنه بسهولة ! » .

وهنا سالت « فالنتين » جدها : « انت تريد منى الا اتزوج من مسيو « دبينياى ؟ » .

فأجابتها إيماءة عين جدها ، مؤمنة على كلامها !

وعندئذ استطرد المسجل يسأله :

ــ وانت تبغى تجريد حفيدتك من الإرث لأنها خطبت إلى رجل بلا موافقة منك ؟.. حسن !.. هل إذا عدلت الفتاة عن الزواج من ذلك الرجل تصبح وريثتك الوحيدة ؟

فاومأ الشيخ المشلول موافقا !

ثم ساد صمت عميق ، قطعه المسجل مستطردا :

ــ كيف تبغى أن توزع ثروتك فيما لو اصرت الآنسة « دى فيلفور » على الزواج من مسيو « فرانز ؟ » .. هل تريد تخصيصها للأعمال الخيرية ؟ نعم ؟.. لكنهم قد يثيرون نزاعا حول تنفيذ الوصية بعد وفاتك ؟ كلا ؟

وهنا تدخل « دى فيلفور » فى المناقشة ، قائلا :

ــ إن أبى يعرفنى ويثق من أن رغباته سوف تعتبر مقدسة فى نظرى .. ثم إنه يدرك تماما انى بحكم مركزى لا استطيع اتخاذ موقف عدائى نحو الطبقات الفقيرة !

وهنا ومضت عينا « نوارتييه » ببريق الانتصار .. فسأل المسجل « دى فيلفور » : « وماذا تعتزم إذن يا سيدى ؟ » .

فأجاب هذا :

— لا شىء ! لقد اتخذ ابى قرارا وانا اعلم انه لا يغير رايه مطلقا . فلم يبق أمامى غير الإذعان .. ثم غادر «دى فيلفور» الغرفة على الأثر ، مصحوبا بزوجته ، تاركين المشلول أن يفعل ما يشاء .. !

وفى اليوم نفسه سجلت الوصية بحضور الشهود ، واقرها الوصى ، وختمت أمام الجميع ثم سلمت إلى مسيو « ديشان » المشرف على تنفيذ وصايا الأسرة .

- ١٦ -

مناورات فى البورصة

غادر الكونت « دى مونت كريستو » باريس فى اليوم التالى لتسجيل الوصية ، متخذا الطريق المؤدى إلى (أورليان) ، فبلغ برج (مونتليرى) الواقع فى أعلى بقعة من السهل المعروف باسمه .. وعند سفح التل ترجل الكونت وبدأ يتسلق ممرا ملتويا يؤدى إلى حديقة صغيرة .. حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام رجل فى نحو الخمسين من عمره يقطف ثمار « الفراولة » ويضعها على اوراق العنب .. فابتدره الكونت قائلا وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الشعور بالعطف :

— هدىء من روعك يا صديقى .. أنى لست مفتشا بل سائحا حضر مدفوعا بفضول يكاد يأسف الآن عليه ، إذ يراك توشك ان تضيع جانبا من وقتك معه .

— فقال الرجل : « هل حضرت يا سيدى لترى البرقية ؟ » .

فقال الكونت : « نعم .. إذا لم يكن ذلك مخالفا للقواعد .. لقد قيل لى إنك انت نفسك لا تفهم دائما الإشارات التى تكررها » .

فأجاب الرجل وهو يبتسم : « هذا صحيح يا سيدى ، وهذا ما افضله ، لأنه يريحنى من المسئولية ويجعلنى أشبه بالآلة لا اكثر ولا اقل .. وما دمت أعمل فلن يطلب منى احد شيئا آخر ! » .

وصعدا إلى غرفة البرق ، فى الطابق الثالث ، فنظر الكونت إلى المقبضين الحديديين اللذين تدار بهما الآلة ، ثم قال : «هذا أمر مسل للغاية . وهل أنت حقا لا تفهم شيئا من هذه الإشارات ؟ » .

فقال الرجل : « هناك إشارات توجه إلى خاصة ، وهى دائما تتكرر ، دون تغيير ما ، ونصها : (لا جديد .. أمامك ساعة .. أو غدا !) .. وهكذا ترى انى لا يمكن ان افهم شيئا مطلقا من هذه الإشارات ؟ » .

فقال الكونت : « هذا أمر بسيط ، ولكن انظر .. الا يخاطبك مراسلك الآن ؟ ماذا يقول ؟ هل فهمت شيئا ؟ » .

فقال الرجل : « إنه يسالنى هل انا مستعد ؟ ومتى اجبته بالإشارة التى تنبىء باستعدادى ، فإن مراسلى ـــ الذى إلى اليمين ـــ يفهم ذلك ايضا ، على حين ان مراسلى الذى إلى اليسار ياخذ أهبته بدوره ! »

فقال الكونت : « إنه ابتكار ينم عن الذكاء الخارق ! » .

فقال الرجل مزهوا : « سوف ترى .. انه سيتكلم خلال خمس دقائق » .

وهنا حدث « مونت كريستو » نفسه قائلا : « أمامى إذن خمس دقائق ؟.. »

إنها أكثر مما يلزم .. ثم استطرد يسال الرجل :

ـــ هل انت شغوف بفلاحة الحدائق يا سيدى ؟ .. وهل يسرك ان يكون لك بدلا من هذه الحديقة التى طولها عشرون قدما بستان مساحته فدانان ؟ » .

فقال الرجل : « إنى لكفيل بان أجعل منها جنة أرضية ! » .

فقال الكونت : « إذن .. انت توافق لقاء هذا على تغيير بسيط أريده فى رسالة مراسلك ؟! » .

فتساءل الرجل : « ماذا تعنى يا سيدى ؟.. إن هذا لا يمكن ان يحدث ما لم تقهرنى على القيام به » .

فقال الكونت : « أعتقد ان فى وسعى ان اقهرك ! » .

ثم اخرج من جيبه ظرفا ، مد يده به إلى الرجل ، قائلا :

ـــ هاك خمسة وعشرين الف فرنك ، تستطيع ان تشترى بخمسة آلاف منها منزلا صغيرا جميلا تحيط به أرض مساحتها فدانان .. وبقية المبلغ تدر عليك إيرادا سنويا قدره ألف فرنك !

ـــ منزل له حديقة مساحتها فدانان ؟ .. وماذا يطلب منى ان أفعل مقابل ذلك ؟

ـــ لا شىء سوى أن ترسل هذه الإشارات إلى وزير الداخلية :

وأخرج « مونت كريستو » من جيبه ورقة كتب عليها ثلاث إشارات موضح أمام كل منها رقم ترتيبها بالنسبة إلى الاشارتين الأخريين !

وبعد حوار قصير ، نفذ الرجل ما طلب منه وقد احتقن وجهه وتصبب العرق من جبهته ، وارسل الإشارات الثلاث إلى وزير الداخلية كما طلب الكونت !

وبعد وصولها إلى الوزير بخمس دقائق ، أمر الوزير سكرتيره « دبراى » بإعداد عربته وهرع إلى منزل « دانجلر » .. وحين لم يجده فى البيت سأل زوجته البارونة : «هل يملك زوجك أسهما أسبانية ؟ » .

فقالت : « أعتقد ذلك .. وأذكر أن عنده منها ما قيمته ستة ملايين من الفرنكات !

— إذن يجب أن يبيعها فورا بأى سعر . فلقد فر « دون كارلوس » من (بورج) ، وعاد إلى أسبانيا !

وهرعت البارونة إلى زوجها ، الذى هرع بدوره إلى وكيله، وأمره ببيع تلك الأوراق المالية فورا بأى ثمن !.. وحين رئى فى البورصة أن « دانجلر » يبيع ما عنده هبط سعر الأسهم الأسبانية فى الحال .. وقد خسر « دانجلر » فى البيع خمسمائة ألف فرنك ، ولكنه تخلص من جميع أسهمه الأسبانية .. وفى الليلة نفسها نشرت جريدة (لوميساجير) النبأ التالى :

« من مراسلنا ، بالبرق : غافل الملك « دون كارلوس » حراسه فى (بورج) ، وعاد إلى أسبانيا مخترقا حدود (قطالونيا) ، فهبت (برشلونة) لمؤازرته ونصرته ! » .

وفى تلك الأمسية لم يكن للناس من حديث غير بعد نظر « دنجلر » وحظه المواتى الذى جعله يبيع كل أسهمه الأسبانية قبل انهيار أسعارها بساعات ، فلم يخسر فيها غير خمسمائة

ألف فرنك ، فى حين خسر الذين لم يبيعوا أسهمهم والذين اشتروا أسهمه خسارة مروعة تجعلهم فى عداد المفلسين .

وفى صباح اليوم التالى نشرت صحيفة (لومونيتور) التكذيب التالى : « لم يكن للنبأ الذى نشرته (لوميساجير) أمس عن فرار الملك « دون كارلوس » من منفاه والثورة التى شبت فى برشلونة أى نصيب من الصحة .. فالملك ما زال فى (بورج) لم يبرحها ، وشبه الجزيرة ينعم بسلام وسكينة تامين .. وقد نتج الخطأ عن رسالة برقية أسىء تفسيرها بسبب الضباب الذى كان منتشرا أمس ! » .

وعلى أثر نشر هذا التكذيب عادت أسعار الأسهم فارتفعت إلى أكثر مما كانت قبل الهبوط ، فبلغت خسارة « دانجلر » من البيع مليون فرنك !

وما وافت الساعة الخامسة مساء حتى وصل الكونت « دى مونت كريستو » إلى منزله الريفى فى « أوتوى » ، يتبعه « على » خادمه العربى الأمين . وفى تمام الساعة السادسة سمع وقع حوافر جواد عند مدخل البيت .. وكان « مكسيمليان موريل » هو الفارس القادم !

وفى اللحظة نفسها وصلت عربة تجرها جياد مطهمة يحف بها جوادان آخران يمتطى صهوتهما رجلان، هبط أحدهما — وكان « دبراى » سكرتير وزير الداخلية — وتقدم نحو باب العربة ففتحه ومد يده لراكبتها البارونة ، فأخذت يد الشاب بطريقة لم تغب عن فطنة الكونت « دى مونت كريستو » ، ثم

لاحظ الكونت ايضا ان البارونة دست فى يد الشاب ورقة صغيرة ، و قد فعلت ذلك فى يسر وسهولة ، شأن المرأة التى الفت هذه المناورات !

وفى اعقاب البارونة هبط « دانجلر » من العربة وقد شحب وجهه كأنه خارج من قبره لا من عربته !

ثم القت البارونة على الفناء المحيط بها وعلى واجهة المنزل نظرة استطلاع سريعة لم يغب مغزاها على الكونت ، وراحت تصعد السلم وهى تقمع انفعالها جاهدة !

وعلى اثر ذلك اعلن رئيس الخدم وصول البكباشى « بارتلميو كافالكانتى » والكونت « اندريا كافالكانتى » . ودخل الاثنان يختالان فى ثيابهما الجديدة الأنيقة !

وفجأة شحب وجه « برتوشيو » وكيل الكونت « دى مونت كريستو » ، حين وقع بصره من خلال باب الدخول المفتوح على مصراعيه ، على المرأة التى تصعد السلم ، فهتف هامسا لسيده : « رباه !.. هذه المرأة ذات الثوب الأبيض والجواهر الثمينة ..! » .

فسأله سيده : « مالها ؟ .. إنها مدام « دانجلر » ! » .

— لست اعرف اسمها ، لكنها هى بعينها العشيقة التى رأيتها فى هذه الحديقة بالذات ليلة الجريمة .. المرأة التى كانت تنتظر مولودا ، والتى رأيتها من خلال السور تتمشى بين الأشجار فى انتظار ..

— فى انتظار من ؟

وثقل لسان « برتشيو » فى حلقه ووقف شعر رأسه فزعا ! وهو يحملق فى الداخلين ويشير نحو مسيو « دى فيلفور » وكأنه يشير إلى شبح قائم من بين القبور : « فى انتظار هذا .. إذن فأنا لم اقتله ؟ » .

فقال له الكونت : « طبعا ما دمت تراه حيا امامك الآن فأنت لم تقتله ! إنك قد طعنته بين الضلعين السادس والسابع . حسب مألوف عادتكم أيها القرويون ، فى حين كان ينبغى ان تطعنه فى مكان يعلو أو يهبط قليلا عن ذلك الموضع .. فإن هؤلاء المحامين يتشبثون بالحياة اكثر من سواهم ! .. والآن انظر إلى المسيو « أندريا كافالكانتى » ، الشاب ذى السترة السوداء ..! » .

وكاد « برتوشيو » يصرخ بدهشة، لو لم تسكته نظرة حازمة من سيده . فاكتفى بأن غمغم «بنديتو» .. وإذ ذاك قال له الكونت متجاهلا كل ما مضى : « الساعة الآن السادسة والنصف . وقد امرت بإعداد العشاء فى هذه الساعة . ولست احب الانتظار ! » .. ثم تركه وعاد إلى ضيوفه ، فى حين استند « برتوشيو » إلى الجدار حتى تمالك نفسه فمضى متجها إلى غرفة الطعام !

وبعد خمس دقائق فتح « برتوشيو » باب القاعة المفضى إلى الصالون على مصراعيه وصاح : « العشاء معد ! » .

وهنا نهض الكونت « دى مونت كريستو » فقدم ذراعه إلى السيدة البارونة « دانجلر » وقادها و « دى فيلفور » إلى الحديقة ، حيث وجدوا « دانجلر » يتناول قدحا من القهوة

وقد جلس بين « كافالكانتى الأب ، وكافالــكانتى الابن » .. فقال الكونت بعد أن مهد لحديثه :

ـ لكم أن تصدقونى أو لا تصدقوا .. لكنى أعتقــد أن جريمة ما قد ارتكبت فى هذا المنزل !

فهتفت السيدة « دى فيلفور » : « خذ حذرك ، فإن قاضى التحقيق موجود هنا ! » .

فأجاب الكونت على الفور : « إذا كان الأمر كذلك فسأنتهز فرصة وجوده كى أعلن ما عندى أمام شهود .. تعالوا من هذا الطريق يا سادة ، تعال يا مسيو « دى فيلفور » . فإن ما سأعلنه ينبغى أن يعلن فى مواجهة السلطات المختصة ! » .

ثم أخذ ذراع « دى فيلفور » من ناحية وذراع البــارونة « دانجلر » من الناحية الأخرى ، وقادهما إلى ظل إحــدى الأشجار الكثيفة ، فتبعهما الباقون .. ثم قال الكونت فجأة وهو يدق الأرض بقدمه :

ـ هنا .. فى هذه البقعة بالذات ، كان بستانى يحفــر الأرض كى يزودها بتربة جديدة خصبة تعين هذه الأشجار القديمة على الإزهار ، فعثر على هيكل صندوق صــغير من الحديد ، بداخله بقايا جثة طفل وليد !

وأحس الكونت « دى مونت كريستو » بذراع البــارونة « دانجلر » يتصلب ، وذراع « دى فيلفور » يرتجف ، فى حين تساءل البكباشى « كافالكانتى » فى براءة :

ـ وبماذا يقضى القانون هنــا على قتلة الأطفال الحديثى الولادة ؟

فأجابه « دانجلر » : « بالإعدام طبعا ! » .

وإذ رأى الكونت أن الشخصين اللذين أعد من أجلهما هذا المشهد يعجزان عن تحمل وطأته ، ورغبة منه أن يتــدارك الأمر عند هذا الحد ـ مؤقتا ـ قال فى بساطة متقنة :

ـ هيا أيها السادة نتناول القهوة ، لقد كدنا ننساها !

ولم يتكلم « أندريا » إلا قليلا خلال العشاء ، فقد كان فتى ذكيا ، خشى أن ينطق بحماقة ما أمام هذا الجمع الحاشد من علية القوم ، الذين كان من بينهم رجل القانون والمالى الكبير ... إلخ ـ وكان « دانجلر » قد نقل بصره بين الأب والابن اللذين تبدو عليهما مظاهر الثراء الفاحش ، فخيل إليه أنه فى حضرة أمير من أمراء بلد شرقى بعيد قد أحضر ابنه ليتم تعليمه فى باريس !.. فلما انتهى العشاء راح « دانجلر » يستجوب عميلى بنكه الجديدين عن أسلوبهما فى المعيشــة ، بحجــة التحدث فى « الأعمال » . فأبدى كلاهما من اللطف والدماثة فى الاستجابة لفضوله ما أدهشه !

وخلال الحديث ، خاطبه « كافالكانتى » الأب قائلا فى أدب مفرط :

ـ سوف يسرنى أن أتشرف غدا يا سيدى بزيارتك بصــدد بعض الأعمال .

فأجابه « دانجلر » : « وسوف يسعدنى أن أستقبلك » .

ثم عرض عليه البارون أن يأخذه فى عربتـــه إلى حيث يقيم بفندق « دى برانس » .. ما لم يحرمه ذلك من صحبة ابنه .. فأجاب الضابط على هذه العبارة الأخيرة بقوله :

— إن ابنى قد ألف أن يعيش بعيدا عنى ، وأن لكل منــا عربته وجياده ، بحيث يستطيع أن يذهب ويجىء مستقلا عن الآخر !

وهكذا استقل الأب عربة « دانجلر » وجلس إلى جواره ..

أما الابن فقد نادى حوذيه وراح يعنفه لأنه وقف بعربتـــه أمام الباب الخارجى لا الداخلى ، الأمر الذى سيكلفه أن يمشى على قدميه ثلاثين خطوة حتى يبلغ مكانها ! .. وإذ فرغ الشاب من هذا التأنيب وتأهب للركوب أحس يدا توضع على كتفه ، فلما التفت طالعه وجه قد لوحته الشمس ذو لحية كثة وعينين براقتين وأسنان حادة مدببة كأسنان الذئب أو ابن آوى ، وقد ربط رأسه بمنديل أحمر وارتدى ثيابا قذرة ممزقة لا تكاد تستر عظامه النحيلة الشبيهة بهيكل عظمى .. وكانت يده التى وضعها على كتف الشاب بالغة الضخامة ، فذعــر لرؤيتـه وتراجع متسائلا : « ماذا تريد منى ؟ » .

فأجابه الرجل ذو المنديل الأحمر :

— اغفر لى يا صديقى إزعاجى إياك ، لكنى أريد أن أتحدث إليك ، وأن تجنبنى مشقة العودة إلى باريس على قدمى ، إنى جائع جدا .. ولم أتناول عشاء فاخرا مثلك ! وهاأنذا لا أكاد

أقوى على الوقوف .. ومن ثم أريد أن تحملنى معك فى عربتك .. فهل فهمت يا سيد « بنديتو » ؟

ولدى سماع هذا الاسم فكر الشاب فى الأمر لحظة ، ثم اتجه إلى حوذيه ، قائلا :

— هذا رسول كلفته بمهمة وقد جاء ليبلغنى أنباءها .. فاذهب أنت بأية وسيلة أخرى واتركنا فى العربة وحدنا .

وانسحب الحوذى متعجبا ، وانطلق الرجلان بالعربة ، حتى غادرا حدود « أوتوى » ؛ وإذ ذاك تلفت الشاب حوله ليستوثق من أن أحدا لا يمكن أن يراه أو يســمعه ، ثم عقــد ذراعيه فوق صدره وابتدر الرجل الغريب ، قائلا :

— لماذا جئت تزعج حياتى ؟

فقال الرجل : « دعنى أسألك أولا لم خدعتنى ؟ لقــد ذكرت لى عندما افترقنا فى (بون دى فــار) أنك ذاهب إلى إقليمى (بيدمونت) و (توسكانى) ، لكنك بدلا من ذلك جئت إلى باريس ! » .

فقال له الشاب : « إذن أنت تتجسس على حركاتى ؟ .. دعنى أحذرك يا سيد (كادروس) من مغبــة ذلك .. والآن حدثنى ماذا تريد منى ؟ » .

فقال « كادروس » : « أعتقد أنى أستطيع العيش بمبلغ مائة فرنك فى الشهر ، لكنى لو حصلت على مائة وخمســين أكون أسعد حالا » .

وهنا مد إليه الشاب يده بمائتى فرنك وقال له : « فى وسعك ان تمر على وكيلى فى بداية كل شهر فيعطيك مثل هذا المبلغ .. والآن وقد حصلت على مبتغاك ، وصرنا متفاهمين .. اقفز من العربة واغرب عن وجهى ! » .

***

فى اليوم التالى أمر « دانجلر » حوذيه بأن يحمله فى عربته إلى المنزل رقم ٣٠ بشارع الشانزليزيه ، حيث يقيم الكونت « دى مونت كريستو » ، وهناك استقبله الكونت مرحبا ، وقال له :

ــ إنك تبدو متعبا محطما يا عزيزى البارون ، بحيث يزعجنى أمرك ..

ــ لقد طاردنى سوء الحظ خلال الأيام الأخيرة ، فتوالت على الأنباء السيئة .. وقد بلغنى اليوم نبأ جديد ، هو أن ماليا آخر فى (تريستته) قد أشهر إفلاسه !

ــ حقا ؟ ترى هل يكون هذا المالى «جاكوبو مانفريدى ؟» .

ــ هو بعينه !.. هل تصدق أن يفلس مالى مثله كان طيلة السنوات الطويلة التى تعاملت معه خلالها مثالا للانتظام فى الدفع ، دون اية مماطلة !

ــ إذن فقد خسرت ما يقرب من المليونين هذا الشهر ؟

ــ نعم ، ولهذه المناسبة حدثنى عما يطلب منى ان اعطيه لمسيو « كافالكانتى ؟ » .

ــ إذا كان أحد قد أوصاك به وكانت التوصية موثوقا بها ، فلا بأس فى أن تعطيه ما يطلب من مال .

ــ لقد قدم لى هذا الصباح صكا بمبلغ أربعين ألف فرنك مسحوبا عليك ومحولا منك إلى ، وهو بتوقيع « بوزونى » .. وقد صرفت قيمته له فورا بالطبع .. ولكن هذا ليس كل شىء ، فقد فتح عندى حسابا لابنه هذا الصباح ايضا !

ــ هل لى أن اسألك كم يعطى ابنه من المال ؟

ــ خمسة آلاف فرنك شهريا !

ــ اى ستين الفا فى السنة ؟.. لقد صدق ظنى فى مبلغ تقتير الرجل وشحه .. كيف يعيش شاب مثله بخمسة آلاف فرنك فى الشهر ؟

ــ ولكن فى وسع الفتى إذا اراد ان يحصل على بضعة آلاف اخرى !

ــ إياك أن تدفعها له ، فلن يسددها الأب لك .. إنك لا تعرف هؤلاء الأثرياء المحدثين ، إنهم غاية فى البخل !

ــ الا تثق « بكافالكانتى ؟ » .

ــ أنا .. إنى ادفع ستة ملايين من الفرنكات بضمان توقيعه لا غير !

فقال « دانجلر » فى عدم مبالاة : « آه .. إن النبلاء يتزاوجون فيما بينهم ، فهم يحبون أن يوحدوا ثرواتهم ! » .

ــ هذا طبيعى .. وقد احضر ابنه إلى فرنسا لينتقى له زوجة !

ـ آه .. إذن فسوف يجد له اميرة من « بافاريا او بيرو »، فهو يطمع فى تاج او ثروة طائلة !

ـ كلا ، بل إن هؤلاء السادة العظام الذين يعيشــون فى الجانب الآخر من الألب غالبا ما يتزوجون من اسرات بسيطة، ولذا لا احسبك تفكر فى الآنسة « دانجلر » ، إلا إذا اردت ان يموت أندريا ، مذبوحا بيد « ألبرت » المسكين !

فقال « دانجلر » وهو يهز كتفيه : « البرت » ؟ آه .. إنه لن يعبأ بالأمر كثيرا فيما اعتقد ! » .

ـ كيف ؟ اليست مخطوبة له ؟

ـ لقد تحدثنا فى الأمر ، انا وابوه المسيو «دى مورسيرف» .. لكن مدام « دى مورسيرف ، والبرت » ..

ـ لا احسبك تعنى أنها لن تكون صفقة موفقة !

ـ إنى افضل «مسيو » اندريا « كالفالكانتى » على مسـيو « البرت دى مورسيرف » ، فبرغم انى لم اولـد بارونا من النبلاء ، فإن اسمى الحالى هو اسمى الأصلى الحقيقى على اية حال ، اما هــو فليس اسـمه « مورسـيرف » .. إن « مورسيرف » كان صيادا حقيرا يدعى « فرناند موندیجو »

ـ إذن لماذافكرت فى إعطائه ابنتك ؟

ـ لأن كلا من « فرناند ، ودانجلر » قد صار نبيلا وغنيا ، مساويا للآخر فى مركزه الأدبى ، فيما عدا ان هنــاك بضـعة أشياء تقال عنه ولا تقال عنى انا مثلا !

ـ هذا الذى تقوله يذكرنى بأنى سمعت اسم « فرنانـدو مونديجو » يقرن فى بلاد اليونان باسم « على باشا » !

ـ هذا هو السر الذى انا على استعداد لأن أدفع أى ثمن فى سبيل الوقوف عليه !

ـ الأمر غاية فى السهولة .. اكتب إذا شئت إلى وكيلك فى « اثينا » واساله عن الدور الــذى لعبه فـرنسى يدعى « فرناند مونديجو » فى كارثة « على باشا ! » .

فقال « دانجلر » وهو ينهض مسرعا : « انت على حــق .. سأكتب إليه اليوم ! » .

* * *

اقتيدت مــدام « دانجلر » خــلال ممر خاص نحــو مكتب « مسيو دى فيلفور » فوجدته جالسا فى مقعده يكتب ، وظهره إلى الباب .. ولم يتحرك حتى سمع الباب يفتح والحــاجب يقول للزائرة ! « تفضلى بالدخول يا سيدتى » ، ثم يغــلق الباب من جديد .. لكن خطوات الحاجب لم تكد تبتعد حتى نهض قاضى التحقيق فاغلق خشب النوافذ والستائر وفحص كل ركن فى الغرفة ، ثم قال :

ـ مضى زمن طويل منذ كانت لى متعة التحدث إليك على انفراد يا سيدتى .. وإنه ليحزننى اننا لم نلتق اليوم إلا لنتبادل حديثا مؤلما ، فاستجمعى كل شجاعتك يا سيدتى ، فانك لم تعرفى بعد غير طرف من الموضوع !



وكانت البارونة تعرف مبلغ هدوء « دى فيلفور » الطبيعى فى الأحوال العادية ، فأفزعها ما بدا من انفعاله بحيث فتحت فاها لتصيح ، لكن الصيحة اختنقت فى حلقهـا .. فى حين استطرد هو فقال :

ــ ارأيت كيف بعث ماضينا الرهيب من مرقده فى أعماق ضمائرنا حيث دفن .. كى يمثل أمامنا الآن مثـل الشـبح ، فيجلل وجوهنا بالعار ويكسوها شحوب الأموات ؟ » .

فقالت له هرمين : « إنها المصادفة ولا شك ! » .

ــ المصادفة ؟ .. كلا يا سيدتى !.. لا يوجد شىء اسمه المصادفة !

ــ بل يوجد .. أليست المصادفة التى كشفت كل ذلك ؟ أليست هى التى جعلت الكونت « دى مونت كريستو » يبتاع هذا البيت بالذات ، ويحفر أرض الحديقة فى ذلك الموضـع بالذات ، فيعثر على الطفل التعس مدفونا تحت الشجرة ؟ ،. ذلك المخلوق البرىء المسكين الذى ولد منى ولم استطع حتى أن أقبله مرة واحدة ، والذى طالما بكيته بدموعى الحارة ؟ » .

فأجابها « دى فيلفور » فى صوت أجوف :

ــ كلا يا سيدتى .. وهذا هو النبأ الرهيب الذى أصارحك به اليوم .. لم يوجد شىء مدفونا تحت الشجرة ، لم توجـد جثة طفـل .. إنك لا ينبغى أن تبكى ، بل يجب أن ترتجفى هلعا ..! » .

ــ إذن فأنت لم تدفن طفلى المسـكين هنـاك ؟ لماذا إذن خدعتنى ؟. أين وضعته ؟ قل لى .. أين ؟

ــ هناك ! ولكن أصغى إلى .. ولسوف ترثين لحال شخص حمل العبء الثقيل وحده طيلة عشرين عاما .. العبء المفجع الذى يوشك أن يبوح لك بسره الآن ، دون أن يلقى أبسط جزء منه على عاتقك ! فمنذ عدت إلى وعيى بعـد أن شفيت من طعنة ذلك الكورسيكى اللعين ، جعلت همى أن ابحث عن جثة الطفل ، فعمدت إلى الاستفسار فورا عن مصير البيت الذى كنا نلتقى فيه ، وحين علمت أن أحدا لم يقطنـه منذ تركناه هرعت إليه من فورى ، فلم أدع موضعا من الحديقة لم اضربه بفأسى ، آملا أن تصطدم الفأس بسطح الصـندوق الحديدى، ولكن دون جدوى!.. لم أعثر على شىء!.. فجعلت أسائل نفسى : « ما الذى يجعل ذلك الرجل ، يأخـذ جثة الطفل ؟ إن الأجسـام الميتة لا تقتنى بل تعرض على قاضى التحقيق كى يستقى منها الأدلة التى يريدها ثم تدفن .. لكن شيئا من هذا لم يحدث !

فتساءلت هرمين وهى ترتعد فى عنف : « إذن ما الـذى حدث ؟ » .

ــ شىء أفظع وأقسى عاقبـة ! .. قد يكون القاتل وجد الطفل حيا فأنقذه !

وهنا أطلقت البارونة « دانجلر » صيحة ثاقبة وأمسكت يد « دى فيلفور » هاتفة :

— ابنى كان حيا ؟ .. هـل دفنته حيا ؟ دفنتـه دون ان تستوثق من موته ؟.. رباه !

— لست ادرى ، وإنما انا افترض ذلك ، كما افترض اى فرض آخر ..!

وزاغت عينا الرجل ، ودلت نظرته على ان عقله الثاقب قد بلغ حافة اليأس والجنون .. وراح يغمغم :

— إذا كان الأمر كذلك ، وصح هذا الفرض فإننا نكون قد هلكنا !.. يكون الطفل ما يزال على قيد الحياة ، ويكون هناك شخص يعرف سرنا .. وما دام «الكونت دى مونت كريستو» قد تحدث أمامنا عن طفل وجد فى الحديقة ، فى حين ان ذلك الطفل لا يمكن ان يكون قد وجد .. إذن فهو الذى يقف على سرنا !

وبعد بضعة ايام كان « دى فيلفور » جالسا فى بيته مكتئبا ، حين سمع صوت عجلات تدنو من الباب ، ثم تلاه وقع خطوات تصعد السلم .. وفتح الباب بعد ذلك ، فدخلت منه عجوز تحمل معطفها على ذراعها وقبعتها فى يدها .. وكان منظرها مؤلما : بشعرها الأبيض ، وجبينها الأصفر ، وعينيها اللتين غضنتهما الشيخوخة وكادتا تختفيان وراء اجفانها التى قرحها البكاء !

وهتفت المرأة فى لوعة : « أواه يا سيدى !.. اية كارثة حلت بى !.. إننى سأموت حزنا بلا شك ! » .

فنهض « دى فيلفور » وخف لاستقبال حماته .. الأولى .. متسائلا :

— ماذا حدث ؟. ما الذى أزعجك ؟.. هل مسيو « دى سان ميران » معك ؟

فأجابت المركيزة العجوز دون مقدمات ، ودون اى تعبير على وجهها ، من فرط ذهولها : « إن مسيو دى سان ميران قد مات » .

فتراجع « دى فيلفور » وهو يضم يديه صائحا : « مات ؟ هكذا فجأة ؟ »

فقالت المركيزة : « منذ أسبوع خرجنا معا فى العربة بعد الغداء . وكان زوجى متوعك الصحة منذ ايام ، لكن فكرة رؤية عزيزتنا « فالنتين » مرة اخرى أمدته بالشجاعة ، فأغفل أمر مرضه .. وعلى بعد ستة فراسخ من مرسيليا ، بعد تناول الأقراص التى ألف تناولها ، نام نوما عميقا إلى درجة شعرت معها أنه نوم غير طبيعى . . لكنى ترددت مع ذلك فى إيقاظه ، ولو أنى لاحظت احتقانا فى وجهه ، وعنفا غير عادى فى نبضات عروق صدغه !.. ولم البث ان اغفيت انا بدورى ، ثم صحوت بعد حين على حشرجة كالتى تصدر من شخص يتألم من كابوس .. وفجأة ألقى رأسه إلى الخلف بشدة ، فاستعملت الأملاح التى تزيل الإغماء .. لكن كل شىء كان قد انتهى ! ولم نصل إلى (ايكس) حتى كان جثة هامدة ! »

وكان « دى فيلفور » يصغى إلى القصــــة وقد فغر فاه من فرط ذهوله .. ولم ينطق بحرف .

❋ ❋ ❋

وفى مساء اليوم التالى غادر « دى فيلفور » المنزل ومعه الطبيب .. وقال الأول لمرافقه :

ــ اواه يا عزيزى ! .. لقد اعلنت السماء الحــرب على بيتى !.. يالها من ميتة فظيعة ، اية كارثة! لا تحاول مواساتى، فما من شىء يستطيع ان يخفف من فداحة حزنى ، إن الجرح عميق وحديث ! » .

فاجابه الطبيب : « يا عزيزى « دى فيلفور » ، ما صحبتك إلى هنا كى أواسيك ، بل على العكس ، فان وراء الخطب الذى أصابك خطبا آخر أمر وادهى . لقــد ماتت المركيــزة « دى سان ميران » من جرعة قوية من (بروسين الستركنين) لعلها قد اعطيت لها خطا » .

فتناول دى فيلفور يد الطبيب وقال : « هذا مستحيل .. لا بد انى احلم ! » .

ــ هل للمركيزة « دى سان ميران » اعداء ؟

ــ لست اعلم ان لها اى اعداء !

ــ الا يحتمل ان يكون الخادم « باروا » قد اخطا فاعطاها جرعة ، كانت معدة لسيده ؟

ــ لا أدرى .. ولكن كيف يكون دواء مســيو « نوارتييه » ساما للمركيزة ؟

ــ هذا أمر غاية فى البساطة ، فهناك سموم تغدو أدوية للعلاج فى بعض الحالات ، ومنها حالة الشلل .. وقد وصفت لمسيو « نوارتييه » فى آخر زيارة ست حبات من (البروسين) ، وهى جرعة يحتملها هو لأنه اخذ من المادة جرعات سابقة صغيرة ، لكنها لو اعطيت لأول مرة لأى إنسان لقتلته فورا !

ــ ولكن ليس هناك يا عزيزى اى اتصال بين جناح مسيو « نوارتييه » وجناح المركيزة « دى سان ميران » ، ولم يدخل « باروا » مخدع حماتى قط !

ــ يا عزيزى « دى فيلفور » ، لو كان فى طاقة الطب ان ينقذ المركيزة « دى سان ميران » لانقذها ، لكنها قد ماتت .. وواجبى الآن ينحصر فى حمــاية الأحياء . فلندفن هــذا السر الرهيب فى أعمق اعماق قلوبنا . وأنا على استعداد ــ فيما لو ارتاب أحد فى الأمر ــ أن أعزو سكــوتى عن التبليغ إلى جهلى .. وفى اثناء ذلك عليك أن تشدد رقابتك ، فلعل الشر لا يقف عند هذا الحد .. وحين تكتشف المجرم ــ إذا عثرت عليه ــ سأقول لك : « أنت قاضى تحقيق وأعرف بواجبك ! » .



- ١٧ -

سر مصرع الجنرال

على اثر الجنازة المزدوجة للمركيز والمركيزة « دى سان ميران » عاد « دى فيلفور » بصحبة « فرانز دبيناى » إلى حى (سانت اونوريه) ، فمضى القاضى إلى مكتبه مباشرة ، دون ان يعرج على حجرة زوجته او ابنته .. وهناك قدم للشاب مقعدا وهو يقول له :

— مسيو « دبيناى » اسمح لى ان اذكرك فى هذه اللحظة بأن الفقيدة قد اعربت ، وهى على فراش الموت ، عن رغبتها فى الا يتأخر زفاف « فالنتين » عن موعده . وليس فى هذا الأمر ما يجافى الذوق كما قد يبدو لأول وهلة ، فان تنفيذ رغبات الموتى أول ما يجب لهم على الأحياء !

فقال الشاب : « كما تشاء يا سيدى ! » . وواصل « دى فيلفور » كلامه قائلا :

— إذن ارجو ان تتكرم بالانتظار نصف ساعة ريثما تهبط « فالنتين » من غرفتها .. وسأرسل فى استدعاء مسيو « دبشان » كى تقرا عقد الزواج وتوقع عليه قبل ان نفترق .. ولسوف تصحب السيدة « دى فيلفور » فالنتين الليلة إلى ضيعتها ، على ان نلحق بهما بعد اسبوع !

وحين حضر مسجل العقود ابتدر « فرانز » بقوله :

— ينبغى ان اخبرك يا سيدى ، بناء على طلب مسيو

« دى فيلفور » بأن زواجك المرتقب من الآنسة « دى فيلفور » قد غير عواطف مسيو « نوارتييه » نحو حفيدته ، فجردها من ثروته التى كانت سترثها !.. واضيف إلى ذلك أن الموصى — الذى لا يملك غير حق التصرف فى جزء من ثروته فقط — قد تصرف فى ثروته كلها ، الأمر الذى يجعل الوصية قابلة للطعن والإلغاء !

وهنا اردف مسيو « دى فيلفور » : « نعم . لكنى أبادر فانبه مسيو « دبيناى » إلى أن وصية ابى لن ينازع فيها خلال حياتى ، فإن مركزى يحول دون تجريحها ! » .

ولم يكد يفرغ من هذا القول حتى فتح الباب وبرز على عتبته « باروا » وقال : « سادتى . إن مسيو « نوارتييه » يرغب فى ان يتحدث الآن إلى مسيو « فرانز دبيناى » ! » .

فالتفت « دى فيلفور » إلى ابنته وقال لها : « فالنتين » .. يجب ان تذهبى لتبحثى هذه النزوة الجديدة من جانب جدك ! » .

فنهضت الفتاة على عجل واسرعت نحو الباب مغتبطة ، ولكن صوت ابيها ما لبث أن لاحقها إذ غير رايه فقال : «انتظرى .. ساذهب معك ! » .

وكان « نوارتييه » متأهبا للقائهم ، فلما دخل الأشخاص الثلاثة الذين كان ينتظرهم ، نظر إلى الباب .. فاغلقه خادمه، وإذ ذاك همس « دى فيلفور » فى اذن ابنته ، التى عجزت عن إخفاء فرحتها : « اصغى إلى .. إذا اراد مسيو « نوارتييه» أن يتخذ اى إجراء يؤخر موعد زواجك فانى امنعك من ان تفهمى إشارته ! » .

واوما نوارتييه إلى فالنتين كى تقترب ، وادركت هى من اول إشارة ان جدها يريد مفتاحا .. ثم استقرت عيناه على درج فى خزانة صغيرة تقع بين النوافذ ، ففتحت الدرج ، ووجدت مفتاحا ، وهنا ادار الشيخ المشلول عينيه نحو منضدة مكتب صغيرة مهملة منذ سنوات ، بحيث ما كان احد ليعتقد انها تضم أوراقا ذات قيمة .. ففتحتها الفتاة واخرجت منها حزمة من الأوراق مربوطة برباط أسود ، تناولها « فرانز » وقرأ على غلافها هذه العبارة : « تسلم عقب وفاتى إلى الجنرال « دوران » ، الذى سوف يوصى بالحزمة إلى ابنه بعد أن ينبهه إلى ضرورة المحافظة عليها باعتبارها تضم مستندات هامة » .

ثم فض « فرانز » الحزمة وقرأ بصوت مسموع وسط سكون الحجرة : « صورة من محضر جلسة نادى انصار « بونابرت » الكائن بشارع سان جاك ، يوم ٥ فبراير سنة ١٨١٥ » .

وعندئذ توقف « فرانز » عن القراءة وقال : « ٥ فبراير سنة ١٨١٥ .. إنه اليوم الذى قتل فيه ابى ! » .

فلم ينبس « دى فيلفور » أو « فالنتين » بكلمة ، فى حين اوما الشيخ المشلول إلى الشاب كى يواصل القراءة .. لكن هذا قال وكأنه يحدث نفسه : « لقد اختفى ابى عند مغادرته هذا النادى ! » .. فلما استحثته عين المريض ، واصل القراءة : « يعلن الموقعون على هذا المحضر انهم قد تلقوا يوم ٤ فبراير خطابا من جزيرة (البا) يوصى بأن يضم النادى

إلى عضويته « الجنرال فلافيان دى لينيل » الذى خدم الإمبراطور من سنة ١٨٠٤ إلى ١٨١٤ وما زال يخص بعواطفه أسرة « نابليون » ، بغض النظر عن لقب (البارون) وضيعة (ديبيناى) اللتين منحه إياهما لتوه الملك « لويس » الثامن عشر !.. ومن ثم طلب المجتمعون إلى المرشح الجديد أن يحضر الجلسة التى تعقد فى اليوم التالى — ٥ فبراير — فلما حضر بدأ الحاضرون يستجوبونه عن عواطفه السياسية ، ولكنه اكتفى بالقول إنها واضحة من الخطاب المرسل من جزيرة (إلبا) ، فحاول الرئيس إغراءه بأن يتكلم بمزيد من الوضوح والتحديد .. وحين شدد المجتمعون عليه الخناق قال : « لم تمض أيام على إعلان ولائى للملك « لويس » الثامن عشر ، بحيث يصعب على ان احنث بعهدى فانضم إلى الإمبراطور السابق ! » .. وكان الرد من الوضوح بحيث لا يدع مجالا للشك فى حقيقة عواطف الرجل .. فنهض الرئيس وقال يخاطب الجنرال : « سيدى ، إن كلامك يدل بوضوح على أن سلطات جزيرة (إلبا) خدعت فيك وخدعتنا ، ونحن لن نجبرك على أن تساعدنا ضد ضميرك ، لكننا سنرغمك على ان تتصرف تصرفا كريما ! » ، فأجاب الجنرال : « تقصدون ان اقف على مؤامراتكم ولا ابلغ عنها ؟ إنى اسمى هذا اشتراكا معكم فيها .. وهكذا ترون انى اكثر صراحة منكم ! » . فأجابه الرئيس : « إن احدا لم يرغمك على حضور هذا الاجتماع ، وانت من الفطنة بحيث تدرك موقفنا الحالى ، وصراحتك تملى علينا الشروط التى ينبغى أن نفرضها عليك ! » .. فنظر

الرجل فيما حوله فى قلق ، ثم تذرع بكل صلابة وقال : « إننى لن أقسم يمين الولاء » .. وعندئذ قال له الرئيس فى هدوء : (إذن يجب أن تموت) .. ونهض الرئيس فأشار إلى ثلاثة من الأعضاء كى يتبعوه ، ثم ركب الجميع العربة مع الجنرال بعد أن عصبوا عينيه .. حتى بلغوا ذلك الجزء من رصيف (أورم) الذى يقود سلمه إلى النهر ، وهناك وضع المصباح على الأرض ووقف الخصمان متواجهين .. ثم بدأت المبارزة .. وبرغم أن الجنرال « ديبيناى » كان من أبرع رجال الجيش فى المبارزة ، فإنه سقط ميتا بعد خمس دقائق .. وعندئذ ألقيت جثته فى النهر وعاد الشهود من حيث أتوا . وهكذا يتبين أن الجنرال مات فى مبارزة شريفة وليس فى كمين غادر كما أشيع ، وقد حررنا هذا المحضر وذيلناه بتوقيعاتنا إثباتا لهذه الحقيقة ، خشية أن يجىء اليوم الذى يتهم فيه احد ظلما بقتل الرجل عمدا أو بخرق قواعد الشرف وأصول المبارزة ، التوقيعات : « بوربير .. ديشامبى .. ليشابال » .

وهنا قال « ديبيناى » يحدث « نوارتييه » : « سيدى ، ما دمت على علم بكل هذه التفصيلات التى يقرها شهود شرفاء، وما دمت تهتم بأمرى — برغم أنك أظهرت هذا الاهتمام فى صورة عكسية سببت لى مزيدا من الأسى — فلا تضن على بإجابة مطلب واحد اخير : اذكر لى اسم رئيس ذلك النادى ، حتى أعرف على الأقل اسم قاتل أبى ! » .

ثم التفت إلى « فالنتين » وقال لها : « آنستى ، ضمى جهدك إلى جهدى كى نكتشف اسم الرجل الذى جعلنى يتيما فى سن الثانية من عمرى ! »

لكن « فالنتين » بقيت جامدة صامتة ، فى حين نظر « نوارتييه » إلى القاموس ، فتناوله « فرانز » وهو يرتجف فى عصبية وراح يكرر على مسمع المريض جميع الحروف الأبجدية على التتابع حتى أوقفه هذا عند حرف (أ) ثم عند حرف (ن) ثم حرف (أ) وهى الحروف التى تكون كلمة « أنا » .. فهتف « فرانز » مذعورا : « أنت ؟.. أنت يا مسيو « نوارتييه » الذى قتلت أبى ؟ » .

فأجاب » نوارتييه « وهو ينظر إلى الشاب نظرة ذات جلال :

— نعم !

وإذ ذاك تهالك « فرانز » على المقعد خائر القوى ، فى حين فتح « دى فيلفور » الباب ولاذ بالفرار ، فقد راودته فكرة إخماد البقية الباقية من الحياة فى قلب الشيخ المسن الرهيب !



– ١٨ –

فى سوق الرقيق

جلس الكونت «دى مونت كريستو» ، والبرت دى مورسيرف – بعد عودتهما من حفلة استقبال فى بيت « دانجلر » – يتناولان الشاى فى صالون منزل الكونت ، ثم تطلع «مورسيرف» نحو الباب الذى كانت تنبعث من ورائه أصوات تشبه أنغام القيثارة .. فقال له الكونت « دى مونت كريستو » :

– لقد قسم لك يا عزيزى الفيكونت أن تسمع الكثير من الموسيقى هذا المساء .. فإنك لم تكد تنجو من بيانو الآنسة « دانجلر » حتى لاحقتك قيثارة « هايدى » .

فقال « البرت » : « هايدى ؟ .. ياله من اسم ساحر ! . هل هناك حقا نساء يحملن اسم « هايدى » .. فى غير شعر « بيرون » ؟ » .

– بلا شك .. إن اسم « هايدى » اسم نادر فى فرنسا ، لكنه شائع منتشر فى (البانيا) وجزيرة (أبيروس) .. وقد ولدت وارثة لكنوز لا تعد كنوز « الف ليلة وليلة » بالقياس إليها شيئا مذكورا !

– لا بد إذن انها اميرة ؟

– انت على حق ، بل إنها من اعظم اميرات بلدها !

– إذن كيف صارت جارية لك وهى اميرة عظيمة ؟

– إنها نتائج الحرب ، يا عزيزى الفيكونت . وتقلباتها ونزواتها !

– وهل اسمها الكامل وشخصيتها سر من الأسرار ؟

– هل تعرف تاريخ « على باشا » والى « يانينا » ؟

– « على باشا » . .أوه ، نعم .. إنه الوالى الذى كون أبى ثروته وهو فى خدمته !

– هذا صحيح ، لقد نسيت ذلك .. إذن فلتعلم أن «هايدى» هى ابنة « على باشا » من الحسناء « غاسيليكى » .

– وكيف صارت جارية لك ؟

– لقد اشتريتها ذات يوم وأنا مار فى سوق القسطنطينية .

– هذه مصادفة رائعة .. ولهذه المناسبة هل لى أن أطمع فى أن تقدمنى إليها ؟

– اقبل ذلك بشرطين : أولهما ألا تبوح يوما لأحد بأنى منحتك هذه الفرصة .. والثانى ألا تخبرها قط بأن أباك كان يوما فى خدمة أبيها !

– حسن ! .. إنى اقبل هذين الشرطين !

***

جلست « هايدى » فى انتظار زائريها فى الحجرة الأولى من جناحها ، وهى حجرة الاستقبال .. وكانت عيناها الواسعتان تنبضان دهشة وترقبا ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يسمح فيها الكونت « دى مونت كريستو » لانسان بزيارتها! ..

وكانت جالسة على أريكة فى زاوية من الحجرة ، وقد عقدت ساقيها تحتها على الطريقة الشرقية .

وقال « البرت » بالإيطالية : « يا مضيفى العزيز ، وسيدتى السنيورة ، اغفرا لى غبائى الظاهر ، فانى جد حائر .. ومن الطبيعى أن أكون كذلك ، فأنا الآن فى قلب باريس ، ومع ذلك احس كأنى نقلت فجأة إلى الشرق .. لا كما رأته عيناى ، بل كما رسمه خيالى .. آه يا سنيورة لو أننى كنت أستطيع أن أتكلم باليونانية ، لكان حديثك الطلى ، بالإضافة إلى المناظر الساحرة الخيالية التى تحيط بى ، يمنحنى سهرة ممتعة يستحيل على أن أنساها !

فأجابت هايدى فى هدوء : « إنى أعرف قليلا من الإيطالية يتيح لى أن أجاذبك الحديث بها .. وإذا كنت مولعا بكل ما هو شرقى فسوف أبذل جهدى كى أتيح لك ما يرضى ذوقك فى أثناء وجودك هنا ! » .

فقال « البرت » للكونت بصوت خافت : « اسمح للسنيورة يا كونت أن تسرد على طرفا من تاريخها . لقد منعتنى من الإشارة إلى اسم والدى على مسمع منها .. ولكن لعلها تشير إليه من تلقاء نفسها فى أثناء الحديث ، وأنت لا تستطيع أن تتصور كم يلذ لى أن أسمع اسم أسرتنا تنطق به هاتان الشفتان الجميلتان ! » .

وهنا التفت الكونت إلى « هايدى » ، ثم قال لها باليونانية ، وعلى وجهه تعبير آمر : « حدثينا بقصة مأساة أبيك ، ولكن دون أن تذكرى اسم الخائن ولا تفصيل الخيانة ؟ » .

فتنهدت « هايدى » من قلب مكلوم ، وكست وجهها سحابة من الحزن .. ثم قالت : « تريد منى إذن أن أسرد تاريخ أشجانى الماضية ؟ حسن !.. كنت فى الرابعة من عمرى حين أيقظتنى أمى فجأة ذات ليلة ، وكنا فى قصر (يانينا) ، فلم أكد أفتح عينى حتى رأيت عينيها مغرورقتين بالدموع .. ثم انتزعتنى من الفراش الوثير الذى كنت نائمة عليه ، دون أن تنبس بكلمة ، كى تلوذ بالفرار .. وقد قيل لى بعدئذ : إن حامية قصر « يانينا » التى أضناها العمل المتواصل ، قد استسلمت « لخورشيد باشا » الذى أرسله السلطان للقبض على أبى .. وبعد قليل كنا جميعا فى (الملجأ) الذى أعده أبى من قبل وأطلق عليه اسم « المخبأ » ، بعد أن أرسل إلى السلطان كتابا مع ضابط فرنسى كان يوليه ثقته الكاملة ! » .

فسألها « البرت » : « ألا تذكرين اسم هذا الضابط يا سنيورة ؟ » .

وهنا تبادل الكونت مع « هايدى » نظرة سريعة لم يلحظها الشاب ، فأجابت قائلة :

ـــ لست أذكره الآن ، ولكن إذا تذكرته فى أثناء حديثنا فسوف أذكره لك !

وهنا كاد « البرت » ينطق باسم أبيه ، لولا أن ذكره الكونت بوعده السابق بإشارة تحذير بسبابته ، فلاذ بالصمت .. فى حين استأنفت الفتاة كلامها ، فقالت :

ـــ كان المخبأ الذى لجأنا إليه جزيرة صغيرة تتوسط إحدى البحيرات ، وكان هناك كهف تحت الأرض ، فلجأت إليه مع

أمى وحاشيتنا من النساء .. وكان فى الكهف ستون الف حافظة تحوى ٢٥ مليون جنيه من الذهب ، ومائتا برميل من البارود بها ثلاثون الف رطل من البارود !.. وإلى جوار البراميل وقف وكيل أبى الوفى المفضل « سليم » يحرس الكهف ليل نهار ، وفى يده حربة مزودة بثقاب دائم الاشتعال .. وكان لديه أمر بأن ينسف الكهف بكل من فيه وما فيه ، حتى إن كان أبى بداخله، فى اللحظة التى يتلقى فيها الإشارة المتفق عليها من قبل !

« وذات يوم ارسل أبى يدعونا إليه ، وكانت أمى قد قضت ليلتها مؤرقة تبكى ، وهى فريسة لأشد حالات التعاسة .. فوجدنا « الباشا » هادئا ، ولكن اكثر شحوبا من المألوف .. .. وابتدر أمى قائلا : « تشجعى يا « فاسيلكى » ، فاليوم يصل المرسوم السلطانى الذى يقرر مصيرى .. فإذا كان قد منحنى عفوا كاملا فسنعود منتصرين إلى (يانينا) .. أما لو كانت الأنباء مريبة ، فينبغى أن نفر الليلة ! » .

« فقالت له أمى : « وماذا نصنع إذا حال عدونا دون هذا الفرار ؟ » .. فأجابها وهو يبتسم : « لا تقلقى بشأن ذلك ، ففى هذه الحالة يتكفل « سليم » وحربته بحسم الموقف . إنهم سوف يسرون برؤيتى ميتا ، لـكنهم لن يسروا بأن يموتوا معى ! » .

« كان ذلك فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وبرغم أن النهار كان مشرقا فى الخارج ، كنا داخل الكهف فى ظلمة تامة ، فيما عدا بصيص من الضوء فى ركن منها ، ينبعث من حربة سليم .. كان أشبه بنجمة وحيدة فى سماء معتمة !.. وفجأة سمعنا

صيحات عالية تبينا منها رنين الفرح ، وتجاوب الحراس فى الخارج باسم الضابط الفرنسى الذى أوفده أبى إلى السلطان، فأدركنا أن الرجل عاد يحمل ردا مرضيا !

« وازداد الضجيج ، واقتربت خطوات تهبط السلم إلى داخل الكهف . وأعد « سليم » العدة لإشعال البارود فى حالة حدوث ما يستلزم ذلك . وعندئذ ظهر فى مدخل الكهف شخص لم يتبين « سليم » وجهه بسبب الظلام ، فصاح به : « من أنت؟ .. حذار أن تتقدم خطوة أخرى ! » .. فأجابه الآخر هاتفا : « عاش السلطان » ! لقد منح جلالته « على باشا » وزيره عفوا كاملا .. ولم يرد إليه حياته وحدها ، بل رد إليه ايضا ثروته وممتلكاته ! » .

« وهنا سأله « سليم » : باسم من تتكلم ؟ » .

فأجاب : « باسم سيدنا « على باشا » » .

فقال له سليم : « إذا كنت قادما من عند « على باشا » فأنت تعرف العلامة التى يجب ان تظهرها لى ؟! » .

فقال الضابط : « نعم .. هأنذا احمل إليك خاتمه !» .. ثم رفع يده فوق رأسه ليظهر العلامة ، لكن المسافة كانت بعيدة، والضوء أضعف من أن يسمح « لسليم » بتمييزها .. فقال له « لست أرى ما فى يدك .. ولن أسمح لك بان تقترب ، بل لن اقترب انا منك قبل أن تضع الشيء الذى تحمله فى الضوء الذى يشع هناك ، ثم تنسحب ريثما أفحصه ! » .

« ووضع الرسول العلامة فى المكان [illegible] له

« سليم » ، ثم انسحب .. فاقترب « سليم » من المكان ، وتناول العلامة وتأملها مليا ، ثم قبلها وهتف قائلا : « إنها هى .. إنها خاتم سيدى!» .. ثم القى الشعلة من يده وداسها بقدمه فأطفاها ! .. وعندئذ أطلق الرسول صيحة ظفر وصفق بيديه .. وسرعان ما ظهر فجأة اربعة من جنود « خورشيد » وسقط « سليم » على الفور مصابا بخمس طعنات ، ثم تقدم الضابط والجنود الأربعة والخوف يكسو وجوههم شحوبا ، وراحوا يفتشون انحاء الكهف ليستوثقوا من زوال خطر الحريق والانفجار .. وعندئذ انقضوا على حقائب الذهب ينهبونها !

« وفى تلك اللحظة حملتنى أمى بين ذراعيها ، ثم هرعت فى سكون عبر ممرات وسراديب خفية لم يكن يعرفها غيرنا حتى وصلت إلى سلم آخر يفضى إلى مدخل مستقل من مداخل الكهف ، وهناك كانت تسود المكان ضجة واضطراب شديدان . كان جنود « خورشيد » يملئون الحجرات السفلى . وفيما كانت أمى توشك ان تفتح بابا صغيرا ، سمعنا صوت أبى يصيح مهددا ، فنظرنا من خلال فرجات بين الأخشاب ، وإذا ابى يقول لبضعة اشخاص يحمل احدهم فى يده ورقة مكتوبة بأحرف من ذهب : « ماذا تريدون ؟ » .. فأجابوه : « نريد ان نبلغك إرادة صاحب الجلالة . هل ترى هذا الفرمان ؟.. إن جلالة السلطان يطلب راسك فيه ! » .. واطلق أبى ضحكة مدوية مخيفة ، ثم اطلق مسدسه فصرع اثنين من الجنود .. وفى هذه اللحظة بدأ إطلاق النار من الجهة المقابلة ، واخترقت الرصاصات الحوائط من كل جانب ، وبرغم ذلك بدا أبى جليل المظهر وهو يكر على خصومه فيفزعهم ويلجئهم إلى الفرار ،

وكان فى الوقت نفسه يصيح بحارسه : « سليم !.. سليم ! .. أد واجبك ! » .. فأجابه صوت كأنه صادر من جوف الأرض : « لقد مات « سليم » ، وأنت قد ضعت يا « على » !» .. وفى هذه اللحظة نفسها دوى المكان بانفجار قوى ، وتناثرت أرض الحجرة التى كان فيها أبى ، وكان الجنود يطلقون النار من أسفل » .. وعندئذ مد أبى أصابعه وهو يزار بشدة إلى الثغرات التى احدثتها الطلقات فى أرض المكان ، وانتزع واحدا من الألواح الخشبية .. وعلى الفور انطلقت من جوف الأرض عشرون طلقة قوية ، وتدافعت ألسنة اللهب كأنها يقذف بها بركان ، فالتهمت محتويات الغرفة .. وخلال هذا الضجيج المروع والصرخات المفزعة انطلقت طلقتان واضحتان تبعتهما صرختان حادتان جعلتا الدم يتجمد فى عروقى .. فقد أصابتا أبى ! وبرغم ذلك ظل واقفا ، متشبثا بالنافذة .. فى حين حاولت أمى اقتحام الباب ، كى تموت بجانبه ، لكنه كان مغلقا من الداخل ..

« وهنا تداعت فجأة أرض المكان بأكملها ، فسقط أبى على إحدى ركبتيه ، وفى اللحظة عينها امتدت نحوه عشرون يدا مسلحة بالخناجر والمسدسات .. عشرون هجمة ركزت كلها ضد شخص واحد ، فاختفى والدى وسط إعصار من النار والدخان ، حتى لكأن الجحيم قد فغر فاه تحت قدميه .. وشعرت بنفسى أسقط على الأرض ، وأغمى على أمى !.. وحين أفاقت من إغمائها كنا نمثل أمام « خورشيد » ، فهتفت به أمى : « اقتل ، ولكن أبق لأرملة « على باشا » شرفها ! » .. فأجابها : « لست أنا الذى ينبغى أن تلجئى إليه .. بل ينبغى

ان تلجئى إلى سيدك الجديد ! » .. قال هذا وهو يشير إلى شخص بجانبه كان قد ساهم أكثر من سواه فى قتل أبى !

ولاحظ « البرت » ان « هايدى » ازدادت لهجتها حدة وهى تنطق بهذه العبارة ، ثم استطردت فقالت :

— على ان هذا الشخص لم يجرؤ على الاحتفاظ بنا ، وهكذا باعونا إلى بعض تجار الرقيق المسافرين إلى القسطنطينية ، فعبرنا بلاد اليونان حتى وصلنا إلى ابواب عاصمة السلطان ، ونحن بين الموت والحياة ، وكانت تحيط بالبوابة جمهرة من الناس، افسحت لنا طريقا لنمر . وفجأة حانت من امى نظرة إلى شيء كانوا يتاملونه ، فاطلقت صرخة مروعة وسقطت على الأرض وهى تشير إلى راس كان معلقا فوق البوابة ، وتحته لوحة كتب فيها « راس « على باشا » والى « يانينا » ! » .

« ولم اكد اقرأ ما فى اللوحة حتى صرخت فى مرارة ، وحاولت ان ارفع امى عن الأرض ، لكنها كانت جثة هامدة !.. ومن ثم اخذت إلى سوق الرقيق حيث اشترانى ثرى ارمنى تولى تعليمى وتثقيفى فاحضر لى المعلمين والأساتذة . فلما بلغت الثالثة عشرة باعنى إلى السلطان « محمود » .

وسكتت « هايدى » ، فقال الكونت متمما قصتها : « ومنه اشتريتها انا ! » .

اما « البرت » فبقى بعض الوقت مأخوذا مشدوها من كل ما سمع ، إلى ان قال له الكونت :

— هيا ، أفرغ قدح القهوة الذى امامك .. فقد انتهت القصة !

— ١٩ —

شراب قاتل !

لو اتيح « لفالنتين » ان ترى اضطراب خطوات « فرانز »، والانفعال الذى بدا على وجهه حين غادر حجرة مسيو « نوارتييه » ، لأشفقت عليه ، برغم كل شيء !

وكان « دى فيلفور » قد غمغم ببضع عبارات متقطعة ثم انسحب إلى حجرة مكتبه ، حيث تلقى بعد ساعتين الخطاب التالى : « بعد الأمور التى انكشفت هذا الصباح ، لا بد ان يقدر مسيو «نوارتييه دى فيلفور» استحالة عقد اى صلة بين أسرته وأسرة « فرانز ديبيناى » ، وانه ليدهش مسيو «ديبيناى » ويصدمه أن مسيو « دى فيلفور » — الذى ظهر انه كان على علم بكل الظروف التى انكشف أمرها هذا الصباح — لم يبادر إلى إخطاره بها قبل الآن ! » .

وفى اليوم التالى دعا « نوارتييه » مسجل العقود وجعله يلغى الوصية الأولى ويسجل بدلا منها وصية اخرى يترك فيها كل ثروته لحفيدته « فالنتين » ، بشرط الا تنفصل عنه مدى حياته .. وعندئذ شاع فى كل مكان أن الآنسة « دى فيلفور » وريثة المركيز والمركيزة « دى سان ميران » ، قد استردت رضا جدها ، وانها سوف تصبح ذات إيراد يبلغ ثلاثمائة الف ريال .

وفى الساعة التاسعة من ذلك الصباح ارتدى « البرت دى مورسيرف » سترة سوداء ، ومضى فى خطوات سريعة مضطربة فى اتجاه دار الكونت « دى مونت كريستو » فى

الشانزلزيه .. وفيما هو يعبر شارع (ممر الأرامل) رأى عربة الكونت واقفة أمام حانوت لأسلحة الرماية هناك ، ثم خرج الكونت فى هذه اللحظة من الحانوت فابتدره الشاب ، دون أن يؤدى له التحية المفروضة : « إنى سوف أبارز اليوم، وقد جئت أرجو منك أن تكون شاهدى ..! » .

فأجاب الكونت : « هذه مسألة أخطر من أن تناقش فى الطريق .. فلندع الحديث فيها حتى نصل إلى البيت ! » .

ثم استقل كلاهما عربة الكونت إلى منزله فبلغاه بعد دقائق .. وهناك أخذ الكونت ضيفه إلى حجرة مكتبه .. وبعد أن جلسا قال له : « فلنتحدث الآن فى الأمر بهدوء .. من الذى تعتزم مبارزته ؟ » .

ـ « بوشان » .. فقد نشر فى صحيفته فى الليلة الماضية .. ولكن انتظر واقرأ بنفسك ..

وأعطى « البرت » الصحيفة للكونت ، فقرأ فيها الفقرة التالية : « تلقينا من مراسلنا فى (يانينا) ما يكشف الستار عن حقيقة كنا نجهلها حتى الآن ، وهى أن القلعة التى كانت تحمى المدينة قد سلمت إلى الأتراك بوساطة ضابط فرنسى يدعى « فرناند » كان الوالى « على باشا » قد وضع فيه ثقته الكاملة ! » .

وقال له الكونت بعد أن أتم القراءة : « ماذا يهمك من أن قلعة (يانينا) سلمت بوساطة ضابط فرنسى ؟ » .

فقال البرت : « إن أبى الكونت « دى مورسيرف » هو الضابط المقصود ، فإن اسمه الأول « فرناند » ! » .

فقال الكونت مهدئا ثائرة الشاب : « ما أظن أن فى فرنسا من يعرف أن الضابط « فرناند » والكونت « دى مورسيرف » اسمان لشخص واحد ؟.. ثم من ذا الذى يعنى الآن بقلعة (يانينا) وقد سقطت سنة ١٨٢٢ أو سنة ١٨٢٣ ؟.. ولم يعد أحد يذكر عن ذلك شيئا بعد مضى هذا الوقت الطويل ؟ » .

ولكن الشاب بقى ثائرا ، وقال: «هذا يدل على حقارة الفرية، لقد سكتوا كل هذا الوقت ثم جاءوا الآن فجأة فبعثوا الحوادث التى كانت قد نسيت ليتخذوها مادة للفضيحة يلطخوا بها مركزنا الرفيع .. إنى ذاهب إلى (بوشان) الذى نشرت صحيفته هذا النبأ وسوف أصر على مطالبته بتكذيبه ! » .

وتناول « مورسيرف » قبعته وغادر الغرفة إلى حيث استقل عربته واتجه بها فورا إلى مكتب الصحفى (بوشان) ، فاستقبله هذا مرحبا وهو يطلق صيحة دهشة لرؤية صديقه يقذف بالصحف التى على المكتب إلى الأرض ويدوسها بقدمه فى انفعال .. فى حين كان هو يصيح به وهو يمد يده لمصافحته : « هيه ، هيه ، يا عزيزى « البرت » ، هل فقدت وعيك ؟ أم هل جئت لتتناول الإفطار معى ؟ » .

فأجابه الشاب : « « بوشان » ، لقد جئت أحدثك فى شأن نبأ نشرته صحيفتك أمس وينبغى أن تكذبه فورا ، ولكن يبدو أنك تجهل تماما علاقتى بهذا الخبر » .

— هذه هى الحقيقة وأقسم بشرفى .

ثم أخذ « بوشان » يبحث عن نسخة من الصحيفة ، فقال له « البرت » . « إليك نسختى فقد أحضرتها معى ! » .

فتناول « بوشان » الصحيفة وقرأ النبأ الذى أشار إليه صديقه ، فلما فرغ من ذلك سأله : « هل الضابط المشار إليه قريبك ؟ » .

— إنه أبى . مسيو « فرناند مونديجو » — الكونت « دى مورسيرف » — الذى حارب فى عشرين معركة وحصل على أوسمة الشرف ، من الجروح والإصابات ، التى يحاولون الآن اعتبارها وصمات عار !

فهز « بوشان » رأسه آسفا ، وقال :

— أهو والدك ؟.. هذا أمر آخر .. فى هذه الحالة أستطيع أن أفهم سبب غضبك يا عزيزى « البرت » ، لكن الخبر المنشور ليس فيه ما يدل على أن الضابط « فرناند » هو والدك !

فقال « البرت » وقد استبد به الغضب والحنق ! « سوف أرسل إليك شهودى ، ولك أن تتفق وإياهم على مكان اللقاء ، وموعده ، ونوع السلاح ! » .

فقال : « حسنا ! .. إنى أقبل أن أبارزك ، لكنى أطلب مهلة قدرها ثلاثة أسابيع ، وسوف أجيئك فى نهايتها لأقول لك : (لقد كان النبأ كاذبا وسأكذبه) .. أو لأقول : إن الخبر المنشور لا شك فى صحته .. ثم أستل سيفى من غمده أو مسدسى من جرابه — حسبما تشاء — لأبارزك ! » .

فصاح « البرت » وهو ينهض لينصرف : « ثلاثة أسابيع !.. إنها سوف تمر كأنها ثلاثة قرون ! » .

وقبل أن يغادر مكتب « بوشان » ، صب « البرت » غضبه على كومة من الصحف راح يطوح بها فى أرجاء الغرفة بعصاه !

وفيما هو فى عربته ، لمح « مكسمليان موريل » يسير فى الطريق بخطى سريعة ونظرة مشرقة ، فحدث نفسه قائلا : « إنه لسعيد ولا شك ! » .

ولم يخطىء فى رأيه ، فقد كان « مكسمليان » سعيدا جدا فى تلك اللحظة ، إذ كان فى طريقه إلى مسيو « نوارتييه » الذى أرسل يدعوه لسبب لا يعلمه !.. وحين وصل إلى الدار أدخله الخادم « باروا » من مدخل خاص ، ثم أغلق عليه باب حجرة سيده ، وسرعان ما سمع الشاب حفيف ثوب يعلن قدوم « فالنتين » .. وابتدرته الفتاة ، قائلة :

— مسيو « موريل » .. لقد اعتزم جدى أن ينتقل من هذا البيت ، وقد شرع « باروا » يبحث له عن مسكن ملائم !..

فسألها : « وماذا تفعلين يا آنسة « دى فيلفور » وهو لا غنى له عنك ؟ » .

فأجابت بقولها : « إنى لن أترك جدى ! وهذا شىء مفهوم فيما بيننا ، ولسوف يكون مسكنى قريبا من مسكنه .. وإذا وافق أبى على ذلك فسوف أترك البيت على الفور . أما إذا لم يوافق فسوف أضطر إلى الانتظار حتى أبلغ سن الرشد بعد نحو عشرة شهور ، وعندئذ أغدو حرة وتكون لى ثروة

مستقلة أستطيع بفضلها ، وبموافقة جدى ، أن أنجز وعدى لك ! » .

ثم التفتت إلى جدها وقالت : « هل أحسنت التعبير عن رغبتك يا جداه ؟ »

فأومأ المشلول موافقا ، على حين هتف الشاب وقد استبدت به رغبة فى أن يجثو على ركبتيه خاشعا أمام « نوارتييه ، وفالنتين » : « رباه ماذا فعلت فى دنياى كى أستحق كل هذه السعادة ؟! » .

واشار « نوارتييه » إلى إبريق يحوى شراب الليمون وبجانبه كأس فارغة ، وكان الابريق مملوءا حتى آخره تقريبا ، باستثناء القدر الذى شربه منذ حين .. فقالت « فالنتين » للخادم الوفى : « هيا يا « باروا » خذ بعض هذه « الليمونادة » فإنى اراك تشتهيها ! » .

فأجاب « باروا » : « اعترف يا آنستى بأنى اكاد اموت ظمأ ، وما دمت قد تعطفت فأذنت لى فى ذلك فلست ازعم انى سأمانع فى أن أشرب قليلا منها ، نخب صحتك ! » .

وفيما كانت « فالنتين ، ومكسمليان » يتبادلان تحية الوداع فى حضور جدها ، سمعا جرس الباب الخارجى يدق ، فنظرت الفتاة إلى ساعتها .. وفى هذه اللحظة دخل « باروا » ، فسألته « فالنتين » : « من القادم ؟ » .

فأجاب الخادم وهو يكاد يترنح كمن يوشك ان يسقط : « إنه الدكتور « دافرينى » ! » .

وإذ ذاك سألته سيدته « ماذا بك يا (باروا ؟) » .. لكنه لم يجب ، بل حملق فى سيده بعينين جاحظتين ، وهو يستند بيده إلى قطعة من الأثاث كى يتجنب السقوط !..

وازدادت حدة الأعراض التى بدت على الخادم بالتدريج ، فاستدار وخطا بضع خطوات ثم سقط عند قدمى «نوارتييه».

وفى هذه اللحظة اقبل مسيو « دى فيلفور » على صوت الضجيج .. فى حين صاحت « فالنتين » بزوجة أبيها وهى تصعد فى السلم لملاقاتها : « تعالى بسرعة واحضرى معك زجاجة الأملاح المنبهة ! » .

فأجابتها السيدة « دى فيلفور » فى صوت خشن غاضب وهى تهبط السلم وقد امسكت بإحدى يديها منديلها تمسح به وجهها ، وأمسكت باليد الأخرى زجاجة الأملاح المنعشة ! « ماذا حدث ؟ » .. واتجهت بنظرتها الأولى لدى دخولها الغرفة نحو « نوارتييه » الذى كان وجهه — باستثناء الانفعال الذى لا بد يحدثه فيه مثل هذا الحادث — ينم عن اكتمال العافية !.. وعندئذ نقلت المرأة بصرها إلى الخادم المحتضر ، فشحب وجهها على الفور وعادت تنظر إلى سيده !

وفى اثناء ذلك هتفت « فالنتين » ، بـ « مكسمليان » : « اذهب أنت بأسرع ما تستطيع ، وابق حيث أنت حتى أرسل فى طلبك .. اذهب ! » .

ونظر الشاب إلى « نوارتييه » مستأذنا فى الانسحاب ،



فمنحه العجوز إذنه وهو محتفظ بهدوئه المألوف . فقبل الشاب يد « فالنتين » مودعا ، ثم غادر المنزل عن طريق السلم الخلفى .. وفى اللحظة التى ترك فيها الحجـرة دخلهـا « فيلفور » والطبيب قادمين من باب آخر ، وكان الخادم المصاب يبدو كأنما استرد بعض وعيـه ، فاشترك الرجـلان فى حمله إلى أريكة مريحة .. وهتف « دى فيلفور » :

ــ انظر ، انظر يا دكتور .. ها هو ذا يعود إلى رشـده ثانية ، إنى لا اعتقد فى الواقع انه امر ذو بال! .

فأجابه الطبيب بابتسامة ساخرة ، وهو يستجوب المريض الـذى أفاق : « بماذا تشـعر يا « باروا ؟ » .. ماذا اكلت اليوم ؟ » .

فأجاب « باروا » : « لم آكل بعد ، وإنما شربت قدحا من شراب الليمون الذى يخص سيدى ! » .

ــ واين هذا الشراب ؟

ــ لقد أعدته منذ لحظات إلى المطبخ !

فهرع الطبيب نحو السلم الخلفى المؤدى إلى المطبخ ، وكاد فى أثناء اندفاعه يصطدم بالسيدة « دى فيلفور » التى كانت بدورها متجهة إلى المطبخ ، فصاحت تستوقفه ، لكنه لم يعبأ بها وهبط الدرجات الأربع الباقية فى قفزة واحدة ثم اقتحم المطبخ فوجد الإبريق وقد بقى فيه نحو ربع الشراب. فأخذه فى يده وعاد إلى الغرفة التى كان فيها ، وفى اثناء عودته صادف السيدة « فيلفور » صاعدة إلى غرفتها فى خطوات بطيئة !

وسأل الطبيب الخادم المصاب : « هل هذا هو الإبريق الذى شربت منه ؟ » .

فأجابه : « نعم » .

وصب الطبيب قطرات من الشراب فى راحة يده ثم تذوقها وبصقها فى المدفأة .. على حين صاح به « باروا » : « أغثنى يا دكتور ، النوبة ستعود ثانية » .

فأجابه الطبيب : « كلا أيها الصديق ! .. إنك لن تلبث أن تستريح » .

فقال الخادم التعس : « آه ، إنى أفهم ما تعنيه ، يا إلهى، ارحمنى ! » .

ثم أطلق صرخة مروعة وسقط على ظهره كأنما أصـابته صاعقة !.. فجذبه الطبيب من إبطيه إلى غرفة مجاورة ثم عاد ليأخذ إبريق شراب الليمون وقال مخاطبا « دى فيلفـور » : « تعال هنا » .

وحين جلسا فى الغرفة التى رقد فيها المصاب سأله « دى فيلفور » :

ــ هل النوبة مستمرة يا دكتور ؟

فأجاب :

ــ بل إنه قد مات .. لكن هذا ينبغى الا يدهشك ، فقـد سبقه كل من المركيز والمركيزة « سان ميران » إلى مثل هـذا المصير العاجل الغريب !

فصاح هذا فى رعب وفزع : « ماذا ؟ .. أما زلت تحـوم حول تلك الفكرة الرهيبة ؟ » .

فأجابه الطبيب :

ـــ نعم يا عـزيزى ، وسـوف أظل كـذلك دائما ، فإن الفكرة لم تبرح ذهنى لحظة واحدة .. ولكى تكون على ثقة من انى لم اخطىء هذه المرة ، أرجو ان تصغى جيدا لما سأقول : هناك نوع من السموم يقتل دون أن يخلف أثرا ، وأنا أعرفه جيدا وقد درسته فى جميع أشكاله ووسائل تركيبه وآثاره .. وقد تبينت وجود هذا السم فى حالة « باروا » التعس ، كما تبينته فى حالة المركيزة « دى سان ميران » ، وسوف اجـزم بذلك أمام الله والناس !

فلم يجب « فيلفور » بكلمة ، واكتفى بأن ضم يديه وفتـح عينيه الجاحظتين ثم غاص فى أقرب مقعد .. !

ـ ٢٠ ـ

الانتقام الالهى

انطلق الكونت « دى مونت كريستو » فى طريقه إلى داره الريفية فى « أوتو » ، بصحبة تابعه « على » وبعض خـدمه الآخرين ، كما اخذ معه بعض جياده الجديدة ليستوثق من قدرتها .

وبعد حين دخل عليه خادمه : « بابتستين » يحمل خطابا على طبق من الفضة ، وقدمه له قائلا :

ـــ رسالة هامة عاجلة !

ففض الكونت الخطاب ، وقرأ فيه :

ـــ يهمنى أن انبه الكونت « دى مونت كريستو » إلى أن رجلا سيتسلل الليلة إلى بيته فى الشانزلزيه بغية سرقة بعض الأوراق الهامة المفروض أنها فى منضدة مكتبه الصغير !

وكان أول خاطر جال بذهن الكونت لدى قراءة الرسـالة أنها خدعة مكشوفة يراد بها تحويل انتباهه إلى خطر تافه فى سبيل تعريضه لخطر أعظم ! .. فكاد يبلغ الأمر إلى البوليس ، برغم نصيحة كاتب الخطاب . ثم خطر له أن السارق المجهول قد يكون خصما شخصيا له ، فحدث نفسه :

ـــ **إنه لا يريد أوراقى ، بل يريد قتلى .. إنه ليس سارقا ، وإنما هو قاتل !**

وإذ ذاك نادى خادمه « بابتستين » وقال له :

ـ عد إلى باريس حالا واجمع خدمى جميعا واحضرهم إلى هنا !

ثم أعرب الكونت عن رغبته فى أن يتناول طعامه وحده والا يخدمه خلاله غير تابعه « على » .. وإذ فرغ من تناوله ، بدونه واعتداله المأثورين ، أشار إلى « على » كى يتبعه ، ثم خرج من باب جانبى فاستقل عربته إلى غابة بولونيا ، وهناك استدار ـ دون خطة مرسومة ـ نحو طريق باريس .. فلما حان الغروب وجد نفسه تجاه داره فى الشانزلزيه !

ودلف إلى مخدعه ، ثم أشار إلى « على » كى يقف هناك . ومضى هو وحده إلى غرفة الزينة ففحصها بدقة ووجد كل شىء فيها كما تركه ، ومنضدة المكتب الثمينة فى مكانها ، والمفتاح على درجها .. فاغلقه بعناية واخذ المفتاح عائدا إلى باب المخدع ففتح مزلاجه المزدوج ودخل .. وفى أثناء ذلك كان «على» قد جهز الأسلحة التى طلبها الكونت، فتسلمها منه ثم وقف خلف نافذة من نوافذ المخدع موازية لنافذة غرفة الزينة ومطلة على الشارع !

وانقضت ساعتان على هذا المنوال ، ودقت ساعة « الانفاليد » مؤذنة بانتصاف الليل ، ولم يكد صدى الدقة الأخيرة من دقاتها يتلاشى حتى خيل إلى الكونت انه يسمع صوتا خفيضا صادرا من حجرة الزينة ، ثم تكرر الصوت مرة ثانية ،فثالثة ، فرابعة .. وعندئذ ادرك الكونت أن يدا

بارعة ذات خبرة تحاول كسر زجاج النافذة بماسة !.. وكانت تلك النافذة مواجهة للفتحة التى يستطيع الكونت أن يرى خلالها ، من مكانه ، ما يجرى فى غرفة الزينة .. ومن ثم ركز بصره على النافذة ، فرأى فى الظلام شبحا يمد يده من خلال الثغرة التى فتحها فى الزجاج فيفتح النافذة ، من الداخل. ثم يثب منها إلى الغرفة .. فهمس الكونت :

ـ يا له من جرىء !

وفى تلك اللحظة لمس « على » كتف سيده ، مشيرا له من خلال النافذة المطلة على الطريق ، إلى شخص يقف فى الشارع، فهمس الكونت :

ـ إذن .. هما شخصان ، أحدهما يتسلل إلى البيت والآخر يراقب مدخل الدار !

ثم أوصى « على » بألا يدع الشريك الذى فى الشارع يغيب عن بصره ، واستدار هو ليرقب الشخص الذى دخل حجرة الزينة .. فرآه يتجه إلى منضدة المكتب ويحاول فتحها بطائفة من المفاتيح المصطنعة ، مستعينا على اختيار المفتاح المناسب بضوء (بطارية) ما لبث ضوؤها الشاحب أن وقع على وجهه ويديه ، فحدث الكونت نفسه قائلا وهو يتراجع : « يا إلهى ! » .

وفى تلك اللحظة لمح الكونت تابعه « على » يرفع فى يده آلة حادة أشبه بالفأس ، فهمس له : « لا تتحرك ، ودع فأسك ، فلن يحوجنا الأمر إلى سلاح ! »

ثم همس له ببضع كلمات أخرى ، مضى هذا على أثرها دون ان يحدث صوتا ثم عاد بعد حين يحمل رداء أسود وقبعة مثلثة الأركان !.. وفى أثناء ذلك كان الكونت قد خلع سترته وصداره وقميصه ثم ارتدى درعا من الفولاذ وفوقه رداء رجال الدين الكهنوتى الأسود ، وأخفى شعره تحت جمة من الشعر المستعار كالتى يرتديها القساوسة ، وحين وضع فوقها القبعة المثلثة الأركان تحول الكونت فى لحظة إلى قسيس !.. ثم اخرج من احد الأدراج شمعة اضاءها .. وفيما كان اللص مستغرقا فى محاولة فتح القفل فتح الكونت الباب دون صوت وهو يحمل الشمعة بحيث يقع ضياؤها مباشرة على وجهه .. فذعر اللص ، فى حين قال له الكونت :

ــ طاب مساؤك يا عزيزى « كادروس » .. ماذا تفعل هنا فى هذه الساعة ؟

فهتف « كادروس » فى دهشة وذعر : الأب « بوزونى » ؟ .. وافلتت يده المفاتيح فسقطت على الأرض ، وراح يتطلع حواليه باحثا عن وسيلة للهرب ، فلاحقه الكونت قائلا : « ارى انك ما زلت كما عهدتك دائما : قاتلا !.. الم تقتل الجوهرى الذى ابتاع منك الماسة التى اعطيتك إياها ؟ .. » .

فأجاب فى صوت مرتجف : « نعم ، هذا صحيح يا سيدى القس ! » .

فعاد يسأله : « من الذى اخرجك من السجن ؟ » .

فأجاب : « اللورد ويلمور » .

فسأله : « اكان ذلك الثرى الإنجليزى يتولى حمايتك ؟ » .

فأجاب : « لا .. لم يكن يحمينى أنا ، بل كان يحمى شابا كورسيكيا كان زميلى فى السجن يدعى « بنديتو » .. وقد صار هذا الشاب الآن ابنا لثرى عظيم هو الكونت « دى مونت كريستو » الذى نحن فى بيته الآن ! » .

فقال له الكونت وقد اخذه العجب هو الآخر :

ــ « بنديتو » صار ابنا للكونت « دى مونت كريستو » ؟!.. كيف كان ذلك ؟

فقال « كادروس » : « أعتقد ذلك ، فإن الكونت قد اوجد له أبا زائفا ، وصار يعطيه راتبا شهريا قدره أربعة الآف فرنك ، فضلا عن نصف مليون فرنك تركها له فى وصيته ! » .

فقال الكونت وقد بدأ يفهم :

ــ ما هو الاسم الذى يحمله ذلك الشاب الآن ؟.. اتعنى « اندريا كافالكانتى » ، ذلك الشاب الذى استقبله صديقى الكونت « دى مونت كريستو » فى منزله ، والذى سيتزوج من الآنسة « دانجلر » ؟

فأومأ « كادروس » موافقا ، فى حين واصل الكونت كلامه قائلا :

ــ كيف تصدق ذلك أيها التعس ، وانت تعرف حياته وجرائمه ؟

فقال : « لم أشأ أن اقف عقبة فى طريق صديق من زملائى ! » .

فرد عليه الكونت قائلا :

— أنت على حق ، وإذن .. سأتولى أنا لا أنت إبلاغ هذه الحقيقة إلى البارون « دانجلر » .. سأكشف له كل شىء !

وغمغم « كادروس » قائلا :

— إنك لن تفعل ذلك يا سيدى القس !

وفى مثل لمح البرق ، استل « كادروس » خنجره وطعن به الكونت فى صدره ! .. وشد ما كان عجبه وفزعه حين ارتد الخنجر مكسورا بدلا من أن يثقب صدر القس المزعوم ! وفى اللحظة نفسها قبض الكونت بيسراه على معصم « كادروس » وضغط بقوة جعلت الخنجر يسقط من بين أصابعه المتقلصة . فأطلق صرخة ألم حادة ، لكن الكونت استمر يضغط معصم الشقى حتى اضطره إلى أن يرتمى على الأرض وهو يتأوه .. عندئذ وطأ الكونت رأسه بقدمه قائلا :

— لست أدرى ما الذى يمنعنى من أن أسحق جمجمتك ؟!

فصرخ « كادروس » :

— الرحمة .. الرحمة !

وإذ ذاك سحب الكونت قدمه وقال له :

— انهض . خذ هذا القلم والورق واكتب ما أمليه عليك !

فجلس « كادروس » وقد أذهلته قوة القس الخارقة . وكتب :

— سيدى .. إن الرجل الذى تستقبله فى بيتك ، والذى تعتزم أن تزوجه من ابنتك ، هو قاتل فر معى من السجن المؤبد فى طولون ، وقد كان يعرف باسم « بنديتو » ، وكان رقمه (٥٩) فى حين كان رقمى أنا (٥٨) ، وهو يجهل اسمه الحقيقى لأنه لا يعرف لنفسه أبا :

واستطرد الكونت فقال لـ « كادروس » ! « هيا .. وقع على الخطاب .. واكتب العنوان : « إلى البارون « دانجلر » ، المالى الكبير ، شارع (دى لاشوسيه دانتان) » .

فكتب « كادروس » ما أملى عليه ، وحين فرغ من ذلك صاح به الكونت وهو يشير إلى النافذة :

— والآن اغرب عن وجهى ..!

وحين خرج « كادروس » من النافذة وبدأ يهبط ، أدنى الكونت الشمعة منه ، كى يرى من فى الشارع : إن شخصا كان يمسك الشمعة للص فى أثناء نزوله ! .. ثم تركه الكونت ومضى مسرعا إلى مخدعه حيث أطل من نافذته ، فرأى « كادروس » يسير على الجدار متجها نحو الواجهة الجانبية للبيت — كمن يحاول الهروب من رفيقه الذى ينتظره فى أسفل — ثم ينزلق على الأنابيب بعد أن استوثق من أن صاحبه لم يره .. لكنه لم يكد يبلغ الأرض حتى تلقاه هذا بطعنة حادة فى ظهره ، فصاح مذعورا :

— النجدة !

وعلى اثر ذلك فتح باب الدار الخلفى ، وظهر منه الكونت فى ثياب القس ، ومعه « على » خادمه يحملان مصباحين ، وما لبثا أن نقلا الجريح إلى إحدى الحجرات ، حيث فحص الكونت جراحه الفظيعة وقال محدثا نفسه :

— يا إلهى !.. إن انتقامك قد يتأخر احيانا ، ولكن كى يتم آخر الأمر على أكمل وجه !

فى حين نظر « على » إلى سيده فى انتظار تعليماته ، فقال له هذا :

— استدع فورا قاضى التحقيق مسيو « دى فيلفور » ، وهو يقطن فى شارع (سانت أونوريه) ، وعند مرورك بالمسكن ايقظ البواب وارسله كى يحضر جراحا » .

وحين فتح « كادروس » عينيه مرة اخرى قال للكونت ، او القس :

— لقد خذلنى وقتلنى بعد ان اعد خطة اقتحام هذا البيت، آملا بلا شك ان اقتل الكونت فيصبح هو وارثه ، أو أن يقتلنى الكونت فيستريح هو منى إلى الأبد !

فقال له :

— تستطيع ان تملى على اعترافك ، ثم توقع عليه بنفسك!

فلمعت عينا الجريح ارتياحا لفكرة هذا الانتقام السريع ، على حين كتب « مونت كريستو » هذه العبارة :

— إنى أموت مقتولاً بيد الكورسيكى المدعو « بنديتو » رفيقى فى سجن تولوز ، رقم ٥٩ » .. ثم أعطى الريشة «لكادروس» فاستجمع هذا قواه ووقع عليها .. ثم خر على فراشه ، وقد بدأ يحتضر !

وهنا قال الكونت « دى مونت كريستو » وهو يقرب الضوء من وجهه : « انظر إلى جيدا ! » ثم خلع الشعر المستعار وترك شعره الطبيعى يسقط على رقبته .. وإذ ذاك هتف « كادروس » كالمصعوق :

— لولا شعرك الأسود لقلت إنك الإنجليزى ، اللورد « ويلمور » !

فقال له : كلا !.. لست اللورد « ويلمور » ، كما أنى لست الأب « بوزونى » !

ثم اقترب الكونت من الجريح وانحنى فوقه هامسا : « انا .. انا » .. ولفظت شفتاه شبه المغلقتين اسما بصوت خافت .. فاجفل « كادروس » مذعورا وحاول أن يتراجع ، ثم ضم يديه اللتين رفعهما إلى أعلى ، وهو يهتف :

— أواه يا إلهى !.. اغفر لى إننى انكرتك .. إنك موجود ولا شك :

ثم تنهد تنهدة عميقة وسقط على ظهره ، وما لبث ان لفظ نفسه الأخير !



- ٢١ -

محاكمة فى مجلس الشيوخ

استيقظ « البرت دى مورسيرف » ذات صباح فاذا خادمه يعلن إليه قدوم الصحفى « بوشان » ، ففرك عينيه وامر خادمه بأن يقود الزائر إلى حجرة الاستقبال التى فى الطابق الأرضى .. ثم ارتدى هو ثيابه على عجل وهبط إليه فوجده يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، ثم توقف حين شعر بدخوله ، فابتدره قائلا :

- إن قدومك إلى هنا بلا انتظار لزيارتى لكَ اليوم يبدو فالا طيبا .. فهل ترى أستطيع ان اصافحكَ قائلا : اعتراف « يابوشان » بانك قد اسأت إلى ، واسترد صداقتى .. أم أنك ستلجئنى إلى ان اقترح عليك اختيار السلاح الذى يروقك ؟!

فقال « بوشان » : يا عزيزى « البرت » .. إنى عائد لتوى من (يانينا) وقد كان يسرنى يا صديقى ان اعتذر إليك، لكن ذلك النبأ كان صحيحا مع الأسف ، وذلك الضابط الفرنسى « فرناند » ، الخائن الذى أسلم قلعة الوالى وهو يعمل فى خدمته ، كان بعينه والدك ! .. وإليك الدليل فى هذه الورقة !»

ونشر « البرت » الورقة التى قدمها له صديقه ، وكانت إقرارا موقعا عليه من أربعة من كبار أهل (يانينا) البارزين، يشهدون فيه بأن الكولونيل « فرناند مونديجو » الذى كان يعمل فى خدمة « على باشا » والى المدينة قد سلم القلعة مقابل

مبلغ مليون ريال ! وكانت التوقيعات الأربعة صحيحة وشرعية !

ولم يكد « البرت » يفرغ من قراءة الورقة حتى ارتمى متهالكا على مقعده فى الحجرة ولم يعد لديه أى شكّ فى أن إسم أسرته قد تلطخ بالعار إلى الأبد ! وبعد فترة صمت كئيبة طويلة فاض به الحزن فأطلق لدموعه العنان !

ونهض « بوشان » بعد قليل للانصراف ، تاركا « لألبرت » تلك الورقة ، فتناولها هذا بيد مرتعشة واحرقها ثم القى بها فى النار !

وبعد ثلاثة أيام نشرت صحيفة أخرى الفقرة التالية : « إن الضابط الفرنسى الذى كان فى خدمة « على باشا » والى (يانينا) ، واشارت إليه صحيفة (امبارسيال) منذ ثلاثة اسابيع ، لم تقتصر فعلته على تسليم قلعة المدينة ، بل إنه باع ولى نعمته للأتراك .. وقد كان اسمه وقتئذ « فرناند » ، لكنه أضاف إليه فيما بعد لقبا من القاب النبلاء فصار يدعى الآن الكونت « دى مورسيرف » ، وبات يعتبر فى مصاف الأمراء ! » .

وهكذا بعث السر الرهيب من قبره فجأة كالشبح المخيف .. وفى اليوم نفسه ثارت ضجة كبرى فى مجلس الشيوخ بين الأعضاء الوقورين بطبعهم ، فحرص كل منهم على ان يصل إلى المجلس قبيل الموعد المعتاد ، وتبادل الجميع الحديث فى الحدث المروع الذي سوف يسترعى انتباه الجماهير نحو واحد

من زملائهم اللامعين .. وكان بعضهم يعيد قراءة النبأ فى الصحيفة ، والآخرون يعلقون عليه ويذكرون وقائع وملابسات تزيد التهمة توكيدا !

وبقى الكونت « دى مورسيرف » وحده يجهل تلك الأنباء ، فانه لم يكن قد طالع الصحيفة التى نشرتها ، بل أنفق الصباح فى كتابة الخطابات وفى تجربة جواد جديد ! .. وهكذا وصل إلى دار المجلس فى الموعد المألوف وعلى وجهه سيماه المعتادة من العجرفة والوقاحة ، فهبط من عربته ، ومر خلال ممرات الدار ، ودخل قاعة الجلسة ، دون أن يلاحظ همهمة الحراس أو فتور زملائه نحوه . وكانت الجلسة قد بدأت منذ نصف ساعة ، وامسك كل عضو فى يده بصحيفة الاتهام .. ولكن — كما هى العادة دائما — لم يشأ أحد من الأعضاء أن يأخذ على عاتقه مسئولية البدء بالمهاجمة .. وأخيرا نهض عضو له مكانته ، وكان الد خصوم « مورسيرف » ، فارتقى المنصة فى صرامة توحى باقتراب اللحظة الحاسمة ، ثم بدأ يتلو ما ورد فى الصحيفة .. ولم يتنبه الكونت فى البداية للمقدمة ولكن لم يلبث أن شحب وجهه شحوبا مخيفا جعل كل عضو يتوجس شرا وهو يسلط عليه عينيه !

واعقبت تلاوة الاتهام موجة من الضجيج والاضطراب . والهرج والمرج .. وعلق الجميع اسماعهم بفم المتكلم وهو يعلق على النبأ ، ويختم كلمته مطالبا بتاليف لجنة تتولى إثبات الاتهام أو دحضه .

وبلغ من مفاجأة « مورسيرف » بهذه الكارثة غير المتوقعة

انه لم يحر جوابا ، فلم ينطق بغير بضع كلمات مبهمة وهو ينظر حواليه إلى أعضاء المجلس فى ذهول .. فعرض الرئيس أخذ الأصوات ، واسفر الاقتراع عن الموافقة على وجوب التحقيق ... فسئل المتهم عن المهلة التى يطلبها لتحضير دفاعه ، فأجاب من فوره :

— أنا اليوم تحت تصرفكم !

والفت لجنة من اثنى عشر عضوا لفحص أدلة الاتهام والنفى ، وتقرر أن تبدأ اللجنة عملها فى الساعة الثامنة من ذلك المساء .. فطلب « مورسيرف » الإذن له فى الانسحاب كى يجمع المستندات التى أعدها منذ زمن لمواجهة هذه العاصفة .

وفى الموعد المحدد اجتمع أعضاء لجنة التحقيق ، ودخل الكونت « دى مورسيرف » يحمل فى يده أوراقا ، وكان هادىء الوجه ، حازم الخطى ، مفرط العناية بزيه العسكرى . وفى تلك اللحظة دخل حارس يحمل خطابا إلى رئيس اللجنة ، فقال الرئيس وهو يفض الخطاب ، موجها كلامه إلى الكونت « دى مورسيرف » : « لك أن تبدأ دفاعك يا مسيو « مورسيرف » » .

فقدم الكونت « دى مورسيرف » مستندات تثبت أن والى (يانينا) كان يخصه بثقته الكاملة حتى آخر لحظة ، بحيث انه عهد إليه فى مفاوضة السلطان بشأن حياته أو موته !.. ثم قدم الكونت الخاتم الذى كان « على باشا » يختم به أوراقه الرسمية وخطاباته ، وقد أعطاه إياه كى يمكنه من الدخول عليه

فى اية ساعة بالليل أو النهار ، حتى وهو فى جناح الحريم !..
ثم أوضح الكونت كيف أن مفاوضاته مع السلطان بشأن العفو عن الوالى قد فشلت ، فلما عاد ليدافع عن ولى نعمته ويدفع عنه الأذى ، وجده قد مات ! .. ثم قال الكونت :

ـ لقد بلغ من ثقة « على باشا » بى انه وهو يودعنى قبيل سفرى ، عهد إلى برعاية محظيته المفضلة وابنتها ، فى حالة وفاته !

وكان رئيس اللجنة قد فض الخطاب الذى سلم إليه ، وقراه باهتمام ، مرة بعد مرة وهو يرمق المتهم بنظرات حادة ، ثم خاطبه قائلا :

ـ إنك ذكرت ان والى (يانينا) عهد إليك برعاية ابنته وزوجته ، فماذا تم فى أمرهما ؟

فأجاب « مورسيرف » : « مما يؤسف له يا سيدى ان سوء الحظ لاحقنى فى هذا الشأن كما حدث فى مناسبات اخرى ، فحين عدت كانت « فاسيليكى » وابنتها « هايدى » قد اختفتا .. ولما لم اكن غنيا ، وكانت حياتى معرضة لخطر دائم ، لم استطع مواصلة البحث عنهما ! » .

وهنا تجهم وجه الرئيس والتفت إلى اعضاء اللجنة قائلا :

ـ ايها السادة .. لقد سمعتم دفاع الكونت « دى مورسيرف » . وبقى أن نساله هل يستطيع ان يقدم لنا شهودا يثبتون صحة كلامه !

فأجاب الكونت :

ـ الواقع يا سيدى ، ان جميع الذين كانوا يحيطون بالوالى او الذين عرفونى فى بلاطه قد ماتوا او اختفوا !

وهنا استطرد الرئيس فقال :

ـ لعلك ترحب إذن بسماع شهادة شخص يعتبر نفسه شاهدا هاما فى النزاع ، إنه ولا شك قد جاء ليثبت براءة الكونت .. وهانذا اتلو الخطاب الذى تلقيته منه وهو :

ـ سيدى الرئيس .. فى استطاعتى أن ازود لجنة التحقيق بما يلقى الضوء على مسلك اللفتنانت جنرال الكونت « دى مورسيرف » فى (إيبيروس) و (مقدونيا) ، فلقد حضرت وفاة « على باشا » ، وأعرف مصير « فاسيليكى » و « هايدى » ، ويسرنى أن أضع نفسى تحت تصرف اللجنة، بل واطالب بمنحى شرف سماع شهادتى .. وسوف أكون فى حجرة الانتظار بالمجلس حين تسلم هذه الورقة إليكم !

وبعد خمس دقائق ظهر الحارس ومعه تلك الشاهدة كاتبة الخطاب ، فنظر إليها الكونت « دى مورسيرف » فى دهشة ورعب .. وابتدرها رئيس اللجنة :

ـ هل كنت شاهدة عيان للأحداث موضوع التحقيق ؟

فأجابت الحسناء المجهولة بذلك الصوت العذب الرنان المأثور عن الشرقيات :

ـ نعم ، كنت فى الرابعة من عمرى ، ولكن لما كانت تلك الأحداث وثيقة الصلة بحياتى ، فقد وعيت جميع تفصيلاتها !.

فسألها الرئيس :

ـ من اية ناحية كانت الأحداث وثيقة الصلة بحياتك !

فأجابت :

ـ إننى انا « هايدى » بنت « على باشا » والى (يانينا) من زوجته « فاسيليكى » !

فقال الرئيس وهو ينحنى لها فى احترام عميق :

— هل تستطيعين إثبات هذه الصفة التى تدعينها لنفسك ؟

فقالت : « نعم أستطيع ذلك .. فهذه شهادة ميلادى موقع عليها من أبى وكبار موظفيه الرسميين ، وهذه شهادة معموديتى — فقد أنشأتنى أمى على دينها — ثم هذا خطاب مختوم من رئيس وزراء (مقدونيا وإبيروس) .. وأخيرا — ولعله الدليل الأعظم — هذه وثيقة بيعى وبيع أمى إلى التاجر الأرمنى « الكوبير » بوساطة الضابط الفرنسى الذى احتفظ لنفسه — فى مساومته الدنيئة مع الباب العالى — بزوجة ولى نعمته وابنته ، ثمنا لخيانته إياه !.. وقد باعنا بمبلغ أربعمائة ألف فرنك ! » .

وأخرجت الفتاة الوثائق من حقيبة حريرية كانت تمسك بها تحت نقابها ، ثم سلمتها لرئيس اللجنة !

وغامت على وجه الكونت سحابة من الشحوب المخيف ، واندفع الدم إلى عينيه إزاء هذه الاتهامات الفاضحة التى أصغى إليها أعضاء اللجنة واجمين .. على حين ظلت « هايدى » محتفظة بهدوئها الذى بدا أقسى من كل ثورة ، ثم شرع المترجم يقرأ بصوت مسموع ترجمة وثيقة البيع ، المكتوبة بالعربية !

ولم ينطق الكونت « دى مورسيرف » بكلمة فى أثناء تلاوة هذه الوثيقة ، وقد تجلت تعاسته على وجهه واضحة الخطوط !

وقال الرئيس ، يخاطب المتهم : « إن الكونت « دى مورسيرف » يعلم يقينا أن عدالة المحكمة من عدالة الله ، وهى لا تعرف غير وجه الحق ، وعلى هذا لن تدع المحكمة خصومك يسحقونك دون أن تتيح لك فرصة الدفاع عن نفسك : هل تطلب مزيدا من التحقيقات والأدلة ؟ هل ترسل عضوين من اللجنة إلى (يانينا) لهذا الغرض ؟.. تكلم ، أجب ! » .

فقال الكونت بصوت خائر : « ليس عندى ما أجيب به ! » .

فقال له الرئيس : « هل تعنى أن ابنة « على باشا » صادقة فيما تقول ؟ » .

ونظر الكونت حواليه نظرة تلين قلوب الوحوش ، لكنها لم تستطع أن تنسى قضاته واجبهم ، وعندئذ شق سترته التى أحس أنها تخنقه ، وفر من القاعة كالمجنون لا يلوى على شىء!

وحين سكنت الجلبة التى أعقبت ذلك ، قال الرئيس يخاطب أعضاء اللجنة :

— أيها السادة ، هل ترون إدانة الكونت «دى مورسيرف» باعتباره قد ارتكب جريمة الخيانة ، وما يلابسها من التصرفات التى تجعله غير مستحق لأن يكون عضوا فى هذا المجلس ؟

فوافق أعضاء لجنة التحقيق على ذلك بالإجماع !

– ٢٢ –

مبارزة لم تتم !

حمل «بوشان» إلى صديقه المحطم «البرت دى مورسيرف» أنباء محاكمة أبيه ، فلما انتهى من سردها رفع الشاب وجهه الذى كسته حمرة العار وغسلته الدموع ، وأمسك بذراع « بوشان » قائلا :

– يا صديقى ، إن حياتى قد انتهت !.. وبودى لو أعرف خصمى الذى يلاحقنى بهذه الكراهية العمياء لكى اقتله أو يقتلنى .. وأنا اعتمد على صداقتك كى تساعدنى فى هذا البحث ، إذا لم يكن الاحتقار قد اقتلع هذه الصداقة من قلبك !

فقال له « بوشان » : « اذكر لك ما احجمت عن الإشارة إليه لدى رجوعى من (يانينا) !.. لقد توجهت فى أثناء قيامى بتحقيق الأمر هناك إلى مدير البنك الرئيسى فى المدينة كى اسأله عن معلوماته .. وما كدت اشير إلى الموضوع – قبل أن أذكر اسم أبيك – حتى بادرنى الرجل قائلا : « إننى اعرف الأمر الذى جاء بك إلى هنا . فقد سألنى عنه منذ ايام عميل لى من رجال المال الباريسيين هو مسيو «دانجلر» .

فصاح « البرت » : « يا للشيطان .. آه ، إنه هو حقا الذى طالما لاحق أبى بغيرته العمياء من المكانة التى بلغها .. ثم هناك فسخ مشروع زواجى من ابنته دون سبب ، الأمر الذى يزيد المسألة وضوحا !.. إذا كان « دانجلر » هو

المسئول فسوف يموت احدنا قبل أن تغرب شمس هذا اليوم ! » .

فقال « بوشان » : « إذا كنت حقا تعنى ما تقول فينبغى أن تنفذ هذا القرار فورا ، أعنى أن تذهب الآن لمقابلة « دانجلر ! » .

وبعد قليل كان خادم البارون « دانجلر » يعلن سيده برغبة « البرت » فى مقابلته ، لكن « دانجلر » – إذ تذكر حوادث اليوم السابق – ابى أن يستقبله .. على أن رفضه هذا لم يجده فتيلا ، فإن « البرت » كان قد تبع الخادم إلى قرب باب الحجرة التى يجلس فيها سيده ، فلم يكد يسمع كلمة الرفض حتى اقتحم الباب ، يتبعه « بوشان » .. فصاح به « دانجلر » : « سيدى .. اليس لى أن استقبل أو لا استقبل فى بيتى من أشاء ؟.. ماذا تبغى منى ؟! » .

فأجابه الشاب وهو يدنو منه : « ابغى أن اقترح لقاء فى مكان منعزل لا يزعجنا فيه احد لمدة عشر دقائق ، هذا يكفى .. وبعدها لن يبقى على قيد الحياة سوى احدنا فقط ! » .

فأجابه « دانجلر » وقد شحب وجهه من الغضب والخوف:

– دعنى احذرك إذن ، فمن عادتى حيثما التقيت بكلب مسعور أن اقتله !.. هل هى غلطتى أن يجلب أبوك على نفسه العار ؟ » .

فقال « البرت » :

– نعم أيها النذل التعس إنها غلطتك !.. من الذى كتب إلى (يانينا) يستفسر عن الأمر

فقال « دانجلر » :

— انا الذى كتبت بلا شك !.. واحسب أن من حق كل اب يعتزم تزويج ابنته من شاب ان يستفسر ما شاء عن اسرة ذلك الشاب وماضيه !.. وانا اجزم لك بانه ما كان ليدور بخلدى قط ان اسأل أهل (يانينا) من تلقاء نفسى :

— إذن فمن الذى حثك على الكتابة ؟

— ليس غير صديقك الكونت « دى مونت كريستو ! » .

— وهل عرف الكونت الرد الذى تلقيته ؟

— نعم ، لقد عرضته عليه !

واحس « البرت » أن دمه يصعد إلى مخه ، ولم يعد لديه شك فى أن الكونت « دى مونت كريستو » متحالف مع خصوم ابيه !.. ومن ثم انتحى « البرت » بصديقه « بوشان » جانبا وصارحه بهذه الخواطر ، فقال له هذا :

— انت على حق : إن مسيو « دانجلر » لم يكن غير عامل ثانوى فى هذه المأساة المحزنة .. اما المسئول الأول الذى ينبغى أن تطلب منه إيضاحا فهو الكونت « دى مونت كريستو » .

وهنا التفت « البرت » إلى « دانجلر » قائلا : « فلتعلم إذن أن هذا ليس فراقا نهائيا بيننا ، إلا إذا ثبت لى صحة كلامك . وانى ذاهب الآن لأطلب ايضاحا عن الأمر من الكونت « دى مونت كريستو » ! » .

وعلم « البرت » أن الكونت موجود فى دار الاوبرا ، فقصد إلى هناك ، ولم يكد ينتهى الفصل الثانى حتى اقتحم مقصورة الكونت ، يتبعه شاهداه : « بوشان » و « شاتو رينو » .. فابتدره الكونت مرحبا :

— طابت ليلتك يا مسيو « دى مورسيرف » !

فأجابه : « البرت » : « نحن لم نأت إلى هنا يا سيدى كى نتبادل التحيات القائمة على الرياء والنفاق ، والأدب الزائف او الصداقة المزعومة .. وإنما جئنا لنطلب إيضاحا ! » .

فقال الكونت فى هدوء :

— الحق انى لست افهمك يا سيدى ، وإذا كنت افهمك فلا مفر لى من ان انبهك إلى أن صوتك مرتفع اكثر مما ينبغى .. فانا المضيف هنا ، وانا وحدى صاحب الحق فى ان يعلو صوتى على صوت سواى .. فلتغادر مقصورتى حالا !

ثم اشار له نحو الباب ، فى أروع مظاهر الوقار !

فأجابه « البرت » وهو يضرب يده بقفازه : « حسنا !.. ساعرف كيف اجعلك تخرج من مكمنك ! » .

فقال الكونت فى هدوء :

— مرحى ، مرحى ، أرى انك تريد ان تتشاجر معى ، لكنى ساعطيك نصيحة واحدة فى هذا الصدد ، يحسن بك ان تعيها جيدا ، إنه لمن سقم الذوق أن تتظاهر بالتحدى ، فإن التظاهر لا يخدع كل إنسان يا مسيو « دى مورسيرف » !

.. وعلى كل حال لنتفق من الآن ، ولتكن المبارزة بالمسدسات ، فى الساعة الثامنة ، فى غابة (فنسين) !

* * *

وبعد حين استقل الكونت عربته ، وكان هادئا باسما ، فوصل إلى منزله بعد خمس دقائق .. ولم يكد يدخل حتى نادى تابعه « على » وابتدره قائلا :

— احضر لى مسدساتى ذات الصليب العاجى !

وحين أحضرها له تناول أحدها فصوبه نحو طبق حديدى كان يتخذه هدفا يتدرب عليه ، وفى هذه اللحظة طرق الباب ودخل خادمه « بابتستان » .. وقبل أن ينطق بكلمة راى الكونت فى الغرفة المجاورة امراة تضع على وجهها نقابا ، مقبلة فى اثر الخادم ، فلما رات المسدس فى يد الكونت والسيوف التى على المنضدة أمامه اندفعت داخلة .. وإذ ذاك خرج الخادم واغلق الباب .. فدارت المراة بعينيها فيما حولها كانما لتستوثق من انهما وحيدان ، ثم انحنت كمن تتاهب للركوع ، وضمت يديها فى توسل يائس وهتفت فى ضراعة :

— « إدمون » !.. إنك لن تقتل ابنى يا « إدمون ! » .

فتراجع الكونت واطلق آهة تعجب ، ثم ترك المسدس يسقط من يده ، وسالها :

— ما هذا الاسم الذى نطقت به يا مدام « دى‌مورسيرف ؟»

فصاحت وهى تزيح النقاب عن وجهها :

— إنه اسمك !.. اسمك الذى انا وحدى لم انسه .. إن مدام « دى مورسيرف » ليست هى التى تتوسل إليك الآن .. بل « مرسيديس ! » .

فقال الكونت :

— إن مرسيديس قد ماتت يا سيدتى ، ولست اعرف الآن امراة بهذا الاسم !

فقالت :

— كلا إن مرسيديس على قيد الحياة يا سيدى ، وهى ما تزال تذكر ، فهى وحدها التى عرفتك حين راتك ، بل عرفتك بصوتك قبل ان تراك يا « إدمون » !.. ومنذ تلك اللحظة تتبعت خطاك وراقبتك ، وخشيت باسك ، ولست فى حاجة إلى أن اسال عن اليد التى انزلت الضربة التى يترنح تحت وطاتها الآن مسيو « دى مورسيرف » .. بل إن ابنى بدوره قد استنتج من تكون ، وقد عزا المصائب التى دهمت اباه إلى تدبيرك :

— انت مخطئة يا سيدتى ، فهى ليست مصائب ، وإنما هى عقاب !.. ولست انا الذى يضرب مسيو « دى مورسيرف » ، وإنما هى العناية الإلهية التى تعاقبه !

— ولماذا تمثل انت العناية الإلهية ؟ لماذا تذكر انت ما ارادت هى ان يطويه النسيان ؟.. ماذا يهمك من أمر (يانينا) وواليها ؟ « إدمون » !.. اى اذى الحقه بك « فرناند موندجو » بخيانته « لعلى باشا ؟ » .

ـ آه يا سيدتى ، كل هذا أمر يخص الضابط الفرنسى وابنة « فاسيليكى » ، ولا يخصنى انا ، انت محقة فى ذلك .. وإذا كنت قد اقسمت لأنتقمن لنفسى ، فإن هدف انتقامى لم يكن الضابط الفرنسى ، أو الكونت « دى مورسيرف » ، وإنما هو صياد السمك « فرناند ، زوج « مرسيديس » سليلة عشيرة (كاتالان) .. ! » .

فصاحت الكونتيس : « آه يا سيدى ، ياله من انتقام رهيب ، من اجل غلطة كان القدر هو المسئول عن جعلى ارتكبها . فالواقع اننى انا المذنبة الوحيدة يا « إدمون » ، وإذا كنت تبغى الانتقام من لحد فليكن انتقامك منى انا التى لم يكن لى من قوة الخلق ما يمكننى من احتمال غيابك ووحدتى ! .. »

ـ ولكن .. من كان السبب فى غيابى ، وفى دخولى السجن ؟

ـ لست أعلم .. وصدقنى !

ـ إننى أصدقك يا سيدتى ، أو هذا ما ارجوه على الأقل ؛ .. لكنى سأذكر لك السبب ، لقد اعتقلت وسجنت لأنه فى اليوم السابق لموعد زواجى منك ، وفى مقهى « لاريزرف » ، كتب شخص يدعى « دانجلر » خطابا ارسله الصياد « فرناند » بنفسه إلى الجهة الموجه إليها !

ثم مضى الكونت إلى درج مكتبه ففتحه واخرج منه ورقة حال لونها وبهت حبرها من طول الزمن ، فوضعها فى يد

« مرسيديس » ، ولم تكن سوى خطاب « دانجلر » إلى قاضى التحقيق :

فقالت « مرسيديس » بعد أن قرأتها ، وهى تمر بيدها على جبينها المبلل بالعرق :

ـ ياللفظاعة ! .. وكانت نتيجة هذا الخطاب أن ..

ـ كانت نتيجته ما تعرفينه جيدا يا سيدتى ، من اعتقالى على المائدة وإيداعى السجن .. لكنك لا تعرفين كم بقيت فى السجن . لا تعرفين انى عشت أربعة عشر عاما فى زنزانة بقصر « ايف » ، على بعد بضعة كيلومترات منك ! .. لا تعرفين انى قضيت تلك المدة اجدد القسم كل صباح على ان انتقم .. ولو أنى لم اكن اعلم وقتئذ أنك قد تزوجت من « فرناند » ـ جلادى ـ وأن ابى قد مات من الجوع !

فقالت « مرسيديس » وهى ترتجف : « هل يمكن ذلك ؟ » .

فقال الكونت :

ـ هذا ما عرفته عند خروجى من السجن .. وهذا ما جعلنى احرص على الانتقام لنفسى من « فرناند » ، وقد فعلت !

ونكست المرأة التعسة راسها ، وتركت ذراعيها تسقطان إلى جانبها وتخاذلت ساقاها تحتها .. ثم ركعت على ركبتيها متوسلة قائلة : « اصفح يا « إدمون » ، اصفح من اجلى انا التى ما زلت احبك ! » .

فاندفع الكونت نحوها ورفعها عن الأرض .. فلما جلست على المقعد نظرت إلى وجهه المهيب الناطق بالرجولة ، وبالحزن والكراهية ، ولم تتكلم ، فسألها هو : « اتريدين الا اسحق تلك الشجرة اللعينة ، وان اتنازل عن هدفى فى اللحظة التى بلغته فيها . هذا مستحيل يا سيدتى .. مستحيل ! » .

فهتفت الأم التعسة : « إدمون » !.. عندما اناديك باسم « إدمون » ، لم لا تنادينى باسم « مرسيديس ؟ » .

ــ « مرسيديس » ؟.. حسن يا « مرسيديس » ! .. انت على حق ولا شك ، فما زال لهذا الاسم سحره القديم . وإنها المرة الأولى منذ زمن طويل التى انطق فيها به فى وضوح . أواه يا « مرسيديس ! » . لقد هتفت باسمك فى ظلمة اليأس والحزن والجنون « مرسيديس ! » ويجب أن انتقم لنفسى ، فقد تعذبت أربعة عشر عاما .. بكيت اربعة عشر عاما ، والآن اصارحك بأنى ينبغى ان انتقم لنفسى !

ــ انتقم لنفسك يا « إدمون » ، ولكن دع انتقامك يحل بالمذنبين لا بالأبرياء .. انتقم منه ، ومنى ، ولكن ليس من ابنى !

ــ مكتوب فى التوراة : إن ذنوب الآباء تقع على الأبناء حتى الجيلين الثالث والرابع .. فإذا كان الله ذاته قد أملى هذه الأحكام على نبيه ، فهل اكون انا ارحم من الله ؟

فاستطردت « مرسيديس » قائلة وهى تمد ذراعيها نحو الكونت :

ــ « إدمون » !.. منذ عرفتك فى البداية عبدت اسمك واحترمت ذكراك ! .. « إدمون » يا صديقى ! .. لا تلطخ الصورة النبيلة النقية التى تنعكس على مرآة قلبى !.. لو عرفت الصلوات التى رفعتها إلى الله من أجلك وقت ان كنت أحسبك حيا ، ومنذ رجحت انك مت : لقد ظللت عشر سنوات أحلم كل ليلة بحلم واحد وهو انك حاولت الهرب من السجن بوضع نفسك فى كفن سجين آخر ميت ثم القيت من قمة قصر (إيف) فسقطت على الصخور وتحطمت جمجمتك !.. « إدمون » ، اقسم لك برأس ابنى الذى التمس الآن عفوك عنه إنى لبثت أرى تفاصيل هذه الفاجعة المخيفة كل ليلة طيلة عشر سنوات ، واسمع صرختك المروعة ورأسك يصطدم بالصخر ، فكنت استيقظ من نومى ارتجف من الفزع وانا احس بقشعريرة كالبرد .. وهكذا ترى يا « إدمون » انى بدورى قد قاسيت آلاما مروعة .. والآن هانذا أرى من احببت على اهبة ان يقتل ابنى !

فاهت « مرسيديس » بهذه الكلمات فى لهجة اسى ويأس مريرة ، لم يستطع الكونت « دى مونت كريستو » إزاءها أن يقمع زفرة حسرة موجعة !

إن الأسد روض نفسه والمنتقم قد هزم !.. ولم يلبث ان قال لها :

ــ ماذا تطلبين منى ؟.. حياة ابنك ؟.. حسنا إنه سوف يعيش !

وهنا اطلقت « مرسيديس » صيحة جعلت الدموع تلمع فى عينى الكونت ، وقالت وهى تمسك بيده وترفعها إلى شفتيها :

ــ شكرا ! شكرا لك يا « إدمون » : الآن حققت ظنى فيك ، فى الرجل الذى احببته على الدوام .. دعنى اعترف بذلك الآن !

ــ وليس فى ذلك من بأس على كل حال ، فإن « إدمون » المسكين لن يعيش طويلا كى يستمتع بحبك . إن الموت لن يلبث أن يعيده إلى القبر ، شبحا يختفى فى الظلام !

ــ ماذا تعنى يا « إدمون ؟ » .

ــ اعنى اننى ينبغى ان اموت ، فما احسبك تفترضين أن فى مقدورى مواجهة الحياة لحظة واحدة بعد أن اهنت أمام الملأ من فتى سوف ينتشى بصفحى كما لو كان انتصارا له !.. إن اول شىء احببته بعدك يا « مرسيديس » هو كرامتى ، وتلك هى القوة التى جعلتنى اسمو على الآخرين .. والآن جئت أنت فسحقتنى بكلمة واحدة منك .. لذلك ينبغى أن اموت !

ــ لكنك تعدنى بشرفك ان المبارزة لن تتم ، اليس كذلك؟

ــ بل إنها ستتم ، ولكن بدلا من أن يسيل دم ابنك على الأرض ، سوف يسيل دمى انا !

فشهقت « مرسيديس » ، واندفعت نحو الكونت ، لكنها

توقفت فجاة وقالت : « إدمون » !.. ما دمت قد نجوت من كل ما مر بك ، وما دمت قد رايتك ثانية على قيد الحياة ، نبيناك إذن إله تعلو ارادته ارادتنا .. وانا أؤمن به من صميم قلبى ، وفى انتظار معونته اركن إلى وعدك بأن ابنى سيعيش ، اليس كذلك ؟..

فأجاب الكونت وقد ادهشه تقبل المراة لتضحيته المميتة دون تردد :

ــ نعم يا سيدتى ، سوف يعيش !

ــ « إدمون » ، لم تبق لى غير كلمة واحدة اقولها لك : « لئن كنت ترى أن وجهى قد ذبل ، وعينى قد انطفأتا ، وجمالى قد ذهب .. فإنك سترى ايضا ان قلبى لم يتغير .. فوداعا إذن يا « إدمون » ، ليس لى ما أطلبه من السماء اكثر مما حبتنى به ، لقد رايتك ثانية يا « إدمون » ، ووجدتك نبيلا عظيما كعهدى بك فى الماضى .. فوداعا يا إدمون .. وداعا .. وشكرا ! » .

.. ثم فتحت « مرسيديس » باب حجرة المكتب واختفت قبل أن يفيق الكونت من الصدمة الموجعة التى احدثها له حبوط انتقامه المرموق !

وحين دقت ساعة « الانفاليد » إيذانا بحلول الساعة الأولى بعد الظهر ، كانت عربة مدام « دى مورسيرف » تبتعد بها فى طريق الشانزليزيه .. فى حين رفع الكونت « دى مونت كريستو » راسه وهتف محدثا نفسه كمن يفيق من حلم :

— يالى من غبى !.. كيف لم أمزق قلبى وعواطفى فى هذا اليوم الذى اعتزمت فيه ان انتقم لنفسى ؟

* * *

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى مضى الكونت وشاهده « مكسمليان موريل » إلى مكان المبارزة ، حيث تقدم « مكسمليان » نحو « بوشان » و « شاتو رينو » شاهدى خصمه ، فانحنى الثلاثة بعضهم لبعض فى أدب ، ثم وصل « البرت دى مورسيرف » فقفز من جواده على بعد خطوات وانضم إليهم :

كان « البرت » شاحب الوجه غائر العينين ، شأن من لم يذق طعم النوم طيلة الليل .. وبعد ان شكر الحاضرين على تجشمهم عناء الحضور قال :

— عندى كلمة اريد ان اقولها للكونت «دى مونت كريستو» امامكم جميعا !

فتقدم الكونت منه فى هدوء واتزان يتناقضان مع اضطراب خصمه ، ووقف الاثنان تفصل بينهما ثلاث خطوات .. فقال « البرت » فى صوت مختلج .

— سيدى الكونت !.. لقد وجهت إليك اللوم على تصرفك بصدد مسلك مسيو «دى مورسيرف» فى (إبيروس) .. وكان من رأيى بصرف النظر عن آثامه التى ارتكبها ان ليس لك الحق فى مؤاخذته عليها !.. لكنى وقفت بعد ذلك على ما بدل رأيى واقنعنى بأنك تملك هذا الحق .. وليس غدر « فرناند

مونديجو » « بعلى باشا » هو الذى من أجله التمس لك العذر ، وإنما هو غدر الصياد « فرناند » بك انت ، والتعاسة البالغة التى لحقت بك بسببه .. وهأنذا اقول علانية وعلى رءوس الأشهاد إنك كنت محقا فى الانتقام لنفسك من أبى .. وإنى بوصف كونى ابنه ، اشكرك لأنك لم تقس عليه أكثر مما فعلت !

ومد الكونت « دى مونت كريستو » يده إلى « ألبرت » وقد تندت عيناه بالدموع ، فصافحه هذا فى احترام وتوقير أقرب إلى الخشوع !.. فى حين غمغم الكونت :

— حقا : إن الله موجود .. الآن فقط اكتمل إيمانى بأنى مبعوث من السماء للانتقام !

* * *

عاد ألبرت إلى منزل أبيه فى شارع (هلدر) . وبعد أن القى نظرة ساخرة على كل أسباب الترف التى جعلت حياته منذ الطفولة سعيدة سهلة .. بدأ يجمع كل حاجياته مبتدئا بصورة أمه ، وأسلحته ، وتحفه ، ثم ترك فى أحد الأدراج المفتوحة جميع النقود التى كانت فى جيبه ، وكشفا بكل الأشياء التى تركها فى الخزائن ، وحين فرغ من ذلك سمع صوت عربة تقف أمام الباب ، ورأى أباه يستقلها ثم تسير مبتعدة به .. فاستدار الابن عن النافذة واتجه نحو حجرة أمه ، وكأنما تحرك الاثنان بوحى فكرة واحدة ، فقد وجد أمه تفعل مثلما كان يفعله هو منذ برهة !.. ورأى كل ثيابها

ومجوهراتها ونقودها مرتبة فى ادراجها ، وهى تجمع مفاتيحها .. ففهم « البرت » مغزى ذلك ، وهتف بأمه وقد كاد تأثره يعجزه عن الكلام !

— أوه يا أمى ، لا يمكن أن تكونى اعتزمت مثل ما اعتزمته .. لقد جئت لأودع بيتك ، وأودعك !

فأجابته قائلة :

— انا ايضا ذاهبة !.. وقد وطنت نفسى على انك سترافقنى ، فهل ترانى خدعت فى ظنى ؟

— سأنفذ جميع رغباتك يا امى العزيزة .. وما دام عزمك قد استقر على هذا القرار ، فلنتصرف بحكمة : لقد خرج ابى منذ هنيهة ، والفرصة الآن سانحة كى نذهب دون أن نقدم له إيضاحا !

— انا على أتم استعداد يا بنى !

وخرج « البرت » ليستدعى عربة ، وقد اعد فى ذهنه خطة الانتقال إلى مسكن مفروش متواضع فى شارع (دى سانت بيره) وحين عاد بالعربة وهبط منها لينادى امه اقترب منه شخص مجهول وسلمه رسالة قائلا :

— إنها من الكونت ، ثم اختفى «برتوشيو» من حيث اتى !

ولم يكد الشاب يقرأ الرسالة حتى لمعت فى عينيه الدموع، ودون ان ينطق بحرف سلم الرسالة إلى أمه ، فقرأت فيها :

— عزيزى « البرت » .. لقد اكتشفت خططك ، وأرجو أن اقنعك بوجهة نظرى ، انت حر فى ان تغادر بيت ابيك وتأخذ امك إلى بيتك ، ولكن اذكر يا « البرت » انك مدين لها بأكثر مما يستطيع قلبك المسكين النبيل ان يبذل لها ، فاحتفظ بالصراع لنفسك واحتمل جميع آلامك ، ولكن جنب أمك محنة الفقر التى لا بد ستقترن بمحاولتك ، ولو فى البداية .. فهى لا تستحق شيئا من النكبة التى حلت بها اليوم ، والله لا يحب ان يتألم البرىء من أجل المذنب !.. انا اعلم انكما قد اعتزمتما مغادرة منزل شارع (دى هيلدر) دون أن تأخذا شيئا من اموالكما او متاعكما . لا تسألنى كيف علمت بذلك ، وإنما حسبك أنى علمت به وكفى .. ! » .

* * *

وكان الكونت « دى مورسيرف » قد توجه بعربته إلى دار الكونت « دى مونت كريستو » ، حيث أمر رب البيت بإدخاله إلى الصالون . وفيما كان هذا يذرع الحجرة للمرة الثالثة ، دخل مضيفه ، قائلا فى هدوء :

— اهذا انت يا مسيو « دى مورسيرف » ؟ حسبت انى اخطأت السمع !

فقال « دى مورسيرف » وشفتاه تختلجان فى انفعال عاقه عن الاستمرار فى الكلام : « نعم إنه انا ! » .

— وهل لى أن أعرف سبب تشرفى بزيارتك فى هذه الساعة المبكرة ؟

— جئت لأقول لك : إننى بدورى انظر إليك باعتبارك عدوى .. جئت لأقول لك إنى أمقتك بوحى الغريزة ، بحيث يخيل إلى اننى طالما عرفتك ، وطالما كرهتك .. وبالاختصار، ما دام شباب اليوم لن يتبارزوا ، فقد بقى علينا ان نفعل ، هل انت مستعد ؟ انت تعلم أننا سنظل نقتتل حتى يموت احدنا !

— إذن فلنبدأ !.. لسنا فى حاجة إلى شهود !

— هذا صحيح ، فنحن نعرف احدنا الآخر تمام المعرفة ..

وهنا شحب وجه الكونت « دى مونت كريستو » شحوبا مخيفا ، ولمعت عيناه ببريق كاللهب ، ثم اندفع نحو غرفة مجاورة وعاد بعد لحظات مرتديا سترة لبحار وقبعة ينسدل من تحتها شعره الأسود الطويل ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره وتقدم نحو غريمه شامتا ، فى حين اصطكت اسنان هذا وارتجفت قدماه تحته ، فأخذ يتراجع فى فزع حتى اصطدم بمنضدة فاستند إليها .. على حين صاح به الكونت « دى مونت كريستو » :

— فرناند !.. من بين المائة اسم التى أطلقتها على نفسى لست فى حاجة إلى ان اذكر لك غير اسم واحد ، لعلك عرفته الآن من هيئتى .. فإننى برغم الأحزان والعذاب الذى قاسيته، اطالعك اليوم بوجه ترد إليه سعادة الانتقام والتشفى شبابه القديم !.. وجه لا بد انك رايته مرارا فى احلامك منذ زواجك من « مرسيدس » ، خطيبتى !

ومد الجنرال يديه مستنجدا من الرعب الشديد الذى اعتراه ومضى يتلمس الجدار حتى بلغ الباب فانسحب منه وهو يطلق هذه الصرخة اليائسة : «إدمون دانتيس ؟!» .. وما بلغ الباب الخارجى حتى ارتمى بين ذراعى حوذيه الذى عاونه على ركوب العربة ، وعاد به إلى البيت !.

.. وأمام البيت كانت تقف عربة متواضعة — لم تر من قبل امام بيت نبيل مثله — فدلف الجنرال إلى الداخل ، على حين كانت زوجته وابنه يهبطان السلم ، والفتى يخاطب والدته :

— تشجعى يا اماه ، فلم يعد هذا بيتنا !

فاختفى الأب وراء إحدى الستائر فى آخر لحظة وهو يشهق شهقة مروعة لم يصدر مثلها يوما من صدر إنسان .. شهقة رجل تهجره زوجته وابنه فى يوم واحد !

وحين بلغ مخدعه اطل ليلقى نظرة أخيرة على العربة وهى تبتعد حاملة أعز من له فى الوجود .. وفى اللحظة التى كانت العربة تختفى فيها عن ناظريه ، سمعت طلقة نارية تصاعد على اثرها الدخان من خلال ثغرة فى زجاج النافذة احدثها الانفجار !

- ٢٣ -

سم ينقذ من سم !

كان « مكسمليان موريل » قد عاد من مكان المبارزة إلى منزل أسرة « فيلفور » حيث كانت « فالنتين » فى انتظاره فى غرفة جدها .. وفى أثناء حديثها عن اعتزام جدها الانتقال بها إلى مسكن مستقل بسبب عدم ملاءمة طقس ذلك الحى لصحتها ، قالت له :

— الواقع أنى فقدت شهيتى وصرت أحس كأن معدتى تجاهد كى تألف شيئا ما !

فسألها « مكسمليان » : « وأى علاج تستعملين لمداواة هذه الحالة ؟! » .

— ابتلع كل صباح ملعقة صغيرة من المزيج الذى أعد من أجل جدى .. أعنى أنى بدأت بملعقة واحدة والآن أتناول أربع ملاعق .. وهو مزيج مر الطعم إلى أقصى حد !

شحب وجه « نوارتييه » وهو يصغى إلى كلام حفيدته ، كأنما أدرك خطورته ، فأشار لها كى تحضر القاموس لأنه يريد أن يتكلم ..

وفى تلك اللحظة اندفع الدم إلى وجنتى الفتاة ، وصاحت وهى تترنح قليلا :

— أوه ، هذا غريب !.. لست أدرى ، لكأن الشمس تسطع فى عينى !

واستندت إلى النافذة ، فهرع « مكسمليان » نحوها منزعجا ، لكنها ابتدرته مطمئنة : « لا تقلق ، إنه عارض طارىء ، وقد زال .. ولكن ، أليس هذا صوت عربة تقف أمام الباب ؟ » .

وفتحت الباب وأطلت ، ثم قالت : « نعم ، إنها مدام « دانجلر » وابنتها ، جاءتا لزيارتنا .. إلى اللقاء ، فإنه ينبغى أن أذهب قبل أن ترسلا فى طلبى .. ابق مع جدى « يا مكسمليان » ، وإلى اللقاء ! » .

لبث الشاب يراقبها وهى تهبط السلم المؤدى إلى جناح مدام « دى فيلفور » وجناحها هى .. وما كادت تنصرف حتى أشار الشيخ المشلول إلى « مكسمليان » كى يحضر القاموس ويترجم إشاراته ، وكان الشاب قد عرف طريقة التفاهم معه هكذا من « فالنتين » .

وقال « نوارتييه » للشاب : « أحضر الإبريق والكوب اللذين فى غرفة « فالنتين » ! » .

فدق الشاب الجرس للخادم ، وأمره بإحضار الآنيتين ، وكانتا فارغتين تماما ، فسأله سيده :

— كيف ذلك « وفالنتين » قالت إنها لم تشرب غير نصف محتويات الإبريق ؟

وأجاب الخادم بأنه لا يدرى ، ولعل الخادمة أفرغت الباقى .
وأشار إليه سيده أن يسأل الخادمة ، فأومأ مطيعا ثم انصرف .. وعاد بعد حين يقول : « كانت الآنسة « دى

فيلفور» تعبر غرفتها إلى غرفة زوجة أبيها حين أحست بالظمأ فشربت ما تبقى فى القدح ، أما الإبريق فقد أفرغه السيد « إدوار » كى يصنع بحيرة تمرح فيها بجعاته ! » .

وفى أثناء ذلك كانت مدام « دانجلر » تنهى إلى مضيفتها بشرى خطبة الأمير « كافالكانتى » لابنتها ، وفى أثناء الحديث التفتت الضيفة إلى « فالنتين » قائلة : « ماذا بك يا ابنتى ؟ لقد تعاقب الشحوب والاحمرار على وجهك أربع مرات فى دقيقة واحدة ؟ » .

وانتهزت مدام « دى فيلفور » الفرصة فقالت للفتاة « يحسن أن تذهبى لتستريحى يا « فالنتين » ، فإنك لست على ما يرام ، ولتشربى قدحا آخر من الماء ، فهو ينفعك ! » .

وعلى أثر انصرافها قالت المرأة لضيفتها : « إن أمر هذه الفتاة يزعجنى وأخشى أن تكون مصابة بمرض خطير ! » .

وفى أثناء عودة « فالنتين » إلى حجرة جدها غامت على عينيها سحابة جعلتها تنزلق من السلم وتسقط على الأرض ، فلحق بها « مكسمليان » ورفعها بين ذراعيه .. وطفرت من عينى « نوارتييه » صرخة رعب شلت على فمه .. ثم أقبل « دى فيلفور » فهرع نحو ابنته وأخذها بين ذراعيه وصاح قائلا : « طبيب .. طبيب .. مسيو « دافرينى » .. أو لعل الأفضل أن أدعوه بنفسى » وخرج على عجل ، فى حين خرج « مكسمليان » من الباب الآخر !

وحين عاد مسيو « فيلفور » وبصحبته الطبيب ، كانت

« فالنتين » قد عادت إلى وعيها ، لكنها ظلت عاجزة عن الحركة أو الكلام . وبعد أن فحصها وكتب لها العلاج مضى إلى غرفة « نوارتييه » وأغلق الباب وراءه .. ثم قال له : « أتعتقد أن اليد التى أصابت « باروا » هى التى تهاجم « فالنتين » الآن ؟ » . فأومأ موافقا ، ثم ابتسم وهو ينظر إلى زجاجة المزيج الذى يتناول منه كل صباح .. فهتف الطبيب :

ـ حسن ! .. فهمت يا سيدى .. إنك جعلت جسمها يألف هذا السم بالتدريج قبل أن تعطى الجرعة القاتلة .. ولولا هذا الاحتياط لماتت « فالنتين » قبل أن نتمكن من إسعافها !

وفى الوقت الذى عاد فيه الطبيب إلى مخدع « فالنتين » ، برفقة أبيها ، استأجر راهب إيطالى يدعى السنيور « جياكومو بوزونى » المنزل الملاصق لبيت « فيلفور » !

* * *

فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم نفسه كان البارون « دانجلر » يذرع حجرة صالونه فى قلق ظاهر ، فى انتظار دخول ابنته التى طلبت أن تتحدث إليه على انفراد فى تلك الغرفة بالذات . ولم تلبث « أوجينى » أن دخلت مرتدية ثوبا من الساتان الأسود ، وقد صففت شعرها وأمسكت قفازها كما لو كانت ذاهبة إلى دار الأوبرا !

وسألها أبوها : « ماذا تريدين أن تقولى لى ؟ » .

فأجابته فى لهجة حازمة جعلته يقفز من مقعده كالملدوغ :

— اريد ان اقول باختصار : إننى لن أتزوج الكونت « اندريا كافالكانتى » !

— ماذا ؟.. أصغى إلى يا ابنتى ، ولسوف أحدثك بالصراحة التى تحبينها . إننى حين طالبتك باتمام هذا الزواج كنت انظر إلى هدف خطير من ورائه !

— تعنى ان مركزك المالى مهدد ؟

— نعم يا بنيتى ، وانا اريد تزويجك من الكونت « كافالكانتى » لأنه سوف يضع بين يدى ثروته الطائلة البالغة ثلاثة ملايين من الجنيهات .

فقالت الفتاة باحتقار : « هذا عظيم ! »

— انت تخشين ان أحرمك من هذه الثروة ؟ ولكن هذه الملايين الثلاثة سوف تدر ربحا قدره عشرة ملايين او اثنا عشر مليونا ، بفضل مشروع امتياز للسكك الحديدية حصلت عليه بالاشتراك مع زميل لى .. ومطلوب منى أن أودع خلال اسبوع أربعة ملايين ، مقدار حصتى فى المشروع . على أن زواجك نفسه من هذا الثرى كفيل بان يرد لى سمعتى المالية .

— هل تعدنى بأن تسترد مركزك المالى باستغلال هذه السمعة ، دون أن تمس مبلغ الثلاثة الملايين ذاته ؟ وان تدفع مهرى البالغ نصف مليون فرنك عند الزواج ، وأن تترك لى حريتى الشخصية كاملة ؟

— أعدك بذلك !

— إذن سأتزوج مسيو « كافالكانتى ! » .

وحددت الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه موعدا لتحرير عقد الزواج ، فارتدت العروس ثوبا بسيطا انيقا ، فى حين جلست امها تثرثر مع » بوشان « و « شاتو رينو » و « دبراى » .. وجلس « دانجلر » يتحدث إلى نفر من رجال المال المدعوين عن مشروعات الضرائب التى يعتزم تنفيذها إذا عين وزيرا .. ثم تحدث الكونت « اندريا كافالكانتى » عن الوان الترف التى قرر إدخالها على المجتمعات الرفيعة بفضل إيراده السنوى الضخم !

وفى الساعة التاسعة اعلن وصول الكونت « دى مونت كريستو » ، وقد دخل فى حين كانت مدام « دانجلر » تضع توقيعها على عقد زواج ابنتها ، قائلة لصديقتها مدام « دى فيلفور » : « اليس من سوء الحظ ان يحول حادث سرقة دار الكونت « دى مونت كريستو » ، دون حضور صديقتنا مسيو « دى فيلفور » ؟ » .

وهنا قال الكونت « دى مونت كريستو » ، الذى كان قليل الكلام بحيث كانت كل كلمة ينطق بها تلفت الأسماع :

— اخشى ان اكون انا المتسبب بلا قصد فى إعاقة مسيو « فيلفور » عن الحضور .. فلقد عثر خدمى اليوم على سترة السارق الذى قتله شريكه عند هبوطه من نافذة دارى ، وكانت قد فقدت فى اثناء فحص البوليس والإسعاف لجراحه

.. وبتفتيشها وجدت فيها ورقة تتضمن خطابا موجها إلى البارون « دانجلر ! »

وهنا هتف « دانجلر » متعجبا : « لى انا ؟! » .

فقال الكونت : « نعم ! ولما كانت هى والسترة هما الدليل المادى فى الجريمة فقد ارسلتها إلى قاضى التحقيق ، خشية ان تكون هناك مؤامرة مدبرة ضدك ! » .

فقال « دانجلر » : « هذا معقول !.. الم يكن السارق القتيل قاتلا من « خريجى » الليمان ؟ » .

— نعم .. وهو يدعى « كادروس » !

وهنا شحب وجه « دانجلر » قليلا ، فى حين تسلل الكونت « اندريا كافالكانتى » فى سكون إلى خارج الغرفة .. فقال الكونت « دى مونت كريستو » :

— ارى ان قصتى قد اثارت جوا من الانزعاج ينبغى الاعتذار بسببه للبارونة والآنسة « دانجلر » : « فهل لكم ان تتابعوا إجراءات العقد ؟ » .

وكانت البارونة قد فرغت من التوقيع ، وردت الريشة لمسجل العقود ، فصاح هذا مناديا : « الأمير « كافالكانتى » .. الأمير « كافالكانتى » !.. اين سمو الأمير ؟ » .

وفى تلك اللحظة اقتحم الصالون نفر من جنود البوليس يتقدمهم ضابط اقترب من البارون « دانجلر » فى حركة مريبة ، فاطلقت البارونة صرخة وسقطت مغشيا عليها ، فى حين بدا على وجه « دانجلر » رعب شديد !

وتساءل ضابط البوليس : « ايكم يا سادة يدعى « اندريا كافالكانتى » ؟ »

فساد المكان هرج ومرج ، وراح الكل يبحثون عن الأمير المختفى ، فى حين هتف « دانجلر » مستفسرا : « لماذا يبحثون عنه ؟ » فاجاب الضابط : « إنه مجرم هارب من ليمان طولون. وهو متهم الآن بقتل زميله السابق فى الليمان ، المدعو « كادروس » فى اثناء فراره من دار الكونت « دى مونت كريستو » ! » .

لكن « اندريا » كان قد لاذ بالفرار ..!

* * *

دقت الساعة الحادية عشرة ، و « فالنتين » راقدة فى فراشها تغالب الحمى ، بعد ان انصرفت الممرضة منذ عشر دقائق .. وكانت الحمى قد هيأت للمريضة الوانا من الأخيلة والهواجس والرؤى المتتابعة المختلفة .. وكان المصباح يرسل ضوءه الضئيل المرتعش ، الذى يرسم اشكالا واشباحا تزيد فى هواجس المحمومة ، وفجاة خيل إلى « فالنتين » انها ترى باب غرفتها يفتح على مهل فى سكون ، ويتسلل منه إلى الداخل شبح يقترب من فراشها متلصصا ، وتذكرت « فالنتين » ان خير وسيلة لتبديد تلك الرؤى هى ان تشرب جرعة من الدواء الذى اعده لها الطبيب ، فمدت يدها تتلمسه .. وفى هذه اللحظة هرع الشبح نحوها كانما ليمنعها من ان تشرب ، فاستردت هى ذراعها مذعورة ، فى حين تناول هو الكأس فسكب فيها ملعقة من دواء كان معه .. ثم همس لها .

ــ الآن يمكنك ان تشربى !

كادت فالنتين تصرخ مذعورة ، لولا ان وضع الشبح يده على فمها ، فغمغمت وقد تبينت شخصيته : « الكونت دى مونت كريستو ؟ » .

فأجابها : « أصغى إلى ، أو بالأحرى انظرى إلى شحوب وجهى واحمــرار عينى ! .. إننى منذ اربع ليال لم يغمض لى جفن ، كى اسهر على حمايتك من اجل « مكسمليان » ! » .

فغمغمت « فالنتين » وقد عاودها الاطمئنان : « هل حدثك بما كان ؟ »

فقال الكونت لها : « نعم لقد ذكر لى كل شىء ، وأكـد ان حيــاتك عنــده اثمن من حيــاته ، وقد وعــدته بأنك ستعيشين ! » .

ــ تقول إنك سهرت على حمايتى ؟.. لكنى لم أرك !..

ــ قضيت معظم وقتى مختبئا خلف هذا الباب ، الــذى يقود إلى المنزل الملاصق ، وقد استأجرته خصـيصا لهـذا الغرض ..

وفى اثناء مراقبتى الطويلة رأيت الأشخاص الذين يزورونك ، والطعام والشراب الذى يعد لك ، وكنت كلما وضع لك سم قاتل ، استبدلت به شرابا صحيا منعشا !

ــ سم قاتل ؟!.. ما هذه الأشياء المرعبة التى تحـدثنى عنها ؟

ــ لم تكونى أولى من تعرض لهذا الخطر هنا .. هــل نسيت ما حدث للمركيز والمركيزة « دى ميران » ، ولذلك الخادم الأمين « باروا » ؟.. لقد سـقطوا جميعــا صرعى بالطريقة نفسها !.. وكان المنتظر ان يلقى المسيو «نوارتييه» مثل هذا المصير فيموت بالسم أيضا ، لولا أن العلاج الذى يتعاطاه منذ ثلاث سنوات اعطاه مناعة ضده !

ــ يا للسماء .. إذن فهذا هو السبب الذى جعل جدى يسقينى من دوائه طيلة الشهر الأخير ؟

ــ إنه دواء مر المذاق ، أليس كذلك ؟ إذن فجدك يعلـم أن قاتلا يعيش تحت سقف هذا البيت ، ولعـله يرتاب فى شخصـه .. وقد حرص على أن يحصنك ــ وانت محبوبته ــ ضد ذلك السم ، ولكن حتى هذا التحصين لم يكن لينقــذك من سلاح آخر مميت استعمل ضدك خلال هذه الأيام الأربعة الأخيرة !

ــ ولكن من يكون هذا القاتل ؟

ــ ألم ترى أحدا يدخل غرفتك فى أثناء الليل ؟

ــ لقد طالما رأيت أشباحا تقترب ثم تبتعد ، لكنى حسبتها من خيالات الحمى ، كما حسبتك انت فى البداية !

ــ إذن تذرعى بكل شجاعتك ، وارهفى سـمعك لـكل صوت ، وراقبى كل شىء جيدا خلال تظاهرك بالنــوم .. وعندئذ ترين كل شىء !

فأمسكت « فالنتين » بيد الكونت وهمست : « اعتقد أنى اسمع صوتا يقترب .. اتركنى الآن ! » .

— إلى اللقاء إذن .

ومشى الكونت على أطراف أصابعه إلى الباب الذى دخل منه ، فاختفى وراءه .. ومرت عشرون دقيقة ، بطيئة ، رهيبة ، ثم فتح باب غرفة « فالنتين » دون صوت .. ولمحت شبحا يقترب من فراشها ، ثم يهمس : « فالنتين !.. فالنتين ! » فلما لم تجب ، سمعت سائلا يصب فى الزجاجة التى تشرب منها ، وإذ ذاك بذلت جهدها كى تفتح اجفانها قليلا وتنظر من خلالها .. فرأت امرأة تصب فى الماء سائلا من قارورة معها .. ولم تكن هذه المرأة سوى زوجة ابيها ، مدام « دى فيلفور ! » .

ولم تفق فالنتين من ذهول المفاجأة الذى استمر دقائق بعد خروج المرأة الآثمة إلا حين فتح الباب المقابل فى سكون ودخل منه الكونت « دى مونت كريستو » وقال لها : « لا تنزعجى من أى شىء يحدث لك ، حتى لو شعرت بأنك فقدت النظر او السمع او الوعى .. أو حتى صحوت فوجدت نفسك داخل نعش مغلق !.. وإنما قولى لنفسك عندئذ : (هناك صديق ، بمثابة أب ، يعيش من أجل سعادتى وسعادة « مكسمليان » ، وهو سيحمينى) ذلك لأننى وحدى من يستطيع إنقاذك ، وسأفعل ! » .

ثم أخرج من جيبه حبة فى حجم الحمصة وقدمها لها ،

فابتلعتها .. وإذ ذاك قال لها : « الآن يا طفلتى المحبوبة ، وداعا إلى حين » .. ثم اختفى » !

وفى الصباح استبطأت الممرضة يقظة المريضة فدخلت لتوقظها .. فلما رأتها هامدة ، بيضاء الشفتين ، صرخت مذعورة .. فدخل على صوت صرختها الطبيب « دافرينى » وقال : « ماذا ؟ أهى الأخرى أيضا ؟ رباه ! » .

* * *

هبط الكونت « دى مونت كريستو » من عربته أمام منزل البارون « دانجلر » واستقبله هذا بابتسامة حزينة قائلا :

— أجئت تعزينى ؟.. لقد تكاثرت المصائب فى بيتى ، فقد فرت ابنتى وهجرتنى ، بعد فضيحة « كافالكانتى » !

فقال الكونت فى هدوء : « إن أى حادث من النوع الكفيل بتحطيم من لا يملك كنزا غير ابنته ، يصبح محتملا فى نظر من يملك الملايين ! » (*)

فقال البارون « دانجلر » : « إذا كان الثراء يجلب التعزية فينبغى أن أتعزى فإنى ثرى .. وفى اللحظة التى دخلت فيها كنت قد فرغت من توقيع صكوك بمبلغ خمسة ملايين من الفرنكات ! » .

فسأله الكونت : « هل هى مستحقة الدفع فورا ؟ » ، وإذ أومأ موافقا ، قال له :

— إذن سأقبل المغامرة ! .. لقد فتحت عندك حسابا بستة ملايين من الفرنكات ، لم أسحب منها حتى الآن إلا

تسعمائة ألف فرنك ، اى أن لى عندك خمسة ملايين ومائة الف ، لكنى سآخذ هذه الصكوك التى تساوى خمسة ملايين واعطيك إيصالا بانى تسلمت كل حسابى !.. إنى فى حاجة إلى هذا المبلغ اليوم !

وسارع الكونت إلى وضع الصكوك فى جيبه ، فبدا الفزع على « دانجلر » وقال له : « ولكن .. ولكنى مدين بهذا المبلغ لجهة ما ، وقد وعدت بدفعه اليوم ! » .

— إذن تدفع لى المبلغ باية وسيلة اخرى غير هذه الصكوك .. ولو انى كنت سافاخر بأن بنك « دانجلر » قد دفع لى خمسة ملايين من الفرنكات فى اللحظة التى طلبتها فيها .. إنه أمر يدعم الثقة بك !

وطافت بذهن « دانجلر » فكرة مفاجئة ، فرضخ لطلب الكونت .

وفيما كان الكونت «دى مونت كريستو» يتأهب للانصراف، دخل ممثل الجهة التى تدين « دانجلر » بالخمسة الملايين . فقال له البارون :

— لقد سبقك الكونت « دى مونت كريستو » فأخذ من حسابه مبلغ خمسة ملايين من الفرنكات ، ولو انى حررت فى يوم واحد صكوكا بعشرة ملايين لأحدث ذلك هزة فى السوق ، فهل لك ان تحضر ظهر غد » .

فوافق الرجل على ذلك وانصرف ، فى حين همس « دانجلر » لنفسه :

— فى هذا الموعد سوف أكون فى مكان بعيد !

أما « فالنتين » فدفنت فى مقبرة « الأب لاشيز » . واغرق أبوها نفسه فى العمل ، لكنه عجز مع ذلك عن أن ينساها .. فدخل ذات يوم جناح زوجته وكانت جالسة تقلب بعض الصحف والمجلات ، وقد ارتدت ثيابها وقفازيها تأهبا للخروج .. وبادر « فيلفور » فأحكم إغلاق الباب بالرتاج ثم وقف بين زوجته وبين الباب ، فسألته وهى تحاول أن تقرأ افكاره « ماذا هناك ؟ » .

فقال لها : « سيدتى .. أين تحتفظين بالسم الذى تستعملينه ؟ » .

فانطلقت من المراة صرخة أو شهقة مكتومة ، وشحب وجهها شحوب الأموات . واجابته متلعثمة : « إنى .. إنى لا أفهم ماذا تعنى ! » .

— لقد سألتك أين تخفين السم الذى قتلت به صهرى وحماتى وخادم أبى ثم ابنتى ؟

— ما هذا الذى تقول ؟

— ليس لك أن تسألى بل عليك أن تجيبى فقط !

— هل أجيب القاضى أم الزوج ؟

— القاضى يا سيدتى .. القاضى !

فأخفت المراة وجهها بين يديها وغمغمت : « أواه يا سيدى .. اتوسل إليك .. لا تصدق الظواهر ! »

— يا لك من جبانة : لقد طالما لاحظت جبن امثالك من الذين يقتلون بالسم ، ولكن فاتك وأنت تعدين سمومك وتزيلين آثارها ببراعة تبلغ حد الإعجاز ، أن تقدرى النهاية التى سوف تقودك إليها آثامك ، ولكن لعلك قد احتفظت ببقية من سمك العجيب الفعال كى ينجيك من العقاب الذى تستحقينه ..!

فركعت الزوجة الشابة على ركبتيها ومدت إليه يدها مناشدة ، فقال لها : « أرى أنك تعترفين بجرائمك ، لكن الاعتراف للقاضى فى آخر لحظة لا يخفف من شدة العقوبة ، على أن زوجة القاضى الأول فى العاصمة ينبغى الا تموت على المشنقة فتلطخ بضربة واحدة سمعة زوجها وابنها . سيدتى . إنه لتصرف حكيم منك أن تموتى بذلك السم نفسه » .

وارتمت عند قدمى زوجها وهى تطلق ضحكة هستيرية مخيفة ، فقال لها وهو يهم بمغادرة الغرفة ، « فكرى فى الأمر يا سيدتى ، وسأخرج الآن ، فاذا وجدت عند عودتى أن العدالة لم تأخذ مجراها فسوف أبلغ ضدك بلسانى ، واقبض عليك بيدى ! » .

* * *

تمكن البوليس من إلقاء القبض على المجرم الهارب « أندريا كافالكانتى » — أو « بنديتو » — ثم قدم للمحاكمة بفضل الجهود التى بذلها مسيو « دى فيلفور » قاضى التحقيق . وقد افتن فى صياغة تقرير الاتهام بأسلوبه القوى الصارم . وفى الجلسة نودى المتهم وتليت عليه التهمة ثم سأله القاضى :

— اسمك ولقبك ؟

— اسمح يا سيدى أن اجيب على أسئلتك بغير الترتيب التقليدى المتبع ، وإلا فلن أجيب على الإطلاق !

فنظر القاضى إلى المحلفين فى دهشة ، ونظر هؤلاء بدورهم إلى فيلفور ، على حين ظل المتهم محتفظا بهدوء عجيب !

— سنك ؟

— سوف ابلغ الحادية والعشرين بعد أيام قلائل ، فقد ولدت ليلة ٢٧ سبتمبر سنة ١٨١٧ فى ضاحية « أوتوى » القريبة من باريس !

وهنا رفع « فيلفور » رأسه عن الأوراق التى كان يكتب فيها ، وشحب وجهه لدى ذكر تاريخ الميلاد ومكانه .. فى حين مسح المتهم شفتيه بمنديل فاخر !

وعاد « فيلفور » يسأله : « مهنتك ؟ » .

فاجاب : « فى البداية كنت مزيفا ، ثم صرت لصا ، واخيرا أصبحت قاتلا ! » .

واحدثت هذه السخرية ضجة فى صفوف المحلفين والنظارة ، ونظر الجميع إلى المتهم الوقح باشمئزاز ، على حين احمر وجه « فيلفور » وتململ فى مقعده كمن يبغى هواء يتنفسه فسأله المتهم وهو يبتسم :

— هل تبحث عن شىء يا سيدى المحقق ؟

ولم يجب « فيلفور » ، فتابع الرئيس استجواب المتهم :

— والآن ، هل لك أن تذكر اسمك ؟

— لست استطيع ذلك ، لأنى لا أعرفه .. لكنى أعرف اسم أبى ، وفى وسعى أن أذكره لكم !

وهنا تساقطت قطرات العرق من جبين « فيلفور » على الأوراق التى أمسكها بيده المتقلصة .. فى حين استطرد المتهم فقال فى هدوء :

— إن أبى يشغل منصب قاضى تحقيق !

فتساءل الرئيس ذاهلا ، دون أن يلحظ الانزعاج البادى على « فيلفور » : « قاضى تحقيق ؟ .. تقول قاضى تحقيق ؟ » .

— نعم ، وإذا أردتم معرفة اسمه فسأذكره لكم .. انه يدعى « دى فيلفور » !

وإذ ذاك انفجرت بين النظارة العاصفة التى حاولوا فى البداية قمعها توقيرا للمحكمة .. وشخصت العيون جميعا نحو « فيلفور » ، الذى كأنما حولته الصدمة إلى جثة هامدة. فى حين تابع المتهم اعترافه فى صوت قوى فقال :

— أيها السادة .. إنى مدين لكم بالبراهين المثبتة لأقوالى. لقد ولدت فى المنزل رقم ٢٨ شارع « النافورة » فى حجرة مبطنة بالحرير الأحمر .. ثم أخذنى أبى بين ذراعيه ، بعد أن ذكر لأمى أنى ولدت ميتا ، ولفنى فى منشفة عليها حرفا « هـ . ن » ثم حملنى إلى الحديقة حيث دفننى حيا !

وسرت بين المحلفين قشعريرة رهيبة ، على حين تابع الرئيس أسئلته :

— كيف وقفت على كل هذه التفصيلات ؟

— كان هناك شخص أخذ على نفسه أن ينتقم من أبى ، فكمن له فى الحديقة فى تلك الليلة ، حتى رآه يدفن صندوقا فى الأرض ، فطعنه بسكينه ، ثم أخرج الصندوق الذى حسبه يحوى كنزا ، فلما وجدنى حيا أخذنى إلى ملجأ اللقطاء فى باريس حيث بقيت به ثلاثة أشهر حتى أخرجتنى منه زوجة أخيه وعادت بى إلى بيتها فى (كورسيكا) .. وهناك نشأت فى رعاية أولئك القوم الطيبين ، لكن الوضع المقلوب الذى صاحب مولدى طغى على الفضائل التى حاولوا بثها فى قلبى .. فنموت فى الرذيلة حتى صرت مجرما ، وذات يوم كنت ألعن الأقدار التى خلقتنى شريرا ، فقال منقذى : « لا تجدف على الأقدار أيها الفتى التعس ، فالجريمة جريمة أبيك الذى نذرك للجحيم حين دفنك حيا كى تموت خاطئا ، قبل أن يدركك غفران الله » .

« ومنذ ذلك اليوم كففت عن التجديف على خالقى ، وصرت ألعن أبى » ! ولهذا نطقت الآن بهذه الأقوال التى ملأت قلوبكم اشمئزازا .. فاذا كنت قد ارتكبت بذلك جريمة إضافية ، فعاقبونى ، وإذا شعرتم معى بأنى منذ يوم مولدى لاحقتنى الأقدار بالأسى والمرارة والبؤس فارثوا لحالى ! » .

وسأله الرئيس : « وأمك ؟ .. » .

فأجاب : « أمى بريئة ! .. فقد حسبتنى ميتا .. لذلك لم أعبا حتى بأن أعرف اسمها ، ولست أعرفه ! »

وعندئذ انطلقت من بين صفوف النظارة صرخة ثاقبة صادرة من امرأة كانت تغطى وجهها بنقاب .. فلما أجهشت بالبكاء فى نوبات هستيرية سقط النقاب عن وجهها فعرف الجميع فيها « مدام دانجلر » .. ولم يكد بصر « فيلفور » يقع عليها حتى هب من مقعده واقفا دون وعى منه .. وتابع الرئيس أسئلته للمتهم ، قائلا :

ـ الأدلة .. الأدلة .. تذكر يا هذا أن هذه الأقوال المروعة يجب أن تستند إلى أدلة حاسمة !

فأجاب بنديتو ضاحكا : « تريدون الأدلة ؟.. انظروا إذن إلى وجه مسيو « دى فيلفور » ثم طالبونى بالأدلة ! » .

واتجهت جميع الأنظار إلى قاضى التحقيق ، الذى عجز عن مواجهة آلاف العيون المسلطة عليه .. فنهض من مقعده وسار مترنحا مشعث الشعر وقد بدت على وجهه خدوش أظفاره ، فانطلقت من الجمع غمغمة دهشة .. وخاطب المتهم ، قائلا :

ـ أبى ! .. إنهم يطالبوننى بالأدلة ، فهل تريد منى أن أقدمها ؟

وهنا قال « دى فيلفور » : « كلا !.. لا فائدة من ذلك ! » .

فصاح به الرئيس : « ماذا تعنى ؟ » .

فقال : « أعنى أننى أشعر باستحالة مقاومتى لليد الجبارة المميتة التى تسحقنى .. إننى الآن بين يدى إله منتقم جبار ،

ولستم فى حاجة إلى أدلة ، فإن كل ما ذكره هذا الشاب صحيح ! .. وإنى منذ هذه الساعة أضع نفسى تحت تصرف ممثل الاتهام الذى سيخلفنى ! » .

ثم سار نحو الباب كمن يمشى نائما ومضى إلى منزله حيث دخل غرفة زوجته ، وصاح بها ، « هليويز !.. هليويز » .

وجدها واقفة فى وسط الغرفة شاحبة الوجه غائرة العينين ، فهتف بها : « هيلويز ، ماذا حدث ؟ » .

فأجابت فى حشرجة ، بدت كأنما تمزق حلقها :

ـ لقد تم لك ما أردت .. ماذا تبغى بعد ذلك ؟!

ثم سقطت بكل ثقل جسمها على الأرض !.. فهرع « دى فيلفور » نحوها وأمسك بيدها التى كانت متقلصة على قنينة صغيرة ثم هتف :

ـ رباه .. !

واندفع كالمخبول إلى خارج الغرفة وهو يصرخ : « إدوارد .. إدوارد ! .. » أين ابنى ؟ يجب إبعاده عن البيت حتى لا يرى ! » .

فأجابه الخدم : « السيد « إدوارد » فى غرفة والدته .. لقد استدعته منذ نصف ساعة ولم يخرج ثانية ! » .

وأسرع عائدا إلى تلك الغرفة فانطلقت من صدره صرخة مروعة وهو يلمح جثة ابنه فى ركن قصى ، وغمغم : « إنها يد الله ! » ولم يستطع البقاء فى رفقة جثتين ، وكأنما أراد أن

يجد شخصا يقص عليه احزانه ويبكى إلى جواره .. فمضى إلى غرفة أبيه !

وهناك وجد « نوارتييه » يصغى بانتباه إلى الأب « بوزونى » ، الذى كان هادئا باردا كعادته !.. فقال له « دى فيلفور » : « هل أنت هنا يا سيدى ؟.. أو لا تظهر إلا فى صحبة الموت ؟ » .

فالتفت الأب « بوزونى » إليه ، وإذ رأى هيئة « فيلفور » ادرك ان الفضيحة التى دبر أمر إثارتها فى المحكمة قد تمت طبقا لخطته المرسومة ، فأجاب : « لقد جئت لأصلى على جثمان ابنتك .. ولأقول لك إنك قد دفعت دينك بما فيه الكفاية ، وإننى منذ هذه اللحظة سأصلى إلى الله كى يغفر لك ، كما اغفر لك انا ايضا ! » .

فهتف « دى فيلفور » وهو يتراجع إلى الخلف مفزوعا : « يا للسماء !.. ليس هذا صوت الأب « بوزونى » ! » .

فابتسم هذا واوما موافقا ، ثم خلع عباءته وشعره المستعار ، واسدل شعره الطبيعى على عنقه .. فصاح « دى فيلفور » مرتاعا :

ــ الكونت « دى مونت كريستو ؟! » .

ــ إنك لست مصيبا تماما يا سيدى القاضى .. ينبغى ان ترجع بذاكرتك إلى الوراء اكثر من ذلك لكى تعرف مواطنك القديم « إدمون دانتيس » ! .

وجن جنون « دى فيلفور » ، وانطلق يعدو حتى بلغ الحديقة ، فأخذ يحفر الأرض بفأس فى يده وهو يصيح :

ــ إنه ليس هنا .. ليس هنا ! لكننى سوف أجده .. سوف أجده ولو ظللت احفر إلى الأبد !

وكأنما خشى الكونت ان تنطبق عليه جدران البيت المشئوم، فاندفع إلى الشارع وهو يسائل نفسه لأول مرة عما إذا كان قد أصاب أم اخطأ فيما فعل !.. « أوه .. كفى .. كفى .. فلأنقذ الأخيرة ! » .

وحين بلغ منزله وجد مكسمليان فى انتظاره ، فقال له وهو يبتسم : « أعد نفسك للسفر يا « مكسمليان » .. فسوف نغادر باريس غدا ! » .

ــ اليس عندك ما تفعله هنا بعد الآن ؟

ــ كلا ! .. فالله يشهد انى فعلت اكثر مما ينبغى !

وفى اليوم التالى رحلا ، يرافقهما من الخدم « بابتستان » وحده ، فقد أخذت « هايدى » « عليا » معها ، وبقى « برتوشيو » مع « نوارتييه » !

* * *

دخل البارون « دانجلر » بعربته مدينة « روما » من طريق بوابة (ديل بوبولو) ، ثم اتجه بها إلى اليسار حتى امر الحوذى بالوقوف امام باب « فندق اسبانيا » .. وهناك دخل فتناول وجبة شهية وسأل عن عنوان بنك « تومسون وفرنش » .

وحين غادر الفندق بصحبة الدليل ، انسل من جمهرة المتسكعين عند الباب شخص تبع البارون ودليله بخفة رجال البوليس السرى وبراعتهم .. ولما دخلا البنك تبعهما إلى الردهة الداخلية ، حيث كلف « دانجلر » احد الكتبة بإبلاغ المدير نبأ حضوره ، ثم ادخل إلى حجرة المدير بعد قليل ، فى حين جلس مراقبه على احد المقاعد بالردهة أمام الكاتب الذى انصرف عنه نحو خمس دقائق ، ثم رفع راسه عن اوراقه ، وإذ اطمأن إلى ان احدا لا يسمعه غير ذلك المراقب ، قال يحدثه : « اهذا انت يا ببينو ؟ » .

فرد عليه هذا هامسا : « لعلك وجدت فى هذا السيد صيدا دسما ؟ » .

فقال الكاتب : « كيف لا ، وقد جاء ليسحب خمسة ملايين من الفرنكات ، بإيصال من الكونت « دى مونت كريستو » ؟ » .

وساله المراقب : « كيف عرفت كل ذلك ؟ » .

فأجاب : « لقد أخطرنا به من قبل ! » .

ثم خرج « دانجلر » متهلل الوجه ، فودعه المدير حتى الباب .. ثم تبعه « ببينو » بعد ذلك .

وفى الصباح استيقظ « دانجلر » متأخرا ، فتناول إفطاره ثم أمر بإعداد العربة للسفر ، معتزما الرحيل إلى البندقية ، حيث يتسلم جانبا من ثروته التى بقيت له ، ثم يتابع السفر إلى فينا ، حيث يتسلم بقيتها ، ويقيم هناك .

على انه لم يكد يقطع بعربته ثلاثة فراسخ بعد روما حتى

اوقفت عربته فجاة وفتح بابها ، واطل منه أربعة من رجال العصابات المسلحين ، امره احدهم بالهبوط ، ثم عصبوا عينيه وقادوه إلى مغارة فى قلب الصخر ، حيث أدخلوه زنزانة خالية نظيفة تقع تحت سطح الأرض بعشرات الأمتار ، وفى ركن منها فراش من القش مغطى بجلد الماعز .. ثم اغلقوا عليه الباب !

ومر يوم كامل ، ذاق فيه الملونير السجين آلام الجوع ، وتنبه اخيرا على حركة بقرب الباب ، فاذا « ببينو » يجلس خارج الزنزانة يعد طعاما شهيا وقد وضع إلى جواره زجاجة من النبيذ وسلة من العنب .. فسال لعاب « دانجلر » ، وطرق الباب بخفة ، فاقبل عليه اللص يساله :

— هل فخامتك جائع ؟

فقال له :

— عجبا !.. كيف لا وانا لم اتناول طعاما منذ ٢٤ ساعة ! نعم يا سيدى ، أنى جائع .. جائع جدا !

فساله « ببينو » :

— ماذا تحب من الوان الطعام .. إننا هنا جميعا رهن إشارة فخامتك !

— اريد دجاجة ، وسمكا ... اى شىء .. المهم ان آكل !

وعندئذ نهض اللص وصاح كما يفعل الندل فى المطاعم :

ـ دجاجة محمرة لصاحب الفخامة !

ولم تمض لحظات حتى اقبل شاب نصف عار يحمل على راسه صينية بها الطبق المطلوب ، فوضعه اللص أمام السجين ، ولم يكد هذا يتناول السكين والشوكة ويهم بقطع الدجاجة حتى استوقفه « بيبنو » قائلا :

ـ العادة هنا أن تدفع قبل الاكل ، فقد لا يعجبك الطعام!

وقال « دانجلر » لنفسه :

ـ لقد سمعت أن الدجاج رخيص هنا فى إيطاليا ، حتى ان الدجاجة لا يزيد ثمنها على ١٢ سنتيما ، ولن أدعهم يخدعوننى !

ثم اخرج من جيبه ليرة قذف بها إلى اللص ، فتناولها هذا ، ولكنه استوقف السجين عن الأكل مرة اخرى ، قائلا فى هدوء .

ـ فخامتك مدين لى الآن بمبلغ ٤٩٩٩ ليرة !

ففتح المليونير فاه ذاهلا ثم قال ساخرا : « كم انت لطيف ! .. يا لها من دعابة ! .. إليك ليرة اخرى ودعنى آكل ! » .

فأخذ اللص الليرة الجديدة فى عدم مبالاة وقال : « يبقى لى فى ذمتك الآن ٤٩٩٨ ليرة .. سأحصل عليها فى الوقت المناسب » .

فقال « دانجلر » وقد ساءه أن الدعابة طالت :

ـ إنك لن تحصل عليها على الإطلاق ، اذهب إلى الشيطان انت ودجاجتك ما دمت لا تعرف مع من تتعامل !

وهنا أشار « بيبنو » إلى الشاب نصف العارى ، فرفع المائدة ورجع بها من حيث أتى ، فى حين عاد اللص إلى تناول طعامه خارج الباب !

وارتمى « دانجلر » على جلد الماعز ، وانقضت ثلاثون دقيقة بدت له قرنا من الزمان ، فلما عجز عن تحمل آلام الجوع ، نهض واتجه إلى الباب وهتف قائلا : « تعالى هنا ياسيدى .. لماذا تدعنى أموت جوعا ؟ .. قل لى ماذا يطلبون منى ؟ » .

فاجاب : « إنك انت يا سيدى الذى ينبغى أن تطلب .. مر ونحن ننفذ ! » .

ـ إذن افتح الباب فورا .. اسمع يا هذا .. أريد شيئا آكله ، أتفهم ؟

ـ أى لون من الطعام تفضله ؟

ـ قطعة من الخبز الجاف ، ما دام الدجاج يباع فى هذا المكان اللعين بسعر جنونى !

ـ خبز ؟ حسنا ! إذن تدفع أربعة آلاف وتسعمائة وثمانية وتسعين ليرة ، فقد دفعت فخامتك ليرتين مقدما !.. إن كل الوان الطعام هنا سواء فى الثمن ! وفخامتك تملك خمسة

ملايين وخمسين الف فرنك ، أى ثمن خمس دجاجات ونصف دجاجة !

وهنا ارتعد « دانجلر » ، إذ انكشفت الحقيقة لعينيه ، وادرك مدى الخطر الذى يهدده ، فصاح باللص :

ـ إنكم تريدون تجريدى من كل شىء .. الأفضل من ذلك أن تنهشوا لحمى وعظامى ! اين هو كبيركم ؟ اريد أن أراه حالا !

وفى اللحظة التالية ظهر « لويجى فامبا » أمام الباب ، فسأله « دانجلر » : « كم تطلب فدية لى ؟ » .

ـ لا شىء غير الملايين الخمسة التى تحملها !

فازدرد دانجلر لعابه وقد شعر برعب لا مثيل له ، وقال :

ـ ولكن هذا المبلغ هو كل ما بقى لى من ثروة ضخمة ، فإذا حرمتنى منه ، فالأولى أن تأخذ حياتى اولا !

ـ نحن ممنوعون من ان نريق دمك ! هنا رئيس أعلى منى !

واستمر تصميم « دانجلر » على عدم الدفع يومين ، عرض بعدها مليون فرنك ثمنا لوجبة طعام .. فأرسلوا إليه عشاء فاخرا واخذوا منه المليون !.. ومنذ تلك اللحظة اعتزم السجين الا يضن على نفسه بشىء ، وفى نهاية اليوم الثانى عشر تناول عشاءه الشهى ثم حسب حسبته .. فاذا المبلغ الباقى معه لا يجاوز الخمسين الف فرنك !

وهنا حدث امر غريب ، فان الرجل الذى فرط فى الخمسة ملايين لم يتحمل التفريط فى الخمسين الفا : بل اعتزم أن يحتفظ بها ولو مات جوعا !

وانقضت ثلاثة أيام على هذا المنوال ، وفى اليوم الرابع كان قد أصبح حطام إنسان ، هيكلا باليا .. حتى لقد راح يقتات من فتات الجير والحصير الذى يكسو بلاط الحجرة !.. وأحيانا كان يهذى .. ثم عرض على « ببينو » الف فرنك ثمنا للقمة واحدة من الخبز ، لكن اللص لم يجب !

وفى اليوم الخامس جر جسمه جرا إلى الباب ، وركع على ركبتيه مناشدا اللص قائلا : « الستم مسيحيين ؟ اتريدون قتل شخص هو فى نظر السماء أخ لكم ؟ » وهنا سمع « دانجلر » صوتا عميقا رزينا يسأله : « هل شعرت بحاجتك إلى التوبة والتكفير عن ذنبك ؟ » .

فجعل الصوت شعر رأسه يقف !.. وحاولت عيناه الضعيفتان أن تميزا الأشياء ، فرأى وراء اللص شخصا ملتفا بعباءة ، تكاد تحجبه الظلال ، فسأله وهو يرتعد فرقا :

ـ أكفر عن أى ذنب ؟.. ماذا تعنى ياسيدى ؟

ـ عن الشر الذى ارتكبته !

ـ إنى أكفر عن كل شرورى يا سيدى لعلى أنال الغفران!

ـ إذن فأنا أصفح عنك !

ثم خلع الرجل الغريب عباءته ، وتقدم نحو النور .. فهتف دانجلر :

ـ الكونت « دى مونت كريستو ؟ » .

فقال له : « انت مخطىء ، إننى لست الكونت « دى مونت كريستو » ! » .

ـ إذن من أنت ؟

ـ انا الرجل الذى بعته وانتزعت منه خطيبته وسحقته ، كى تصل على جثمانه إلى المجد والثراء !.. انا الرجل الذى قتلت أباه جوعا ، وعرضته هو للموت جوعا .. ومع ذلك فهو يغفر لك ، لأنه يطمع فى أن يغفر الله له !.. انا « إدمون دانتيس ! » .

وعندئذ أطلق « دانجلر » صرخة مروعة وخر على ركبتيه .. فصاح به الكونت :

ـ انهض .. فحياتك فى أمان ، الأمر الذى لم يتح لشركائك .. فأحدهم جن والثانى مات .. احتفظ بالخمسين ألف فرنك لك . إنى أمنحك إياها .. أما الملايين الخمسة التى سرقتها من المستشفيات فقد ردتها إليها يد أمينة !

ثم التفت إلى « فامبا » قائلا : « حين يفرغ من طعامه .. أطلق سراحه ! » .

* * *

كانت الساعة السادسة مساء ، حين انزلق اليخت الفاخر على صفحة البحيرة الكبرى الممتدة بين جبل طارق والدردنيل ، وبين تونس والبندقية ، حاملا على ظهره «مكسمليان موريل» فى طريقه إلى جزيرة الكونت « دى مونت كريستو » ، حيث واعده الكونت على اللقاء هناك !

وحين هبط الشاب وجد الكونت فى انتظاره ، وأخذه هذا إلى كهوفه المفروشة بالدمقس والحرير ، وأفخر الطنافس والرياش ، ثم قال له :

ـ اصغ إلى يا صديقى : أنت تعلم انه ليس لى أهل ، واننى قد اتخذتك بمثابة ابن لى ، وسوف أورثك المائة مليون فرنك التى أملكها .. فاستمتع بها ، إنها تفتح لك أبواب المجد والسعادة ، وكل شىء !

فأجابه الشاب فى لهجة التصميم : « كلا ، لن يعوضنى ذلك عن فقد ملاكى الجميل .. أريد أن أموت كى ألحق « بفالنتين » .. لقد وعدتنى بأن تمنحنى الموت ، بطريقتك السهلة المريحة .. فأنجز وعدك ! » .

وإذ رأى الكونت تصميم الشاب ، سقاه جرعة من مادة كان يحتفظ بها فى زجاجة صغيرة محلاة بالأحجار الكريمة .. فبدأ « مكسمليان » يفقد حواسه بالتدريج .. حتى خيل إليه أنه يرى أبواب السماء تفتح لاستقباله ، و « فالنتين » تخف لقائه .. ثم غاب كل شىء عن ناظريه .. ورقد بلا حراك !

وبعد قليل ، أحس أنه يفيق .. فتململ فى رقدته ، حتى استرد شيئا من وعيه ، ثم هتف :

ـ آه ، لقد خدعنى الكونت ! ما زلت على قيد الحياة !

ومد يده ليختطف سكينا كانت على منضدة قريبة ، كى ينهى بها حياته .. وإذ ذاك سمع صوت « فالنتين » تهتف به

— افق يا حبيبى ، وانظر إلى !

كان الكونت « دى مونت كريستو » قد سقى « فالنتين » ليلة زارها فى مخدعها مخدرا يجعلها تبدو فى هيئة الميتة ، فلما دفنت وانصرف المشيعون ، اخرجها من نعشها الذى كان قد ترك به ثقبا يمر فيه الهواء ، ثم سقاها سائلا اعادها إلى وعيها .. ونقلها إلى جزيرته كى يمهد الطريق إلى لقائها مع حبيبها « مكسمليان ! » .

وفى اثناء إغفاءة الشاب ، ادخلها إلى حيث يرقد ، ولبث الاثنان يرقبان يقظة النائم ، وقال الكونت يحدث الفتاة :

— « فالنتين » .. لا شىء سوف يفصلكما على الأرض ، بعد ان دفع « مكسمليان » نفسه إلى احضان الموت كى يلقاك !.. يكفينى سعادة انى جمعت بينكما .. فليسعدكما الله !

وبعد لحظات ، افاق الشاب من تاثير المخدر ، فلم يكد يصدق عينيه .. وركع جاثيا على ركبتيه امام حبيبته التى ردت إليه ! وفى الصباح التالى كان الحبيبان يتنزهان على شاطىء البحر ، حين اقترب منهما قبطان اليخت ، وسلم إلى الشاب رسالة من الكونت « دى مونت كريستو » هذا نصها :

— عزيزى « مكسمليان » .. سوف يحملكما اليخت إلى حيث ينتظر « نوارتييه » حفيدته الغالية ، كى يباركها قبل الزواج .. اما كهوفى التى فى الجزيرة ، وقصرى فى الشانزليزيه ، وقصرى الآخر فى (تريبور) فهى هدايا الزواج

التى يهبها « إدمون دانتيس » لابن سيده القديم « موريل » ، ورجائى ان تشاركك زوجتك إياها .. أما ثروتها التى ورثتها عن أبيها الذى جن ، وأخيها الذى مات بين أحضان أمه ، فانى أطمع فى ان تتنازل عنها للفقراء !.. وقل للملاك التى ستشاركك حياتك أن تصلى بين حين وآخر من اجل رجل حسب نفسه — كما فعل ابليس من قبل — فى مرتبة الله ، لكنه يعترف الآن — فى خشوع ومذلة — أن الله وحده هو الذى يملك الإرادة العليا والحكمة اللانهائية .. فلعل هذه الصلوات تخفف من وخز الضمير الذى يشوب حياته !.. اما انت يا « موريل » فاليك سر تصرفى معك : ليس فى الدنيا سعادة مطلقة وشقاء مطلق ، وإنما هناك مقارنة بين حالة واخرى .. ومن ذاق الألم والعذاب كان اقدر الناس على أن يحس السعادة القصوى ، وينبغى أن نعرف الموت كى نقدر متع الحياة .. !

● فلتعش يا عزيزى ولتسعد ، مع العزيزة « فالنتين » .. وإياك أن تنسى يوما ان حكمة البشرية جمعاء تتلخص فى هاتين الكلمتين : « انتظر وتذرع بالأمل ! » .

صديقك

« إدمون دانتيس »

أو

الكونت « دى مونت كريستو »



روايـــات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

فى صباح ٢٤ فبراير (١٨١٥)، أشرقت الشمس فى نعومة على المياه الزرقاء للبحر الأبيض المتوسط حول جزيرة (ألبا)، حيث كان نابليون بونابرت ـ الحاكم المطلق لفرنسا قبل ذلك ـ قد أصبح ملكًا لهذه الجزيرة الصغيرة فحسب .

وبعد أن كان الحاكم على رعايا بلغ تعدادهم ١٢٠ مليون نسمة ، صار الآن حاكمًا لرعايا الجزيرة البالغ عددهم ستة آلاف نسمة فقط . وفى فرنسا ، كانت أسرة (البوربون) الحاكمة قد عادت إلى العرش فى شخص « لويس الثامن عشر » ، الشقيق الأصغر للملك السابق « لويس السادس عشر » الذى أعدمته الثورة . وكان أصدقاء نابليون فى باريس يخططون لإعادة الإمبراطور السابق إلى عرش فرنسا ، بينما كان هو نفسه منهمكًا فى التخطيط لعودته المظفرة !

حلمى مراد